المحبوبات

عالية ممدوح

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

دار الساقي

صدر للكاتبة عن دار الساقي

الغلامة (رواية)

عالية ممدوح

المحبوبات

روايـة

الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٣
الطبعة الثانية ٢٠٠٧
الطبعة الثالثة ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-620-2

دار الساقي
بناية ثابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

إلى هيلين سيكسو

[١]

في المطارات نولد وإلى المطارات نعود.

إنني متأكد من أن أمي سهيلة قالت هذه الجملة يوماً ما. سمعتها بوضوح وهي تتحدث مع نفسها، وتستعد لمغادرتنا. يحدث ذلك من حين لآخر، عندما نكون نياماً وهي جالسة في الصالون، أو حين نكون في الخارج وهي في المطبخ تقطع الخبز وترتب باقات الخضار في طبق عميق. تنحني قليلاً ثم تقوم واقفة بقامتها القصيرة، دافعة بجسمها النحيل إلى الخلف، فتنجز أفضل الأعمال حين تعرف أنها غير مراقَبة من أي واحد منا.

كانت تقول:

«أحدس أنهم، أباً عن جد، سيحضرون ويتكلمون معي، وما أنا إلا مجرد والدة تقرّب المسافات بين الجميع».

كانت تؤمن بصدق حدسها. تحدس كـ «نبية» لم تخطئ «نبوءاتها» يوماً. لم يزل حدسها أفضل أصدقائها. تقيس الزمن ما بين الأحياء والأموات و«الفاصل بينهما يا أمي»؟ «لا فاصل بين الاثنين، لا فاصل» «لكن»، «بلا لكن».

كانت تتحدث بصوت خفيض كأنها تخاطب طيفاً:

«كنا نقول، نحن النسوة، إننا نستطيع البكاء والتحدث ونحن

مجتمعات. كانت تقودنا تلك الأحداث إلى التذكر؛ لا أحد يلاطفنا كما يجب، الملاطفة نوع من العلاج. لا، لم نبالغ لكننا نحدس كثيراً بما حصل لنا ولهم، وبما سيحصل. فحين تكون إحدانا بعيدة عن الباقيات نعتقد أن لا أمل لنا، لكن ما إن نجتمع معاً، حتى لو كان الحديث عن غيرنا بدافع النميمة وإطلاق الشائعات، نكتشف أن بعضنا، كلاّ، كلنا، في حاجة إلى مساعدة. لسنا وحيدات؛ ثلاث نساء، أربع، مرات أكثر، اثنتان بالزي الإفرنجي، على الموضة، وثالثة بالسروال البلوجينز الضيق والمدندش، وأنا بالتنورة البليسه الطويلة، التي تجعلني أبدو أطول قليلاً. البلوزة دائماً عريضة لتخفي حجم صدري الكبير. كنت أقول أحياناً لهنّ مازحة: تصوروا لو كانت لنا شوارب مثلهم، لو نعتمر قبعة أحد أزواجنا، لو نكون بدلاً عن السُّواق، نحن اللاتي نسوقهم إلى مقار أعمالهم. لكنهن لا يستجبن للضحك كما كنت أتوقع، فأحرك جسمي أمامهن، أسند ظهري إلى مقعدي الأرضي الذي تعرفه، أحرك الوسادة ذات القماش الهندي والبلك والمرايا وخيوط الفضة ورائي تنخزني قليلاً لكني لا أهتم. لا أقدر على تحريك ساقي وظهري كما يجب. يعتقدن دائماً أنني مريضة، قبل أن يعرفن مثلاً، أنني ضُربت ليلة البارحة ضرباً حقيقياً. ذلك ليس مجرد حدس يا نادر، فالشك كان يتبدد بمجرد أن أبدو أمامهن، واقفة أو جالسة، بشرتي مصبوغة، خداي متوردان كالعادة بالأحمر الفاهي، عيناي الكبيرتان يزداد اتساعهما وأنا أظلل جفنيهما باللون الرمادي المزرق كي أخفي ورمهما، طكنّ أياً منهن لم تنصحني بحل ما. كنا نتشابه ونحن نتحدث عن أمر طبيعي، تلك الأمور، سمّها ما شئت لكن لا تقل إنها مأساة، فهذا أمر مضحك، كما لو أنها حصلت لغيرنا، نراها في شريط فيديو ولا نحقد عليها أو عليهم. الأمر بالنسبة إلينا، لم يكن يعني فقدان الاحترام كما يفقد المرء الشرف، أقلّه بالنسبة إليّ. قد يكون هذا ما يميزنا عنهم. بالطبع كانت مشكلة تضايقنا، لكنها لم

تستطع أن تسحب أسماءهم من بين شفاهنا. كنا نذكر اسم فلان وعلاّن بإلحاح، وننتقل إلى الاسم الثالث والرابع وهلم جرا. أنا، لم يخرجني الضرب المبرح عن طوعي، أما تلك الكلمات؛ الكبرياء، الكرامة، والنحيب حتى ساعة متأخرة من الليل، جميع تلك المفردات لا معنى لها. كان استياؤنا صادراً عن رأفة بهم ليس إلا. الشيء المذهل، أننا كنسوة، نبدو وكأننا صفحنا عن كل شيء؛ الألم الشديد، الرفسات في القفا والهراوات العسكرية. كان المسدس في بعض الأوقات، يخرج من الدرج ويصوَّب علينا خلال ثوان، فيشعرون بلذة طاغية حين يشاهدوننا نستعد للفرار من أمامهم. نقصّ ذلك بعضنا لبعض، نتضاحك وتعود الصور لتبهرنا أكثر. كيف لم نهرب، كيف عدنا إليهم ثانية، نبتسم في وجوههم ونخفي استياءنا وراء الجدران العالية؟ لم نكن بلهاوات وسخيفات فقط، كنا نرفض النوم على السرير نفسه، أو ربما في الغرفة نفسها. لم نتعثر بثيابنا قطّ ونحن نحاول الفرار كما يتوهمون، بل نكون متأهبات؛ نتجلّد ونهزأ منهم حتى يسأموا ويكفّوا. كان علينا أن نعترف بأن ما يحصل لنا في الغرف الخاصة البعيدة عن الأنظار، عن نظرك بالذات، وأنظار الخدم والسواق، هو مجرد نشاط زائد عن حدّه وفي غير موضعه، ولا يجوز التباهي به بالطبع. نعم، هو خطأ وليس خطيئة ولا حتى فضيحة اجتماعية. دعك من التسميات، فالأمر سيان. بالنسبة إليّ، كان الضرب يمنحني رخصة للنوم من شدة التعب. يخدّرني وحالتي تزداد سوءاً، لكنك لم تر ذلك يوماً، لم أدعك أبداً تراه. كنا جميعنا كنسوة، نعيش في الأحياء نفسها المسيجة بالأسلاك الشائكة والجدران الشاهقة، نركب العربات ذات الموديلات الحديثة، نتواطأ مع بعضنا البعض وتستّر إحدانا على الأخرى. لكن أحداً لم يذكر أمامنا ولو لمرة واحدة، أن ما يحصل لنا كان بسبب أزواجنا القساة.

تصوّر، في إحدى المرات، حاول والدك أن يطلب عربة الإسعاف

بعدما أغمي عليّ وأنا أتهاوى بين يديه. صحوت كالمعتوهة وتملّكني الخوف عليه إذا ما حصل سين وجيم. هو من ترك الأمر جانباً. قلت لنفسي يوماً، إذا ما توقف عن جميع هذه التصرفات الخرقاء، فسأعود إلى ممارسة الرقص الشعبي الذي شُغفت به وعافته نفسي من أجله، حين كنت أدرس المسرح والتمثيل في أكاديمية الفنون الجميلة. وها أنت تراني أهز جسدي وألاعب ولدك ليون. أتمايل في جميع الجهات، هو بين ذراعي وأنا أشبه المجلوبة. كنت أرقص كي أرفض من خلاله أموراً شتى، وأنا أدسّ في جسدي تفاصيل جديدة من الحركات والخيالات. كنت أجهل نفسي وجسمي. كنت أريد أن أبدو أفضل من ليلة البارحة. في ما بعد، بعد ذلك بأعوام أثناء وجودنا في باريس، قلت لسارة العراقية زميلتي في السكن والحياة: «من الجائز أن يكون الرقص عنفوان الشعوب الضعيفة». لكن والدك حين يعود من المعسكر ليلاً، يبدو وكأنه عائد من وراء البحار، يشبه القرصان، يعاني، ربما أكثر مني. أنظر في عينيه جاهلة كل شيء ما عدا أنه في مكان ما، يعاني من مرض في الغدد الصماء، أو المخ، ربما من فرط الجنس فيه. لا نتلامس في البداية، هو لا ينظر في عيني تماماً ولا يبحث فيّ عن آثاره. يستحي، يبالغ في الاحتشام حتى كأننا نتقابل للمرة الأولى، وأنا أحب حالته تلك. يحوم حولي مثل طائر مذبوح، يمد يداً ويؤخر الأخرى. يتعثّر بثيابه التي خلعها بسرعة ورماها في إحدى زوايا الغرفة. يكاد يقع، فيدخل في نوبة سباب بذيء وفاحش. يحرّك يديه بطريقة بهلوانية مضحكة وسوقية تضايقه ولا يكف عنها، وأنا واقفة أمامه أتفرج في منتهى الرزانة. يرفع فجأة اللحاف بعصبية ويندسّ تحته، ويرتفع شخيره المزعج خلال ثوان كأنما يتقصّد فعل ذلك. حينها أنظر إليه كأنه سيموت بعد دقائق. أطفئ النور وأكاد أقفز إلى السرير بجواره. كانت طريقته في النوم شديدة الإغراء، تحمل وحدها سلطة عليّ، لكن سرعان ما كنت أعود إلى سلبيتي وضعفي.

حين أغيب عنه، أسمعني أقول بصوت هادئ وأنا أغلق الباب: ها هو رجلي السوبر، إنه بصحة جيدة، خصب، شهواني وقادر دائماً على تكرار هذا العمل. سامحني يا نادر إذ أرفع الستارة أمامك عن سنوات حياتنا تلك التي خلت، كما لو كنا نجري التمرينات، كل منا، لكي يقدم لك أنت باللذات صورة عن نفسه، أفضل صورة، وإذا ما استثنيت منها بعض المنغصات والسفاسف، كنت أتصور، أننا سوف نستحق على الأقل سكوتك، لا رحمتك.

كان والدك في منتصف الثلاثينيات وأنا ما زلت شابة يافعة في الرابعة والعشرين من عائلة متوسطة. والدي مخرج مسرحي معروف وأمي مديرة مدرسة ابتدائية تقاعدت مبكراً لأسباب صحية وهي لم تتجاوز الثامنة والأربعين. وكان بمقدوري أن أنجب منه طفلة أو طفلتين في قادم الأعوام».

قامت ووقفت أمام النافذة الكبيرة التي تطل على حديقة صغيرة وبيوت الجيران. أخذت نفساً عميقاً وأطلقت زفرة قوية. تذكرت أمراً ما فاستأنفت بصوت ضعيف:

«لم نغرم في البداية كما تقرأ وتسمع عن قصص الحب. في ما بعد يا نادر، أطلق عليّ اسم الرصاصة القاتلة وأنا أسميته بندقية الصيد. كنا نتمازح ونهزأ بهذه الطريقة من جميع تلك الأمور والآلات والأدوات التي تجاورنا ونشاهدها في الشوارع والتلفزيون. كانت أكثر من مجرد آنيات زهور وحدائق عامة. جميع رسائلنا الغرامية كانت تغرف من القاموس العسكري. فهو ضابط مقدام وشجاع، ورياضي تخرج من كلية الأركان وكان زهرة عائلته المتوسطة. قريب أمي هو، لكن من بعيد. ويوم تقدم لخطبتي، هي التي رفضت بينما أصرّ والدي عليه. كان يضع الرسائل التي تبادلناها، في فترة الخطوبة القصيرة، في أمشاط المسدس فتفوح منها رائحة البارود، وكلما أخرجنا تلك الأوراق

الصغيرة، كانت تُدخلنا الآثار الباقية عليها في نوبات من الضحك الهستيري».

تبتسم، وأشاهد للمرة الأولى نوعاً من السخرية في حركة شفتيها. كانت سخريتها مُرّة لكن هادئة. تلتفت ولا تنظر إليّ، تمشي بهدوء وتعاود العمل على ترتيب شرشف الطاولة، تسوّيه من جميع الجوانب، تُحني رأسها لكي تتأكد من أنه لا يتدلى من هذا الطرف أو ذاك. تفضّل سهيلة هذه التفاصيل، فتقف ثانية لتتأمل كل شيء من بعيد:

«حان دورك يا نادر. ضع الشُّوك والملاعق والصحون ولا تنسَ أن تبدّل ماء تلك المزهرية وألا تضعها أمامنا كأننا في حفل وداع. دعها بعيداً، فلا يزال لدينا متسع من الوقت قبل الذهاب إلى المطار. هل انتهت سونيا من الحمام»؟

[٢]

(١)

«في المطارات نولد. . .»

كررتُ هذه الجملة لنفسي مرات عدة كأنني أمام سرير ليون، أرتّلها له كعادتي لكي ينام بهدوء. كان من الصعب تذكُّر غيرها، ومن الأصعب عدم وجود سواها. انتابني خوف شديد لمّا وقع نظر شرطي الأمن الفرنسي في مطار شارل ديغول على ملف أوراقي الكندية المؤقتة. أُصبت بالهلع. خوف يشبه الأسيد، قادر على حرق جلدي وقلبي من دون أن ينبعث مني أي دخان. لازمني طوال سنيّ عمري ولا أعرف من أين أتى ومتى سيتخلى عني. كان حاضراً على الدوام وأنا أمشي خلفه، وسط المدن والناس والبيوت التي سكنتها، فالتصق بعضنا ببعض وبدونا كتوأمين. تقول أمي: «لا، خوفي أنا كالزرنيخ أضعه في جيوبي، وهو حاضر للمص والبلع».

أكاد أهوي، فأتمسّك بالحاجز الخشبي أمامي. كنت أدري في النهاية أن دمي سيكون وفياً وأنا أدفعه بعيداً، متستراً عليه كذنب أو كعاهة؛ الدم العربي. وأقف في المؤخرة والآخرون يحدقون فيّ بصورة غامضة، فلا أعود أحب نيتي الطيبة تجاه الغير.

نظر الشرطي في عيني كاشفاً قلقي.

«عيناك يا نادر لهما وعليهما مسؤوليات. دع نظاراتك الطبية جانباً ودعني أرك بعيوب النظر القصير أو الطويل، فهذه هديتك لي. لا تقاصصني بإخفاء عينيك عني. أريد أن أتأكد، أهما جافتان أم ندّيتان بالدمع وأنت تودّعني»؟

هكذا هي سهيلة، تطلب مني ترخيصاً بالنظر على طريقتها، ونحن نفترق، وندمن لعبة الافتراق لمئات الأسابيع. بوسعي أن أنفجر غضباً ولا أدعها تلاحظ ذلك. كان الشقاء التام، ليس الطرد من الجنة، جنة الأمومة الملوكية التي تعلقت بها كمركز للكون، فتجاهلتها بطريقتها القاسية ونحن نزداد ابتعاداً، فأحسب أن الجنة ليست موجودة أصلاً: أمي.

بدا الأمر عبثياً ومضحكاً وأنا أحاول تصنيف نظرات الشرطي؛ كانت متكبرة. وحدنا كنا وأمامنا معركة لا بد من خوضها حتى لو كانت بالسلاح الأبيض: الكلمات، مجرد كلمات. هل هناك شيء غير عادي؟ اسمي نادر آدم، غيّرته من أجل الغير أيضاً. فرنسيتي لا بأس بها، لكن نظراته كانت مجهّزة بمكبرات تضعني على شاشة عملاقة، تزيد من حجمي آلاف المرات حتى أصبح بحاجة إلى قفص، وحرّاس، سلاسل، وأقفال ومفاتيح. أجبت عن أسئلته بعدما تمسكت بالحاجز الخشبي بقوة، وحين التفتُّ إلى الخلف، كنت وحيداً وهذا ما جعلني أشعر بالخجل. يا للغرابة، كان لون بشرتينا واحد. لم تقدر أسئلته على سبر غور سرّي العربي، وكانت أجوبتي مسالمة:

«هذه أوراق إقامتي في كندا التي أعيش وأعمل بها، وهذا الملف الذي يثبت أنني على وشك الحصول على الجنسية البريطانية بسبب زواجي».

يتفحصني بنظرات ثابتة: شاب عراقي، كلّ ما يريده هو موطئ قدم، قدمين لكي يستحق حظوة الجنسيتين المباركتين اللتين سوف

يحصل عليهما عمّا قريب. شابان محظوظان تم جمعهما من العذاب والتعاسة وهيئات الأمم من حوله في رحلة الاستكشاف الطويلة. يقف أو يسير، يكذب على نفسه بأنه موجود. يعتقد أنه موجود. يشعر بنفسه أنه غير متماسك، لكنه ذكي؛ يحسّ أنه غير كامل، لكنه يحاول. ليس بطلاً ولا يحتمل جسمه هذه القدرات الخارقة، ولا يستطيع أن يكون مقاتلاً كما ساورت والده الظنون يوماً ما، وطوال الأعوام الفائتة، وهو ينفخ في أوصاله الشجاعة، مردداً على مسامعه ليل نهار «أنت عوضي، أنت استحقاق الأيام القادمة». لا أنا بلغت مراده، ولا هو سيحضر زفافي وأنا أمسك عمّا قريب بيدي الاثنتين إكليل الجنسيتين الإلهيتين. وها أنا أمامك سيدي: بسمتي غير مخادعة وفطنتي مكروهة وأنا أقف على المسرح. ليس مسرح جدي وأمي الفقيرين. كنت مضطرباً، وجلّ ما أريده هو الحصول على دور ما في برامج المسرحية القادمة.

«الأصل، أصلك مسيو عراقي، هه»؟

يمسك بطرف أصابعه الطويلة ذات الأظافر النظيفة بملف أوراقي. لا شفاء لي من العراق إذاً. حتى السموم لن تشفيني منه. ابتسمتُ، إذا ما حالفني الحظ وشاهدت سهيلة ثانية، فستقول لي وأنا أقصّ عليها الأحداث:

«ألا تراه يا عيني، إنه مريض أكثر منا، ومتعب أكثر منا. جميع هؤلاء الذين يلبسون الملابس الرسمية مرضى، أي والله اسألني أنا».

(٢)

قالت ستعود يوماً إلى هناك، ليس إلى الأمكنة ذاتها التي أُغرمت بها يوماً فكانت السبب في وضعي الحالي. قالت وظلّت تردد: ستعود، لكني لم أصدّق. فأي طريق سأسلك؟ الرحيل والفزع وترك الآلات والثارات وراء ظهري، أم الإجابة عن أسئلة بليدة والتنقّل ما بين

المطارات؟ أم حتى لو حصلت على جنسيات العالم المتمدن كلها، بعد أن سُرق مني كل شيء، حتى النفايات!

ما الذي حدث في غضون ذلك؟ فأنا هنا ليس بسبب عملي كمهندس إلكتروني يعمل في شركة كندية- أمريكية، تنتج وتجهّز وتبيع قطع الغيار لجميع أجهزة العالم الإلكترونية. وهي، هل هي المرأة، الوالدة ذاتها التي توقفت عن الاتصال، وعن الكتابة والزيارات، من دون سبب، مقنعاً كان أم تافهاً!

«أجل مسيو، حضرت من أجلها هي. إنها في غيبوبة. لا أحد من أصحابها ذكر لي التاريخ بالضبط. هاك، هذا عنوان المستشفى، هذه خطابات كارولين، صديقتها، المرسلة عبر البريد الاكتروني، تدعوني قبل أن...»

كنت على استعداد لأن أطلق شتيمة بعدما ألمني كل هذا النقاش. ستقول سهيلة لو نجت؛ ولدي المسجون بأخطاء الوالدين اللذين خسرا الرهان وتاها كلٌّ في احتضار، يحضر دائماً بعد فوات الأوان. تمرّ الأيام ويتذكر أن عليه ألا ييأس من الوالدين أكثر من حدود اليأس، وألا يحزن أقوى مما في مقدوره تحمله. قالت ستعود يا نادر ولم أصدق. هل صدقت هي أم لم تصدق، نسيت أم لم تنسَ، إلا أنها بقيت تردد:

«لن أنسى يا نادر. إذا توقفت عن ذلك، فستتمكن نفسي مني، وهي أشد رعباً ووحشية من الآخرين. لست قادرة على شنق نفسي، ربما هكذا كان مصير والدك. إنني ببساطة لا أقدر، ليس بمقدوري الانتحار في هذه السن، لست عزلاء يا نادر، إنني أسوأ حالاً مما تظن».

لم يعد بمقدورها صياغة سطر واحد، ذلك ما نقلته لي كارولين قبل فترة قصيرة، غير أني لم أقلق. تصورتها تتلاعب بي، فهي تُغرَم

بحبس أنفاسي لكي تعثر عليّ ضعيفاً، فلا أكون الابن الكريم، ولا أستحق أن أكون الشجاع القادر على مواجهة مزاجيتها المتقلبة.

سمعت صوت رجل البوليس وحركة يده وهو يضع ختمه في أعلى الملف. رفع رأسه:

«هل لديك معارف هنا غير أمك مسيو»؟

«طبعاً، صديقاتها. لحظة من فضلك».

فتحت محفظة أوراقي، سحبت دفتر العناوين وأنا أقلّب الصفحات حسب الحروف الأبجدية:

«أسماء، بلانش، تيسا، كارولين، سارة، نرجس، وجد و...»

«كفى كفى. اثنتان فقط. اختر اثنتين رجاءً».

«بلانش وكارولين».

[٣]

(١)

كان ولدي ليون بجواري وهو يمازحني بأصابعه الطرية، رافعاً طرف سروالي القصير، وعابثاً بشعر ساقي وأنا أقرأ خطاب كارولين على الشاشة أمامي:

«سهيلة الآن حبيسة النبذ. لا ندري إلى متى سوف تبقى في هذه العزلة؟ إنها في منطقةٍ ما بين الاكتئاب واليأس، ليس بسبب زوجتك، أخشى أن تتصور ذلك بعد آخر زيارة عندكم، ولا بسببك تماماً. لا تؤوّل كلامي ضدك. أنتما أحد الأسباب، ونحن ربما، وهي، هي بالدرجة الأولى، هي السبب المباشر وليس الوحيد. قد يكون هذا الكلام بحاجة إلى تدقيق من الأطراف كافة، لكني أنقله إليك تماماً كما أفكر فيه، فالجميع يحتاج إلى إرادة الشجاعة لاكتشاف الأسباب، ما دام الأمر يتعلق بالمرض أو بالموت. قالت لي أمك يوماً ونحن نشرب النبيذ الذي تعشقه، في شقتي وأمامنا نهر السين: المرض أقل الأوجاع إيلاماً. ألم تفكري يا عزيزتي في الآلام الأخرى، والشقاءات التي لا تُرى بالعين المجردة، كانتظار ضمّة من رجل، ذاك الرجل، هو، إياه أو غيره، لمَ لا. نادر، إنني أنقل كلام أمك الصريح فلا تحاكمها، فأنا أعرف تقاليدكم. أنا أتحدث عن صديقة غالية دخلت حياتها بمصادفة

مسرح الشمس الذي تكتب نصوصه الكاتبة الفرنسية تيسا هايدن. هناك تعرفت إليها. من المؤكد أنّ صداقتها لي لا تُقدّر بثمن. تتوعّدني يومياً وتردد: «شمس الصداقة العراقية الحامية هي التي ستذيب جليدك السويدي على مهل، فتنضمي إلى عصابتنا الجميلة».

فتواصل، حتى لو متّ بعد تلك الضمة، لا يهم. وتشير بيدها مرددة ما قرأته يوماً في إحدى الدوريات العلمية التي كنت أشترك فيها. كانت تستهويها العلوم، وأخبار الفضاء ومجرّات الكون الهائلة، تمازحني قائلة: «أية أبهة أن نكون أحياء ونرى بشراً آخرين قادمين إلينا من هناك، علّهم يعيدون تربيتنا من جديد، تربية العقلاء والمجانين، الأقوياء والضعفاء. قد يكون هذا هو الحل الأمثل لأهل الأرض». ثم تضحك بصوت عال، تقهقه وهي تقضم الجبنة الفرنسية وتقول: «هل تعلمين يا كارولين أن جسم ذلك الرجل». إنه على الأغلب والدك. فهي لم تذكر اسمه قط. دائماً تقول هو، أو ربما هو أي رجل، لا أدري، لكنها تواصل: ترى أين هو الآن؟ هل هو أسير أم قضى ما بين نيران الشكنات؟ ربما هو خارج الحدود، وربما يكون قد تزوج وأنجب، من يدري؟ لكنها تكمل غير عابئة بالأمر: إن جسمه كان يحمل رسائل حب سرية تماماً مثل الحيوانات. حين تصل إلى تلك الكلمة تصمت وتصحّح قولها. كلا، إن جسمي يحمل تلك الرسائل، مادة صمغية ضئيلة تنفث إفرازاتها الحمضية والقوية من مواقع حميمة في بدني، فأفيض لطفاً وغنجاً. أصبح مثل حيوان في أيام سعده الجنسي. إشعاع كامل لا يظهر فيّ إلا في أوقات الانتظار والاضطراب، ويمكن أن يتسلل إليّ في لحظات الاحتضار. تضيف: ما عليّ إذاً سوى استثارة تلك المادة وتنشيطها على الدوام لكي أبقى في حالة هيام، فهذه رسائلي الوحيدة له. تقول إنها أرسلت عشرات الرسائل إلى هيئة الصليب الأحمر والأصفر والبرتقالي! تبتسم بوهن ثم تسخر: هيئات تفرّخ دائماً على طول هذه الكرة الأرضية، كما لو أن

القائمين عليها خبراء في صناعة الأحذية الرياضية. فتجلس وتكتب يومياً تلك النظريات وكأنها واجب مقدس. وبالمناسبة، إن اسم تلك المادة هو: «هرمون فروز». كانت تخطّ كل حرف منه بطريقة ولون مختلفين، وتسجل ذلك بطريقة محترفة للغاية. أعتقد أن قواها العقلية تتجدد كلما فعلت ذلك، فكانت تواصل: إن تلك المادة يا كارولين هي الاحتياطي الوحيد المتبقي لديّ. الفرصة الأخيرة لكي أبقى على قيد الحياة. كانت تريد فعلاً أن يسمع ذلك ويقرؤه، حتى لو اعترض هو أو أنت على كل هذه الخلاعة. فالأمر لم يعد مهماً. تقوم على مهل كما لو أنها ستبدأ بالصلاة، تضع الأسطوانة المختارة للمغني الغجري القبيح، وتنفصل عني، وعن الموجودات، وتصير كائناً ليس بمقدور أحد قهره. تهمس في ما بعد وهي على وشك البكاء: إن الجسم أثناء الرقص يسعى إلى الكتمان، والناس لا تفكر سوى في إفشاء الأسرار».

(٢)

كانت ممرات المطار طويلة ومتعرجة جداً. أجرّ حقيبتي خلفي، أمشي مثل رجل عجوز، لا أنظر عبر الزجاج والفولاذ، فهذا أيضاً كان أحد المنازل التي انتقلنا إليها يوماً ما. أحتفظ لهندسته بكل ألقاب الجمال والفخامة، لكني وأنا داخله، أشعر كما لو كنت في زنزانة ستطبق على صدري. تصورت أن جميع من كان يمر بجواري، كان يسمع دوي الصوت بين ضلوعي؛ نبضي. أخذت دوري في موقف سيارات الأجرة، أشرت للسائق على العنوان المكتوب في المفكرة. لم أكن قادراً على النفوه بكلمة واحدة. جلست في أقصى الجهة اليسرى، كان رأسي وأنا أدفعه إلى الخلف، أثقل من الحديد الذي كنت أتدرب عليه يومياً لكي تشتدّ عضلاتي. كتمت صوت صراخي وشعرت بوخز في معدتي. كانت الموجودات كلها تتحرك أمامي: والداي، أنا والعالم بأسره، وتستقر في برميل واحد كبير، تشتعل النيران تحته، وكلما

هدأت تستعر من جديد، والوصفة دائماً في جيب الطباخ. ما من وصفات قديمة تناسبنا كي تسدّ رمقنا، ولا وصفات جديدة ننتظرها كي نسعد بتخيّلها. نخاف التسمم إذا ما تغيرت المقادير، والطرد إذا ما أكلنا الوجبات بأكملها. سُدَّت شهيتي، وصلت قدرتي على البلع إلى نهايتها. لم يعد بمقدوري ابتلاع حقائق وكوارث جديدة. يتابعني السائق في المرآة بعينين باردتين ونظرات قاسية كالحجارة. وأنا أشتاق إلى طعام أمي. أبله، عقيم، كأنني حضرت للبحث عن عمل شاغر، وها أنا في طريقي لتسجيل اسمي وعنواني في نقابة العمل.

من سأقابل أولاً؟ بلانش، كارولين، أسماء، نرجس أم تيسا التي كتبت سهيلة يوم تعرّفتْ إليها قائلة، «تيسا، نوع من المخلوقات لا تلائمها الأوصاف أو النعوت. في أدبنا العربي الجميل، كانوا يقولون وهم يروون الحكاية؛ كان ثمة مكان سنشدّ الرحال إليه. تيسا من ذلك النوع، تستحق أن نشد إليها الرواحل جميعاً. أعتقد أنك ستلقاها يوماً، فهي تحاضر في الأدب والمسرح والنقد والرواية والشعر، في جامعات الولايات المتحدة وكندا أيضاً. سوف أحدّثك عنها يوماً ما».

(٣)

رفعت يدي إلى وجهي وتحسست جلدي الخشن. لم أحلق ذقني منذ ثلاثة أيام. كنت أتضايق من هذا التكرار البليد لكي أبدو في عزّ شبابي. أمّا سهيلة، فكان الأمْر يعنيها كثيراً. أصمد قليلاً، لكني سرعان ما أتنازل عند رغبتها. ليال اللبنانية، لفرط شخصيتها القوية، كانت جميع خططي تتغير وأنا أواجهها، فهي تستغلّ توتر أعصابي وتحاول شتى الوسائل لإغاظتي، أستسلم لها حين تجرّدني من كل أسلحتي. هي الفتاة الأولى التي ألغت الصبيَّ المراهق الخجول في هذه المدينة قبل سنوات، فانفجر شاباً لا يصغي إلى النصائح ولا يطيق

الشكاوى، تائهاً بين عناقات خاطفة، ولمسات سريعة وقُبَل مسروقة في الشوارع الجانبية، من فتيات لم يمددن له أيدي العون. الفتيات بشكل خاص! كانت تتنازعني حالة شاب أخرق يصادق الفتيات السخيفات، ولا يبذل جهداً للتعارف ولا للصداقة ولا للجنس أصلاً. يتخبط، يتعذب ويضطر إلى العادة السرية. أمام ليال، أتحول إلى عاصفة ولو لثوانٍ، كي أرضي غرور الرجل، لكنها تصدّني بطريقة عنيفة، فأصبح عاجزاً وهي واقفة تتفرج. كانت حرة أكثر مني. كنتُ أتقصّد أن أبدو أمامها بكامل أناقتي؛ وجهي حليق، ثيابي مكويّة، تنبعث الكولونيا مني. لكنها تتعمّد أن تعاملني وكأنها مديرتي:

«ما معنى هذا يا نادر؟ أنا لا أحب وجهك الحليق. إنّ صفاء بشرتك يجعلك تبدو طيباً، ساذجاً، لكني أفضلك تائهاً بين البشر، مجنوناً، غريباً، لا تشبه نفسك. لا أعرفك تماماً، وكلما أقترب منك تنفصل عني، فأدوخ وراءك وأتعب، هذا ما أريده»!

لكن سهيلة كانت توقفني أمامها وأنا في السادسة والعشرين، شعري يقل كثافة وخصله الطويلة الفاحمة تتطاير على جبيني، فتعقده لي بشريط مطاطي وهي تدفعني قليلاً إلى الأمام، وتتنهد:

«هلاّ أخبرتني كيف تجمع الوسامة والشباب في وجه واحد؟ هلاّ قلت لي»؟

أحب كثيراً أن أبدو ماكراً أمامها وأمام ليال أيضاً، لكن هذه الأخيرة ما إن قابلتني في باريس بعد سنوات الغرور السخيف، حتى شهقت بوجهي واحتضنتني بقوة:

«لطالما كنتَ جذاباً منذ فترة المراهقة، لكن لم أتخيّل أنك سوف تسحرني إلى هذا الحد؟ ألا ترى أن جاذبيتك هي موهبتك الأولى»؟

ما نفع الجاذبية والشباب وليال ليست معي، لا هي الحبيبة، ولا الزوجة ولا الصديقة. علاقة بقيت ملتبسة في ما بيننا طوال تلك

السنين. لا وسامتي أعجبتها في الماضي، بل إنها على العكس، أذلّتني من البداية وحتى الآن، لأنها كانت تظهر في غير محلها، ولا رزانتي نفعت وأنا رجل متزوج! لم تأخذ أمي وصف ليال على محمل الجد، لم ترتح إليه، تبتسم في وجهي كطفلة في أول زيارة إلى باريس بعد التخرج من الجامعة:

«أنت لطيف لكنك لا تبدو أهلاً للثقة»!

لم أنتبه إلى هذه الصفة من قبل. كنت أريد فقط الاختفاء من حياتها، لكي أشق طريقي، حتى لو تقوّس ظهري أو تجعّد جبيني وتشققت يداي. تجعلني سهيلة أفكر في نفسي وأنساها قليلاً. أمي البعيدة هي، وتلك المدينة، باريس، كانت تأخذ منها وتعيده إليّ. أصبح أقوى، ويشتدّ عودي، ويقوى عظمي ويتضاعف مكري، بينما سهيلة تذبل، وتنقص، وتقلّ. جميع المدن التي غادرنا إليها تسرق منها شيئاً ما، لا أعرف ما هو، لكني كنت أشاهده في تلك العواصف، في نوبات طويلة من الصمت، وفي الشعور بالنفور والتنافر مما حولها. أما العذاب، فكانت تسميه القناع الذي استقر في موضعه وتحول إلى ما يشبه النظام. أرى ذلك وجهاً لوجه أمامي وهي تتحول إلى ما يشبه الفحم. حين أقترب منها، أعرف أنها اشتعلت وانطفأت. ليال هي الأخرى تغيرت كثيراً في آخر لقاء بيننا؛ أكملت دراستها الجامعية، حصلت على الماجستير بتفوق، وبدأت بتحضير رسالة الدكتوراه. كفّت عن الاشتعال بطريقة ما، بدت أهدأ، أعمق، صارت ليلة واحدة بعد أن أخذت بيروت وباريس منها ومني كل الليالي. وها أنا أعود إلى هنا ثانية، لا أعرف إن كان ذلك الميل حباً طائشاً، أم شقاءً أكيداً لا أزال أدفع ثمنه غالياً حتى اليوم؟ ليال نشفّت دمي، فصارعتها وحدي في منامي. وحين أستيقظ، لا أقوى على رفع رأسي أمامها ثانيةً. أبدو على وشك النوم وسائق التاكسي يقودني إلى مصيري الجديد. سافرت

من مونتريال إلى نيويورك. حاولت النوم على كرسي غير مريح حتى موعد الرحلة المغادرة إلى باريس بطائرة الكونكورد. شاهدت غضب سونيا وهي تقرأ ثمن البطاقة، لكن نظرة مني أخرستها. ومن بين الكلمات الكثيرة التي كانت تتزاحم في فمي، لم أتفوه بكلمة واحدة. لاحظت هي ذلك. جفلت من صمتي، فلم تعد تعرف ما يتوجب عليها القيام به. تعاني سهيلة الضغط العالي كجدتي، لكنها تتناول الأدوية، وتخفّف من الأملاح من خلال المشي الطويل، وتعامل نفسها، ربما كما أتوقع، باستهزاء، وبطريقة لامبالية، أليس كذلك؟ ترد عليّ كارولين، «كلا، هذا غير صحيح أبداً. هي تراوغك. إنها مراوغة تحاول ابتزازك. استمرت بابتزازك من أجلها ومن أجلك. عجيب يا نادر، إنها مثل أمي. إنهما تتشابهان في هذه الوضعية، عموم الأمهات يتشابهن في هذا الأمر. هي على العكس، تبتكر فنوناً للصحة والقوة والحيوية».

«ولكن كيف ذلك»؟

«تتحمس لمتابعة محاضرات الغذاء المنوّع الطازج، ترتفع معنوياتها مع كل ما يخطر ببالك مما تقرأ عنه أو تسمع به. رائحة العسل الذي يعدّل مزاجها المكروب، تختار أفضل أنواعه من المحلات الخاصة بالأطعمة الخالية من المواد الكيميائية. تلتهم الخضار، وثمار البحر، كما تعدد أنواع الأسماك النهرية والبحرية، أو تلك القادمة من البحيرات. تضحك أمك يا نادر، تقول إن للأسماك إفرازات كالنساء، ويجعلنا تناولها أقوياء كالفرس الوليدة. تقول لي: «ألا ترين يا كارولين إن الاستمتاع بالدنيا يتضاعف مع لذة الامتصاص، كما يمتص البدن إيماءات الرقص وعلامات الموسيقى». بقيت تردد ذلك على مسامعنا، أنا وبعض الصديقات. تدخل المطبخ الصغير في الاستديو المجاور لمسرح الشمس، الذي أسكنتها فيه تيسا. أخبرتك طبعاً أن تيسا

خصّصت لها راتباً مناسباً ومؤقتاً كعضو غير متفرغ في الفرقة الأجنبية. تثني كمّ قميصها، واضعة الصدرية المقلمة فوق ثيابها، تنفخ صدرها وتبدأ: «سيتعدل المزاج والدماغ، هيا يا كارولين، اتصلي ببلانش ونرجس وحاتم وأسماء ووجد، فاليوم سأسرق بنك الغذاء العالمي. إنني سارقة يا عزيزتي، علينا أن نتعلم سرقة اللذائذ من دواخلنا، ما دامت الآلهة بخيلة معنا إلى هذا الحد. ما علينا سوى أن نؤلف مراجع لصحتنا ولهونا وأعمارنا القصيرة. يسيل لعابي أمام الأطباق التي أنوي تحضيرها لنادر وليون وسونيا وتيسا ولكم. أحتال على المرض والسن، حيلة لا جدوى منها سوى المزيد من غسل الصحون وتورّم الأيدي، لكنها تضمن البقية الباقية من أيام وثوان، لكي أنفق ثروتي الوحيدة الباقية، خيالاتي وحدسي، فأعود إلى التهام الدنيا بدلاً من أن تلتهمني هي».

[٤]

(١)

سونيا بجواري، الطفل نائم في غرفته، وأنا أحضّر حقيبة السفر. وجهها قبالتي بأكمله، لكني أحاول تحاشي النظر إليه:

«نعم يا نادر، هل قلت شيئاً»؟

اقتربت مني، صارت بمواجهتي. تترنح راعشةً، تهمّ باحتضاني وأنا خافض رأسي إشفاقاً على نفسي وعليها. رفعت رأسي بيدها، لكني أشحت بوجهي بعيداً عن عينيها:

«أتريد أن أساعدك بشيء»؟

«كلا، كلا، شكراً. اجلسي هنا».

لكنها لم تفعل، وقفت وراء ظهري، طوقتني بذراعيها، قرّبت نهديها أكثر، بدأت تمرّغهما ببطء، وفي الوقت نفسه، كانت تديرني إليها، إلى صدرها. كنت أقول لها حين ولد ليون، ألّا ترتبك أو تتوتّر أثناء رضاعته، فالحليب لا يدرّ جيداً إذا ما فعلت ذلك. ربما كانت تشعر بالحياء، أو لا تعرف، أو أنها لا تحب هذا الأمر كثيراً، كي لا يتهدّل نهداها. كنت أستيقظ ليلاً وأبدأ بإرضاع الطفل وشطفه وتنظيفه. أرى برازه فأبعثره بيدي، أمسح مؤخرته الحمراء، أضع المراهم، وأراه

أمامي منتعشاً يغني. ربما كنت أشبه أمي في هذه الأمور، ولو كان لي حلياً لأرضعته أيضاً. سأقول ذلك لسهيلة ولسوف تضحك. لكن سونيا لا تضحك، كلا، هي ليست عابسة لكنها مكتئبة قليلاً. جميلة هي، سمراء بعينين عسليتين كبيرتين جميلتين ولامعتين. جبين عريض، أنف معتدل، وشفتان مضمومتان، شبه ناشفتين. بدن رقيق جداً أخاف أن يتفتّت بين ذراعيّ. خطواتها بطيئة كما لو كانت أمرأة مسنّة وهي ما زالت في الثلاثين. صدرها يعلو وينخفض، وأحسبها سوف تغيب عن الوعي بعد ثوان. هذا الجسد كان في أفضل حالاته منذ أربع سنين خلت؛ رشيق، جميل، ويشتعل ما إن ألمسه. أول ما شدني إليها هويتها الثقافية، هي من الشرق مثلي. تتحدث الإنكليزية بطلاقة أهلها الذين استعمروا بلدها كما بلدي، فكنا نمتزج، وتختلط فينا ثلاث من أعرق حضارات الدنيا؛ العربية والفارسية من جهة والدتها، والهندية من جهة والدها. تصورت أن اختلافنا هو حريتنا، وسوف يمنع عنا سوء الفهم في حال حصل بيننا. هل الثقافات المتباعدة أكثر قابلية للتقارب من تلك التي تحتفظ بعلاقات قربى؟ ولمَ كان ينشأ بيننا أنواع من سوء الفهم لم أكن أتصوره سيحدث، لو أنني تزوجت إليزابيث البريطانية، زميلتي في الجامعة؟ تزوج صديقنا وليم من فلسطينية، وهما راضيان، بل سعيدان على العموم. هل الرجل الغربي قادر على التنازل والتكيف أكثر من المرأة الشرقية أو الغربية التي تتزوج بأجنبي؟ فنحن قوم عاطفيون نتحدّر من ثقافات تحرّكها مشاعرها، بينما هم أكثر عقلانيةً وهدوءاً، على العكس منا. فكّرت في كل ذلك بينما كان صوت سونيا يتناهى إليّ مرعوباً:

«لكن نادر، في حال، أعني، لا سمح الله، هل...؟

لا نقوى على النظر في عيون بعضنا البعض. أتصبب عرقاً وأشعر بنوع من النقمة، ليس عليها فقط.

«نادر، إننا وحيدون في مونتريال، والباقي أنت تعرفه، ليس لك ان تتركنا طويلاً هنا. هل تتوقع أمراً خطيراً»؟

كادت تقع، فاحتضنتها. أنظر إليها، كانت شاحبة جداً، بل كانت امرأة مختلفة، عاطفتها عنيفة، إلا أنها منفصلة عني.

حبنا كان به شيء من التأرجح. كأنه على وشك أن يفلت منا نحن الاثنين. حبٌّ نغطيه بالرضى والخمول، يقف على شفا الهاوية، وسوف يقع لأنه مصاب بالدوار وليس بالسرور. كنت أقول أحبك بصوت مرتفع، فلا أشعر بأنه استقر في قلبي. حب، لا هو بالقوي الشديد الذي يُمرضني فلا أقوى على النوم، ولا ذاك الضعيف جداً الذي يأخذني إلى الصحو، كي أحافظ عليه من الفشل. حبي خفيف، كأني أسدّ به فراغاً، فلا أبلغ مرامي، ولا نقصي يقل. كيف، ولماذا الآن فقط؟ هل كان فاتراً، أم أنه فتر وذبل منذ وقت طويل ولم ألحظ ذلك؟ لماذا أشعر بأنني لست ذكياً وأنا بين أحضانها؟ عادي، غشيم، وقلبي يريد أكثر مما هو متوفر فيها وفيّ. شهوتي الجنسية ضعفت، لا أدري منذ متى. بتّ لا أعرف، ولا أميل، ولا أهتاج. فأنا أحب خيالي حين يشطح عميقاً وهي بجواري، لكنها تفضل أشياء أخرى، لا أدري ما هي، لم تفصح عنها يوماً. أنا مثلاً، لا أحب الأفلام الماجنة. قمت بشراء بعضها، حدث ذلك، وتفرجنا معاً، لكنها لم تستهوني. طبعاً أنا لا أستهجنها، لكنها لم تمنحني فعلاً، إحساساً جنسياً صافياً ورقيقاً. كانت تجعلني، أنسى لذتي ونفسي، وأنغمر بما أشاهد. قلت لها إنني أحب التخمين، والخيال، أقل مللاً، لكنها تسكت، لا تثق بكلامي. أتضايق من دون أن أجعلها تلاحظ ذلك. هكذا كنت، أنام وأستيقظ، فأشعر بأن مائي بلّل الشراشف تحتي، لا هي تجرؤ على التعليق ولا أنا عدت أهتم. في تلك اللحظات، شعرت بأننا مجرد زوجان، نتطلّع في وجهي بعضنا البعض كما يفعل جميع الناس: هي وهوا

حين وصلت سهيلة عندنا، شعرت بشيء ما. ليس لأنها تكبرني بأربع سنين، فهذا سبب تافه. في ما بعد، بعد أن وُلد ليون، خطر لها أن تحبس أنفاسي وأنا أصغي إليها بقلق:

«نادر، أرى في داخلك أماً، أختاً، شيئاً من الأنوثة الرحيمة. أنت والدة لطيفة أفضل مني، ومن كثيرات من الصديقات، والخالات والعمّات. أراك كالنسوة الصالحات، تغسل الصغير، وتنظم وجبات الرضاعة، وتحضّر أطباقاً متعددة ومنوّعة أيام الآحاد، مديراً شؤون البيت؛ من تنظيف، وتنسيق الحديقة، وديكور الغرف، وتعليق الصور، وإصلاح الكهرباء والحنفيات والأجهزة التالفة، وكذلك تغيير وضعية السجاد وأشياء لم أعد أذكرها، تؤدي كل هذا برحابة صدر مرضعةٍ لا تتأفف. من أين لك كل هذا الصبر»؟

تضع سهيلة إصبعها على الجراح مرة واحدة، وتواصل بصوت ماكر:

«الأبوّة فيك ليست غريزة فسحب، إنها موهبة وإرادة وعناد. كل ما تلمسه يتحول إلى أبوّة. سكين المطبخ وحجر الطريق، وزهور الحديقة وطحين قالب الحلوى، حتى عندما تريد أن تبدو ساذجاً، هكذا كنوع من التمثيل الساذج عليّ أو عليها، يساورني الشك في أمرك بعدما أرى هذه الطاقات تتفجر فيك من حيث تدري ولا تدري. كأنك وُلدت أباً، لا يليق بك إلا أن تكون أباً. اللعنة عليك، كيف حصل أن كنت أحسن منا، نحن والديك، مجتمعين أو متفرقين»؟

بدأت بإغلاق الحقيبة، رفعتها ووضعتها في حالة استعداد. حاولت الاتصال بباريس للمرة الأخيرة لكني لم أوفّق. إلى أين ذهبت كارولين؟ امتدحتها سهيلة كثيراً، لكنها أضافت في آخر الرسالة سطراً غريباً: «لا أعرف لماذا تثير الريبة لدي، لكني أفضّل صداقة من هذا النوع، فهي تجعل مخيلتي متيقظة على الدوام». أضافت: كارولين،

هي التي دربتني على أعاجيب ذلك الرجل الشاحب، بيل غيتس. وقفت أحد الأيام في مواجهتي كأننا في حالة حرب. كفّها أمامي أبيض، رفيع ورخامي ومخدّر حتى نهاية الكتفين، تظهره وتتوعد به، بالآلات، والأرقام، والرموز، والاختراعات الحديثة، وجميع أنواع التكنولوجيا. تتطلع فيّ وأمامنا الرجل إياه: «هيا يا سهيلة، تحرري من هَوَسك القديم، ولا تردّي عليّ بأن رائحة الورق تؤثر في جسمك وعقلك، فلعلّ جنائن بابل المعلقة لم توجد قط. هيا أقفلي صندوق بريدك العتيق وتعالي إلى نعيم الإنترنت. ارمي أقلام الحبر والأوراق الشفافة والأغلفة الداكنة في صندوق القمامة. سهيلة هل تسمعينني... إلى أين ذهبت؟ هل أنت معي؟ تعرف يا نادر، كارولين ليست شخصاً واحداً، لكن الغريب أن أفعالها واحدة تقريباً».

(٢)

أجول في الغرفة فأستعرض كل شيء خلال ثوان. الزواج المختلط، هل هو سبب الخلل؟ نتحدث الإنكليزية في المنزل، والفرنسية في الشركة. أما العربية، فأتكلمها مع سهيلة حين تحضر، حينها نشعر بأن سونيا تتضايق. نحب لغتنا كثيراً ونحن نتبادلها، لكننا نخلّفها وراءنا حين تكون بيننا. عندما تغيب في الحمام، أو تذهب إلى النوم مبكراً، نهجم على العربية كأنها طعام الجنة. نتمازح، نتشاجر بها، نتباهى ونتذكر البلد، والدنيا، والبيت القديم. ترفض سهيلة في بعض الأحيان التحدث بالإنكليزية، تقول: «كان عليها تعلّم العربية، ليس من أجلك فقط لكن من أجلها هي. ليست لطيفة هذه النظرة في عينيها نحو لغتك. صحيح أن الإنكليزية لغة الأقوياء الآن، لكن هل ينبغي أن ندفن أنفسنا ولغتنا تحت التراب، نقف نتفرج والديدان تأكلنا. وماذا عن الأولاد يا نادر هل...»؟ تشعر سهيلة بأن سونيا، على الرغم من قدومها من الشرق الأقصى الذي قاسى، مثلنا، من هيمنة بريطانيا

العظمى وغرورها، إلا أنها ما زالت تتخبط بين التعالي والدونية في آن معاً. وتواصل أمي: «ليس عليّ أن أرشدك إلى طبيب نفسي لها أو لنا، لا أملك وصفات تشرح كيف نحتفظ بشريك، تفصلنا عنه آلاف الأميال من العُقَد والأمراض والتفاوتات. فقد كنا، والدك وأنا، من بلد واحد، لكن الكوابيس والقساوة والأذية، جعلتنا نعيش في حرب دائمة. وها نحن معاً الآن، أنا أطبخ وأعدّ وأدوّن لكم وصفات الطبخات العراقية والعربية، كما لو أنني أضع نفسي العراقي في لسانها ولسان حفيدي، قبل لسانك. فإذا كان التفاهم أو التواصل بين البشر صعباً من خلال اللغة، فلعلّ الزاد يقدم بعض الحلول الرحيمة بنا، نحن أبناء هذه الأرض».

كانت تغني وترقّص ليون مزيلة الحدود في ما بينهما. تردّد معه العبارات العراقية المحلية كما لو أنها تقدم له قوائم من الألواح والكتابات والرُقَم، فلا تهتم ببعض الاستياء الذي كان يظهر على محيّا سونيا. تواصل وتخترع الألعاب، والحركات، ووسائل اللهو، والطفل ينقاد إليها في النهاية، فنبدو، سونيا وأنا، مجرد اثنين من عامة الناس، لا أنا في بلدي ولا هي أيضاً، ولا كنا بالفعل أو بالنوايا وطنَي بعضنا بعضاً. ربما كانت مجرد آمال، ورغبات، ونوع من الشجاعة والخوف معاً، من أن نكون زوجين خائبين، بالكاد غرقا في التعلّق إلى ما دون القدمين، ولم يذهبا إلى آخر الحدود. كانت الفرصة سانحة للهرب أكثر من الوصال، وربما كان العراك والغضب الذي ندفنه في قلبينا أفضل من الحوار. شيئاً فشيئاً، وعلى مر الأيام والسنين، يزداد جهلي بها. فمن الجائز أنها تشعر بالشيء نفسه. وها نحن نتواجه الآن، نقوم بالمراسيم التي يقتضيها الزواج، أي زواج؛ الضغط والترهيب، أما الهجر والتخلي، فسيحضران، لمَ العجلة؟

«طبقاً للقوانين يا سونيا هنا أو هناك في إنكلترا، ستصلك أوراق

الوصية التي سبق وكتبناها معاً، في حال وفاتي، أو إذا لم أعد لأي سبب من الأسباب. سيكون كل شيء طبيعياً ما دام يطابق القانون. هيا لا تبتلعي دموعك. كانت أمي تقول دائماً: الأموات يحيطون بي أكثر من الأحياء. لماذا كانت تقول هذا يا سونيا، هل لتذكّرني بوالدي أو بنفسي؟ هل أنا ميت في نظرها لأنني هنا وهي هناك، هل هذا هو جوهر الموت»؟

تنذّت عنها صرخة:

«ليحفظك الله، ستعود إلينا بالسلامة».

تابعت بطريقة روتينة:

«ستجدين كشفاً بالحسابات؛ الديون المستحقة على البيت والأثاث والسيارة. من المفيد في حالة غيابي أن تكون البيانات مكتوبة بخط غير مرتجف. عليك التوجه إلى المحامي أولاً».

شرحت لها الأعمال والمهمات الملقاة على عاتقها بعبارات حاسمة، وشعرت بأنها تخور ثانية بعد ثانية. انهمرت فجأة الدموع من عينيها. كنت هادئاً، فارغاً أتحدث كأنني أقدم تقريراً إلى مديري في الشركة. لم أقترف أي خطأ، صوتي واضح، وجملي باردة. لم أكرر أي مفردة وأنا أختار أقلّ قَدْر من المشاعر بصوت بدا لي مألوفاً، سمعته من قبل، الكلام هو الذي يحشو حلقي ويقفز من لساني. أتحدث عن موتي لكي لا أختلط بموت سهيلة، ولا أفكر في احتضارها. كانت فكرة تسلط الموت عليّ هي الأمل الأخير الذي أبطل مفعول غياب سهيلة إذا. وإذا... هي الاحتياطات الوحيدة التي اتخذتها قبل أن أغادر كندا في طريقي إلى باريس.

[٥]

(١)

السائق منصرف عني تماماً بعدما اشتد الزحام. تسير التاكسي ببطء شديد. نتمهل، نسير، ثم نقف تماماً. تفلت من بين شفتيه شتائم سريعة على هذا الجيل المفرط الطيش، ونحن نحاول عبور ساحة قوس النصر الشاسعة جداً. يتوقف بانتظار مرور تلك العربات الطائرة. للمرة الأولى، أرفع رأسي وأبصر ما حولي؛ القوس إياه، ذاك الذي أثار فضولي ودهشتي، وأنا أمسك بيد ليال بقوة كي لا تفر مني بعد قليل. كانت تحمل زهرة طويلة الساق، زهرتي الحمراء. دُهشت من رؤيته وافتر ثغري عن ابتسامة سرعان ما تحولت إلى ضحك هادئ فصلني عن محبوبتي، كأنني عالِم آثار يريد أن يتذوّق تلك الأبهة، وما عليّ إلا التمتع بها إلى أقصى حد. القوس اليوم وجهه مليء بالتجاعيد، مجرد بناء مقتصد لا علاقة له بالفخر والعظمة. وسهيلة، كيف كانت تجده، هل تمتعت، حزنت، أم أشاحت عنه كما أفعل الآن؟ ضاعفت زحمة السيارات وضجيجها توتر أعصابي، والتصق صوت أمي الخفيض بسقف حلقها وهي تغمغم كالسائق:

«انظر جيداً يا نادر. هؤلاء الشبان سيقتلون أنفسهم وهم يهتفون للنصر».

تومئ بيدها وعيناها تدمعان. تلاحق الحشود عبر شاشة التلفزيون في منتهى الرضوخ، وتستطيع أن تهيم وسطهم. يبرر السائق بعصبية بعد أن كادت سيارة ذات لوحة دبلوماسية تصدمنا. ثرثار هو على العكس منها، فهي لم تكن خبيرة بما كان يحدث من حولنا، فبدأت تتعلم، أربع أو خمس مرات في اليوم. تريد اكتساب مهارات جديدة لكي تستطيع التمييز بين النصر وغيره من التسميات. تطورت مقدرتها وبدأت تكشف عن لسان فصيح جداً وكأنها على خشبة مسرح جدي العزيز. احتلت شيئاً فشيئاً مكان الصدارة في غرفة الجلوس أمام الشاشة ما دام الوالد غائباً. وحين يعرض التلفزيون بعض المواضيع الجانبية، وكان هذا ممكناً في بعض الأيام، كانت تترك الغرفة، وتتمشى في المجاز الطويل، تضجر فتخرج إلى الحديقة المسيجة بالأشجار الباسقة والأسلاك الشائكة التي تشبه الثكنة. تردّد الكلمة السحرية إياها. وعندما تتعب، تجلس على إحدى الدكّات، تضع رجلاً فوق رجل. كان النصر كما بدا لها يوماً، يفضّل الوقوف على قدمين قويتين. تفز حين تفكر في هذا، فتقف بطريقة عسكرية. كلما أدارت رأسها كما أفعل أنا في هذه الساعة ونحن نجتاز القوس أخيراً، تبدأ بتعديل قامتها، ترفع رأسها إلى أعلى، تستعد، تصبح غريبة الأطوار، تسوّي تنورتها الطويلة على خصرها، تشد القميص تحتها، تأخذ نَفَساً طويلاً استعداداً للنصر، فيبدو جسمها واهناً جداً. أين ذهب ذلك الجسم القوي والمتين الذي لم يعرف المرض يوماً؟ كانت تريني صورها وهي على خشبة المسرح، تقول: «يتوزع الدم في شرايينّي بقوة الفن، لا بقوة الحركة». تبقى في ذلك المكان طويلاً حتى ساعة متأخرة من الليل، فتبدأ المعارك بينهما، والدي وهي. كنت أتصور أحياناً، أنهما يؤديان أمامي أحد الأدوار، لكن ما إن أشاهدها في ما بعد وهي حزينة جداً، أدرك أن القضية صارت أصعب وأخطر من ذي قبل. توقفت تماماً عن الذهاب إلى هناك وصار جدي العدو الأول لوالدي. أطلّ عليها من نافذة غرفتي في

الطابق العلوي، وهي على تلك الحال، ووالدي يشرح لنا وهو عائد من المعسكر في آخر الليل:

«سوف تسمعون وتعرفون الأخبار السارة بعد قليل».

تحاول أن تثبّت قدميها على الأرض مثله لكنها لا تقوى. ونحن، أنا وهي، نردد وراء أبي كالجوقة، مرتين، ثلاثاً، أربعاً وهو يصيح بنا:

«أعلى أعلى».

أعلى من هذا الهدير والزعيق لأصوات السيارات. ألاحظ عجزها، لطفها وهي تحاول أن تكون شديدة الرقة معي لكي أجتاز جميع العقبات. كنت في الخامسة عشرة وهي تريد تحذيري ولو بطريقة سرية. أما هي، فكانت لا تتراجع ولا تتقدم أيضاً. تُدخل إصبعها في أذنها اليسرى، تحرك رأسها بشدة، كأن حشرة دخلت هناك ولا تعرف كيف تطردها، فتبدأ بحكها بطريقة عنيفة، على غير عادتها. تنتبه إلى وجودي المباغت وتنتفض:

«كم مرة أقول لك إنني لم أعد أحتمل هذه الحركات الصبيانية منك. لم تعد أعصابي كالأول يا نادر. أي، صرت لا أسمع مثل الأول وأنا ما زلت في هذه السن. قد تكون تلك الأصوات خرمت أذني، قد يكون الطرش أحسن».

حاولت سهيلة تعلم أشياء كثيرة بهدوء شديد، لكن والدي كان يفضّل الصوت العالي وهو يسجل الاعتراضات ضدنا معاً. كنا ننتصر في اليوم الواحد عدة مرات، وهي لا تريد سوى التقاط أنفاسها أمامه، على الأقل كي لا تخطئ في الحساب. لا يقبل أن تأخذ غفوة على كرسي، لا يقبل أن تسهو قليلاً، فتخاف أن يُغمى عليها أمامه وهي تشاهد بخار النصر منبعثاً من خياشيمه؛ في أوقات فطوره وغدائه وعشائه، كنا نرسل إليه وجبات مضاعفة إلى المعسكر. كان الأمر مضحكاً؛ فهو يزداد سمنة، وهي تزداد نحافةً إلى حين غادرنا بغداد.

فالأيام تتوالى والانتصارات تزداد، ووالداي انفصلا، صارا ينامان كلّ في غرفة. لم يهتما بي ولا بحالتي وأنا أرى تلك المعارك في ما بينهما. تغيرا كل على طريقته؛ سهيلة، إذا ما فقدت أعصابها لأي سبب تافه أو مهم، تصمت وتدخل غرفتها الجديدة. وهو، كان يفقد عقله ويعاني أكثر منها. ألاحظ ذلك جيداً حين يتبعها من مكان إلى آخر، وبلا توقف. في ما بعد، بعد أن توصد الباب، أسمع صوت نحيبه الليلي في أذني، وأحزن كثيراً من دون أن أتمكن من مساعدته، أو حتى أجرؤ على مد يد العون له. لا أعرف كيف. السائق يقول بصوت ملول:

«المستشفى مسيو، ها هي أمامنا».

(٢)

تنبّهت فجأة. تحركت بصعوبة وأنا أجرّ جسمي. نزلت ووقفت على إسفلت الشارع أمام البوابة العريضة. دفعت للسائق أجرته من دون أن أنظر في وجهه. حملت حقيبتي بيد وعلّقت محفظتي على كتفي، ورميت معطفي الواقي من المطر على الكتف الأخرى. ذُعرت جداً وأنا أسمع صوت عربة إسعاف تغادر من الباب الرئيسي. تخشّب لساني. كان مدخل المستشفى ضيقاً. القرميد الأحمر متسخ قليلاً بفعل عادم السيارات. باقات متنافرة من زهور صناعية بشعة تبرك في أحواض من البلاستيك الرصاصي. فُتح الباب فجأة في وجهي. على اليسار حاجز من الخشب الأبيض والبني، تقف خلفه سيدة سمراء ممتلئة، تبتسم بعلوية، ففارقني الضّيق والخوف وأنا أرى أسنانها البيضاء، بدت نابضة بالحياة فتنشطتُ بدوري قليلاً. هذا فأل طيب. قلت وأنا أقترب منها:

«مساء الخير».

تفاهمنا بسرعة وهي تقرأ الأوراق التي أرسلتها كارولين إليّ:

«آه، أمكم مسيو يا للحظ... كأنكم حضرتم من مكان بعيد»؟

«من نيويورك».

«آه، هل أنتم أميركي مسيو»؟

كانت تتحدث بتلقائية لطيفة. جلست على كرسي قصير الأرجل أمام الشاشة، وأخذت تبحث عن الاسم و الجناح، والقسم والمبنى.

«تماماً، ها هي المدام العراقية: سهيلة أحمد».

استدعتني إلى هناك ثانية، ما ألطفها. أشارت بيدها إلى الأمام، وحين رأتني كالأبله، تحركت من وراء الحاجز برشاقة، وسارت بجواري:

«تعال مسيو لأرشدكم إليها. ذلك المبنى البعيد خلف الأشجار العالية، قسم الطوارئ، غرفة رقم ٤٤. تشجع وحظاً سعيداً».

أحس بأني مربوط اللسان. أنكس رأسي وأمشي. يساورني غثيان ويخيّل إليّ أني أشم رائحته في فمي وثيابي. حين سألت إحدى الممرضات التي قابلتني، دلت بيدها:

«هناك، آخر مبنى حيث يقف بعض الأطباء».

سرعان ما اختفت وراء الحدائق التي نُسّقت بأنواع من الورود والأشجار التي تدلّت كالمظلات. لم أسمع صوت الماء الخابط، الذي كنت أسمعه في حديقتنا فأنزل بالشورت، عاري الصدر. أستلقي على العشب الذي اصفرّ من الحرارة الشديدة. لم تكن الأرض تحت قدمي ثابتة وأنا أقف عليها، ولا كنت أشعر بأن جذوري صلبة وراسخة هنا، ويمكن اقتلاعها. أتحاشى وجوه الحراس الذين يتناوبون الحراسة عند الباب الرئيسي. أشاهد رقابهم من الخلف، غليظة وضخمة، وأسمع أصواتهم تلاحقني في الليل أكثر من النهار، فأدير لهم ظهري، أزعجهم بصوت بوب مارلي، المطرب الجامايكي الذي كنت أعلّق صوره على

كل جدران غرفتي، وأرفع صوته عالياً وهو يغني أغنيته التي أحفظها غيباً «لا، أيتها المرأة لا تبكي». كنت أغنيها لأمي، أنا من يبكي بدلاً منها وهي لا تعلم. يغضب أبي وأصحابه من القادة المغاوير، من الشطط في سلوكي، ومن ملابسي، وقصة شعري، من أي شيء وكل شيء.

أنزّ عرقاً وأشم رائحتي، لا أدري إن كانت مقرفة أكثر مما أحتمل، أم أن عرقي هو رائحة تلك الأرض، التي يسمونها بلدي. أشعر بأن الهواء هنا، يحمل رائحة سهيلة، ينتقل إلى الضفة الثانية من العالم، بين إعلانات الكذب والنفاق، لكنه يعود ويستقر بين فتحتي أنفي. هو الهواء ذاته الذي أعطاني دروساً لكي أفهم وضعيتي الجديدة؛ إنني في منطقة، ليست لي ولا لها. سهيلة تقول: «هذا ما يسمونه مجازاً العالمية». لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة: تجيب: «لماذا تلحّ على هذه الكلمة فقط، أنا أيضاً لا أعرف. كأنّ الامهات يعرفن كل شيء». في ما بعد، بعد سنوات طويلة، عرفت بالوهم أو بدونه، أنهم لم يستعملوني بصورة مجازية.

جلست على إحدى المصاطب الخشبية، مقابل الباب الذي سيُصعدني إلى المبنى. كانت مفاصلي تخونني، بدءاً من أصابعي وهي تتقلّص على عروة المحفظة، وصولاً إلى طأطأة رأسي الذي نكسته كثيراً، وكوّرته بين كتفي، وأنا أشعر بالرعب مما سيأتي.

[٦]

أنظر إلى ساعة يدي للمرة الأولى. كانت تقارب الرابعة عصراً، واليوم هو الثالث والعشرون من شهر آب. الجناح أمامي يشير عليّ أن أدخله آمناً. أدخل يا نادر، هيا تحرك، إنها هنا وهي أكثر مما بوسعك أن تتلقاه منها، وكل شيء لا يمكنك الوثوق به، النصيحة، والشرق، والغرب وملاذ العالمية الأخير. اهدأ، ابرد، كن أكثر برودة، السخونة لا يمكن الاعتماد عليها، والحماسة طريق تؤدّي إلى الفوضى في التفكير. دع مسافة بينك وبينها. أجل حتى والدتك، عليك دائماً أن تضع بينك وبينها مسافة من الانكماش والابتعاد، فيهدأ دمك قبل أن يتجلّد، كي يحقّ عليك تعريف: الأجنبي.

أسندت ظهري. قرّبت المحفظة إليّ، وأخرجت منديلي وبدأت بتجفيف عرقي. لا تختلف سهيلة عن النساء الأخريات حتى لو كانت طباعها متنافرة. كان يحلو لها التحدث في موضوعات شتى، تلمّ حكايات كثيرة ونحن نجلس إلى طاولة الطعام. أراقبها حين نذهب معاً إلى السوبرماركت. هناك فقط تفقد صبرها: «جميع الأسعار مكتوبة على البضائع، إنهم لصوص». تقول هذا وتضحك، لكنها تغافلني وتخرج وحدها، تقطع مسافات طويلة بالباص، فقط لكي ترى نفسها في دكاكين صغيرة ومختلفة: إيرانية ولبنانية وهندية، على أن يكون بوسعها المساومة. تقول بهدوء حين تلقاني مساء وأنا عائد من عملي:

«أي، أود أن أختبر قدرتي في شؤون التجارة».

«كلا يا أمي، هذا غير دقيق». تنظر إليّ وتبتسم:

«تمام، نادر، أنا لا أحب التسوق من السوبرماركت، إنه يفقدني تركيزي فأشتري في بعض الأحيان ما لست بحاجة إليه. في الدكاكين الصغيرة، أشعر بأنني في بيتي، أعرف ما أبحث عنه، أرجوك لا تصطحبني إلى المتجر الكبير، لأنه يكلفني كثيراً من التوتر والضغط العصبي. بني، إنني لم أعد كما كنت، ألا تراني»؟

* * * *

رأيتها وهي ترسل إليّ قصاصات من صحف قديمة، أقوالاً مأثورة من كتّاب ومسرحيين تحبهم كثيراً. بعض الرسائل التي كتبتها إليّ يوماً، عندما كانت غاضبة مني فلم ترسلها. في أعلى الصفحة، بضع كلمات مواساة لما سوف أناله من عذاب. بقيت ترسل إليّ تسجيلات أغانٍ عراقية قديمة جداً، أقدم منها ومن أجدادها:

«يا أمي، أرسلي إيقاعات بالدف والطبلة أرجوك، أنا لا أطيق هذا النواح. أريد أن أتعلم الرقص العربي القديم مثلك».

لكنها تصرّ على ذلك، ولا تهتم قط بما أقوله لها.

«عيني نادر أفندي، هله ليست سموماً تخاف إذا ما سمعتها أن تموت. لا أعرف كيف أشرح هذا الموضوع لك. صدّقني، أنت فظيع. تصوّر، حين أسمعك تتحدث أو تكتب إلي وتسألني عن البلد، أشعر كما لو أنك ترتدي سُترة ضيقة، ويكاد تنفسك ينقطع، تلهث كرافع أثقال. صوتك بالهاتف بائس، ليس حزناً أو ألماً، أقسم إنني أتصورك تتشفّى في بعض الأحيان. لم أسمع منك سوى التوبيخ، وتبدأ القطيعة بيننا. تستغرق شهوراً في بعض المرات، لا أسمع صوتك ولا أقرأ رسائلك. أسمعك أحياناً تلوم والدك، وملابسه الرسمية، لأصحاب السوبرماركات، أولئك، ما أغناهم وما أطول حياتهم.

نادر، لا ترمي الرسالة التي وضعتها مع رسالتي إليك، وصلتني منذ فترة طويلة لكني لم أرسلها إليك لكي لا تزداد وحشتك. اقرأها على مهل واغفر لخالة فريال ما ورد فيها، فهي لم تقصد الأذية أو عدم الاحترام. هي تسخر من نفسها قبل أن تسخر من غيرها، تعرفها جيداً، أم أنك نسيتها كما نسيت أشياء كثيرة هناك؟ لا تصور الرسالة رجاءً وترسل نسخاً منها لأولاد نرمين وتماضر في النمسا والدنمارك. دعهما مثلك بين بين، ربما هما أفضل منك، من يدري؟

* * * *

«اليوم الموافق في الثامن والعشرين من آذار، هو يوم مولدك. سهيلة، بعدك تنبل، رعناء وطائشة؟ أمك يحلو لها ترديد هذه الصفات على مسامعنا في كل مرّة نقوم بزيارتها، خاصة في هذا اليوم الأغر. تتمنى لو تضيف كلمات جديدة لم تذكرها أمام أي ابنة من قبل، لكنها بمجرد أن ترانا أمامها تنسى، لا تجدها، ربما. إنها ملزمة أمامنا، نحن بالذات، المعتبرات صديقاتك الوحيدات، بأن تجعلنا نتحامل عليك، نحقد، منذ ومنذ... لكنها تصمت، تدير رأسها يمنة ويسرة، تبسمل وتتعوذ من الشياطين جميعاً نحن. يصير وجهها مثل الليمونة المعصورة، تحاصرنا من كل جانب كي نبدي بعض الشجاعة ويصدر عنا شيء ما، هي لا تدري ما هو، كأن نضربك بحجر، أو نكسر ضلعاً من صدرك أو ظهرك كما كان فلان يفعل في الأيام الخوالي. لكننا نظل صامتات، وهي تئن من فرط أوجاع الكلى والإمساك المستديم. أما الضغط العالي، فهو أكثر لباقة من باقي الأوجاع، يعرف ميعاده فيحضر ويأخذ معه الدولارات التي يرسلها ضياء. أمك الآن تشبه إحدى شخصيات والدك، حين أخرج في إحدى السنين مسرحية «الخرابة». أما الدمع الغزير الذي ينهمر من عينيها، فتقول عنه: «هي وحدها التي تبقّت لي، أي يمه، دموعي الأمينة عليّ ما تعرف تخون، أتونس بيها.

أبد، هي مو على ضياء ولا عليها، ولا على نفسي، ما بقي غيرها يسليني». تتمخط وتخاطب نفسها: «قوموا اعملوا الشاي بطريقتها هي، الطريقة نفسها، شاي بالهيل».

الهيل في جيبي كلما نذهب لزيارتها، وكل واحدة منا ـ نيالك علينا سهيلة ـ تمسك بطرف من الدلرة التي تحولت إلى أوكار للفئران والعناكب السوداء والرصاصية. نكنس ونغسل، نهوي المنزل ونفتح النوافذ على مصاريعها. أمك هي التي تمدنا بالقوة التي ستكفينا ثمان أو تسع سنين قادمة من أعمارنا. تهزمنا دائماً، ونحن نتنقل بين الغرف. بشرى تمسك كيس الشعير فتعطينا أرغفة تشبه القنافذ، في الشكل فقط، أما الطعم يعني، زين. لكن الشجر ـ أصحابك اللبنانيون يسمونه الكوسة ـ هو الذي يحافظ على أعمارنا كي لا تفرّ من بين أيدينا. ويأتي من ذلك الشجر السؤال والجواب. هل تذكرين ذلك الرجل الذي شاهدناه في المسرح القومي، بجوار والدك وهو واقف يريد أن يقفز على كل واحدة منا من شدة اهتياجه الذي خربط شخصيته، أنت التي التفت إلينا وكنت تقهقهين بصوت عال: «حتى الشجر يتصور نفسه فحلاً».

حرام، الشجر لا هو فاكهة ولا من فصيلة الخضار. نوع بلا كرامة ولا شخصية، حين نطبخه كلنا، نحن العراقيون، نفضل أن نسدل الستائر عن نور الشمس، لا نغسل أيدينا معه، نجلس أمام الطاولة ونصغي إلى رائحته الجبانة. كيف نتفاهم مع هذا الماعون يا سهيلة؟ نهزمه دفعة واحدة، نبلعه في الحال، لا نترك منه شيئاً. تلك هي الطريقة المثالية، فعمره قصير، ما إن نمسكه بأيدينا حتى ينفصل عنا. تقول نرمين عن بعضه بطريقة بعيدة عن المزاح:

«شوفوا يشبه أعضاء رجالنا بعد الحرب».

نتعجب من تشبيهها لكنها لا تضحك مثلي حين أبدأ بملاطفته في

البداية، ثم لا ألبث أن أنهال عليه ضرباً مبرحاً، وأنا أقول بصوت عال:

«سأشويه، وأحرقه، سأقتله، كلنا نكرهه، أولنا هي: سهيلة».

كيف لم نعد نبالي بالكوسة، بعدما صارت محبوبتنا. اكتشفنا، أنا وبشرى بشكلٍ خاص، طرقاً عدة في الطهو والتذوق، فترانا نسعد باختراعنا المجيد، نقدمه إلى الوالدة التي لم تكن تطيقه من قبل. كيف أقبلت عليه وعيناها تدمعان من شدة الفرح؟ فالمطابخ فارغة إلا منه. تلك كانت أغلى وأعلى غرامة تفجّر ضحكنا ونكاتنا على أنفسنا وعليك وعلى العالم كله. كان الشجر يمدّنا بالطاقة، يبدّد الفشل ويطلق الشهوات الجامحة، يختبر الحيوية الدفينة في أعماقنا. وهكذا، منذ الثانية ظهراً وحتى التاسعة ليلاً، يحالفنا الحظ الحقيقي بتلك الصناعات المنزلية، فتتعلم أشياء جديدة عنّا وعن غيرنا من شعوب الدنيا، ويكون بمقدورنا التنبؤ بالغد من خلال سيرة هذا الشجر الفارغ والعقيم. إنه القائد، قائد كل بيت، جبان ولا يحتاج إلى رثاء. تسجل وجبته عندنا أعلى مرحلة من مراحل نكران الذات، فنغدو ونحن نقدمه بأطباق مجردة، كأننا ننتظر الوحي على يديه. بعد أن نشبع ونمسح أيدينا من النعمة الإلهية، نُبقي مكاناً للحلوى، الصحن الملوكي الذي يجعلنا بحالة استنفار عام، بمنع التجول فعلاً. الحلو، يا حلو، يزوّد أمعاءنا بطاقات لا تُصدَّق من الغازات، ذات الرائحة التي لا تخرج من الذاكرة مهما حاولنا أو فعلنا. أمك، يا عيني، تستحي كعادتها إذا أطلقتها أمامنا بالصدفة، فتسحب قدميها سحباً إلى الحمام. من هناك نسمع، كأنها تملك مصرفاً خاصاً ومن جميع الفئات. نشغّل المذياع، أو تنطلق نرمين بالغناء بصوتها الجميل لكي تشوّش على أصوات بطن أمك. الحلو يا حلو، هو من اختراع الوالدة، بصلة نيئة مشطورة إلى نصفين، ومرشوش فوقها طبقة من الدارسين والسكر الأسمر. نضعها داخل

الفرن لمدة ربع ساعة حتى نملّ من الضجر. نحن لا ندع أي شيء يبيت، حتى البول والبراز لا نوفرهما لليوم التالي. فهما لا يتشابهان، ولا نحن نشترك فيهما مع الآخرين.

العملية ليست معقدة، ولا هي بالكارثة يا سهيلة. فلا تحيطينا بالهالات والبطولات، ولا تدخلي في نوبات جنونية من أجلنا. والدتك عايشة بالدرجة الأولى، هجرها والدك إلى بيت تلك الممثلة، الشيطانة الصغيرة، يخرج لها المسرحيات السخيفة ويسمي ذلك مسرحاً شعبياً. تغيّر السيد الوالد بدرجة كاملة، اختفت إلى الأبد مسرحيات شيكسبير، ويوسف العاني، وصلاح عبد الصبور، وبيتر فايس، ولوركا، وإبسن، وسترندبرغ، وموليير... إلخ. نحن، وغيرنا من الذين ما زالوا يتنفسون، لا يذهبون إلى مسرحه، يتحسّرون وهم يشاهدونه ينحطّ إلى ذلك الدرك من التفاهة. ما هو سائد حالياً، حسب ما أفهم، هو بلاغة التفاهة. أسمعتم يوماً باسم هذه المسرحية؟ إنها تُعرَض منذ فترة أطول من سنيّ حياتنا، ومن الجائز أن تصل إلى أحفادنا بعد أن دفعت بأولادنا إلى الهرب. لا تستغربي يا سهيلة، فلقد سمعنا أن والدك تزوج بتلك الممثلة، لكننا لم نتأكد. ترى ما الفرق؟ لا يزال يرسل إلى الوالدة بعض النقود مع نقودكما أنت وضياء، فتضحك من كل شيء ومن الجميع، «أي هذه اللي يسموها عملة صعبة، أشو هي ورق كلش عتيق، ها، ماذا أعمل بكل هذه الفلوس؟ وين أصرفها وعلى من»؟ تُسلمنا أكثرها وتقول، أنتم أولى بها مني. فتحت لها حساباً للتوفير بالدينار العراقي الذي يشبه الشجر، وآخر بالدولار. ربما هي الآن أثرى منك ومن كثيرات هنا في سنها، لكنها بقيت كما هي، لم تتبدل كما تبدلت الكثيرات. لا تزال أمنا جميعاً، بيدها السبحة السوداء، تسبّح اسم الله العزيز الحكيم، ثم تنصرف إلى شغلها الدائم: الحياكة. أكوام من الصوف السميك، والرفيع، والعتيق الذي تفوح منه روائح الدواء والذكريات والعرق القديم، المني والعادة الشهرية والبكاء والضحك

والملل. تفكّ كل الملابس القديمة بجوارها، وتعيد حياكتها. من حسن حظها أنها لم تعد تشم روائح السنين الأولى التي مضى عليها عشرون عاماً أو أكثر، حين كانت الأجسام رضية والموديلات جميلة والإغراء نعمة ربانية. هي الآن، لا تخافي، تشبه المدخنة، رائحتها لا تطاق، لكننا نحبها. لم تغتسل منذ زمن طويل لأنها لا تقدر، وأحياناً تقول لا أريد. وتضيف:

«كانت الملعونة ترسل شامبو به ريحة الخوخ. لو تبقى ترسله، على الأقل نشم ريحة الخوخ بدلاً من أكله. يقولون إن الفواكه مضروبة ومسمومة؟ صدق يا بنات؟».

هنا أنفجر بالنحيب. أشتمك بصوت عال، وأجور عليك:

«لو أضعك بالمقلاة وأشويك فلن يُشفى غليلي».

نخرج ليلاً، كل واحدة منا في حوزتها جانب منك، من ذلك الباقي منا، من الصداقة التي تيتّمت. نضع أقوال أمك جانباً، نقلبها رأساً على عقب، وبصوت واحد، كلٌ بنبرة مختلفة، ونحن نصعد في سياراتنا إياها، التي صارت تطلق غازاتها بلا رقيب. أنا تعلمت القيادة أخيراً، أي، لو نسيتِ اسمي، فريال، أصغركم سناً، المهووسة بالنحت والرسم، بالخياطة والديكور. أنا التي أصرخ الآن بصوت أعلى من برج إيفل وكل أبراج العالم، أمام نفسي وأمامهن، في شارع بيتكم، وبدون سبب وجيه يا سهيلة:

متى ستموتين يا صديقتي، لماذا لا تموتين؟ لماذا لم تموتي حتى الآن؟ ماذا تنتظرين بالله عليك؟ عموم الذين في سنك، أعني اللواتي في سنك، بشرى، ونرمين، وأزهار وتماضر، قضينَ بطريقة من الطرق، فحصلنا على منفعة كبيرة. البعض وجدها طريقة ممتازة لتوفير الطاقة فبلغ أعلى المراتب. قسم مات على الفور، مبكراً، مات وهو يسرّح شعره. حسناً، انتهى في أول الطريق فتسامى في المبادئ. أما

نحن، جميع من ينتظر، فالأمر سيان. كلا، ليس أسوأ، إننا عملياً لا نجاهد لنصل إلى هناك.

لم نفهم يا عيني رسالتك. استغرق الأمر وقتاً طويلاً لكي أشحذ ذهني كما يردد والدك دائماً. لم أفهم عرضك المغري؛ هل قلت إنك ستنفذين عمليات في أوروبا والأمريكيتين. تقومين بنشاط خاص، ومذهل، كما كتبت، يُحفَر في الذاكرة مثل النقش، وينتمي إلى فترة النضال العظيم؟ حسب ما فهمت، تودين لو تجولين على بعض العباقرة من حولك، مرتديةً الزي الوطني التقليدي ـ الصاية والهاشمي ـ تشرحين القصص القديمة، وتجمعين التواقيع في آخر السهرة بأقلام الباركر، كوسيلة أفضل لعودتنا إلى الحظيرة الإنسانية. معذورة أنت، تريدين الصدق، هذا طَبَق خرائي يا مولاتي. فأنت، إضافة إلى صفات أمك عنك، بلهاء. ليتك تخففين من عنجهيتك، وصباباتك، وتناقضاتك، وترددك، فنحن في الغالب موجودات، أقصد، بمقدورنا أن نلمّع أحذيتنا، ونفتح أبوابنا لاستقبال أحد الضيوف، ضيف نتوقعه، وليس العكس. نذهب إلى الحلاق ويتملكنا شيء من السرور المخنث حين نفتح ألبوم الصور القديم. حين كنا ننتظر أزواجنا بثياب السهرة إياها، ندري أننا بعد قليل سوف نُضرَب بالعصي والسياط. صورنا تلك التي بجوارنا، كأننا في اجتماع سري أو حزبي، نأخذها معنا إلى المطبخ، نضعها على الوسائد الفارغة. أشكالنا الغريبة التي تطلع من الألبوم، هي كل ما تبقّى بين الأيادي. ومع هذا، نحن نعيش أفضل منكم ومنهم، نعيش هكذا، جيئة وذهاباً، كيفما اتفق، على هذا النحو أو ذاك. أظن أننا نعيش في منتهى الفن، نمسك أيامنا بأيدينا ونمرّر عليها المكواة، ولا نرسل ثيابنا إلى المغسلة الأوتوماتيكية. لا زلنا نبتسم في وجوه بعضنا بعضاً، في وجوه الأمم المتحدة، الأمم الحيرانة أكثر منا، والأمم ذات الأكمام القصيرة. أمم، أمم، أمم، نحن أعمالهم الإضافية وإجازاتهم المقطوعة بالدولارات. نحن المطلوبون

من جميع جنتلمانات العالم. شيء محيّر عيني سهيلة، لا أحب أن أقول لك إلى اللقاء، لكني أفضّل أن أعاملك بصلافة. لقد جدّت عليّ هذه الخصلة في الآونة الأخيرة. من واجبي ألاّ أسامحك، من واجب النظافة والصحبة وصداقات أولادنا أيام الآحاد والجُمَع. أولاد صديقاتك بقوا أولادي كما هو نادر، عندما نأكل الكيمر والكاهي وفوقه عسل البيوت في طريقنا إلى تلك الجزيرة إياها، جزيرة أم الخنازير. شيء خيالي، لكن ليس غريباً، أننا بفضولنا ذاك نفسه، الذي يتغيّر، نشعر دائماً بأننا في طريقنا إلى تلك الجزيرة. لم تكن مجرد أرض مهجورة تقع وسط نهر دجلة الضعيف. من اللائق أن أقول لك بمنتهى الوضوح والأريحية العراقية، إننا نمكث هناك طوال الثواني والساعات والأعوام. لا نرجم أحداً بالحجارة ولا نصطاد الأسماك. صرنا أصغر وأقل عدداً من أولادنا الذين فروا، حين شعروا بأن الصنارة قد تصطادهم كما اصطادت الآباء.

ابتعدي عنا يا سهيلة. أبعدي عنا أفكارك الطنانة وأقوالك المأثورة وأعلامك الخفاقة. أرجوك ألا تضيّعي أوقاتنا بالترّهات، فنحن لم نعد نحن. لن ألحّ على باقي الشلّة. قد يكتبن إليك كما طلبت في آخر الرسالة. أمامك الآن فرصة ذهبية واحدة فلا تضيعيها من بين يديك. لربما نثق بك إذا ما اغتنمتها. سهيلة، يبدو أنك لم تمرضي منذ قرن، لم تدخلي أي مستشفى، لا حكومي ولا خاص، يا كتيبة من الدون كيشوتات. من الجائز لو خرجت من كسلك المزمن ودخلت ذلك العالم، فسوف تنالين التوبة، كلا، اللعنة. عليك اللعنة».

[٧]

(١)

تقارب الساعة الخامسة عصراً. توجهت إلى المبنى. كانت أمامي بضع درجات عليّ أن أصعدها أولاً، لكني لم أقدر. الصمت مخيم أكثر مما أحتمل. المستشفيات مدن كاملة، من الجائز أن يبقى الإنسان فيها إلى الأبد. تقدمت باتجاه المصعد ووقفت أمامه. لم أفكر في سهيلة. حضر إلى ذهني مكتبي في الشركة، وطاولتي التي كومت عليها أوراقي، والأدراج التي نسيت إغلاقها بالمفتاح. ظهرت قارورة الكولونيا بلونها الليموني ورائحتها الآخّاذة، وضعتها في الحمام الخاص بنا في العمل. كلما وقع بصري عليها تملكتني رغبة شديدة في فتحها وتلوق بعض قطراتها. يجوز أنني فكرت بالعطور حين فاحت رائحة حموضتي من العرق والخوف. للخوف رائحة قوية لا تشبه أي رائحة، ولا تزيلها كافة أصناف العطور. وصل المصعد ودخل إليه بعض الأطباء والمواطنين. كان كبيراً، يتسع لتوابيتنا أيضاً. توقف في الطابق الرابع وكنت آخر الجميع. لكني آثرت أن أعود إلى الطابق الثالث. وضعت قدمي الأولى على الأرض. كانت مغطاة بمشمع سميك لونه أزرق فاتح. شاهدت باب السلم الذي يقودني إلى الطابق الرابع. بدأت أصعد وأنا أحاول أن أبدد خوفي مع كل درجة أصعدها. فتحت الباب

بصعوبة. كان قوياً وثقيلاً ويغلق تلقائياً. أركز نظري على الأرض التي كانت تلمع وتفوح منها رائحة كاوية، خاصة بالمستشفيات. حين رفعت رأسي، كانت الإنارة قوية على عيني. إنه مبنى من المباني القديمة، وسوف يتخلصون منه في الأشهر القادمة. قرأت ذلك عند مدخل المستشفى. يفعلون ذلك في كندا وأميركا، يتخلصون من البنايات ذات الارتفاعات القليلة، يقولون إنها لا تناسب العصر. بدأت أتهجأ الجمل الفرنسية التي من الممكن استعمالها بعد قليل، وأنا أشاهد ممرضات وطبيبات بملابس بيضاء مكوية، وينتعلن صنادل واطئة. أغطية الرأس منشاة، وكل شيء ممتاز ويجري حسب الأصول. تهدّل حزامي الجلدي من على خصري، و أزعجني حمل معطفي الواقي من المطر. بدأت أسعل، كنت أريد أن أسمع صوتي. بدأت أشعر بدوار خفيف، توقفت وكدت أتقيأ. فالممر طويل، أطول من مديرية الأركان العامة، مقر نشاطات والدي، وأطول من الطريق الذي قطعناه معاً بين هنا وهناك، وأطول من النصر والفشل والضحك. أكلّم نفسي وألمح طيف امرأة شقراء تجلس خارج إحدى الغرف، بيدها شيء كالكتاب أو الصحيفة. ما كنت أريد التشكيك بها وبوجودها. اقتربت أكثر وتشكلت ملامح امرأة ثانية تجلس أبعد منها بقليل. هل هي بلانش؟ تغيرت، سمنت لكنها لا تزال جميلة. أدنو منهما، دنوت كثيراً، شقراوتان، تلمعان بما بقي من ضوء سهيلة.

«نادر، هذا نادر».

صاحت بلانش بلهجة عراقية حارة، كأنها تجري خلفي، فوق السطح العالي في بيتنا في بغداد. تدافعتا نحوي، وبإنكليزية امبراطورية، اقتربت كارولين بشيء من التحفظ الذي يلائم بلدها:

«وأخيراً، أخيراً يا نادر حضرت».

لم أنتبه إلا وأنا بين ذراعيهما:

«كارولين وبلانش، أليس كذلك»؟

(٢)

لو يغمى عليّ حالاً، لو أصبُّ اللعنات عليها وحدها: سهيلة. لو لم أكن نادر الذي يخشى وصول بريد إلكتروني ليلاً يقول؛ تعال تسلم جثة أمك. تعال، تعال، اليوم هي الابنة وأنا الوالد المستعجل، الفائض عن حاجتها، ترى من اخترع الأمهات؟

كشفت نفسي أمامهما وأنا لا أرغب في ذلك. كنت أريد أن أبكي وأنشج بصوت مسموع، لكن ليس أمامهما، لا أحب ذلك أبداً. بلانش تقرأني ككتاب مفتوح. كفّت عن التحديق بي. لو تخرجان الآن، وتذهبان بعيداً، أبعد من أمي، وتعودان إلى بيتهما. لو تتركاني وحيداً معها. أنا حضرت، فلتذهبا في الحال. أفرطت بلانش في احتضاني، أدركت حالتي، فماذا سأفعل وأنا بين ذراعيها:

«يا نادر لا يزال هناك رمق».

أمسكت برأسي، قبلتني، لا أدري من أين، كنت أميل إلى تصديقها. لا أملك سوى هذا الشك وحده، كأنها خبأت سهيلة لثوان من أجلي. أدارت كارولين رأسها بعيداً عنا، بدأت تتمخط بصوت خافت.

«إنها في غيبوبة، هذا هو اليوم الرابع. لا تفزع من مرآها. كن قوياً من أجلها ومن أجلك، فلولا تدهور حالتها السريع، لما فكرنا في دعوتك».

بدأت أتمتم، وضعت يدها على فمي، فشاهدت دموعاً هادئة تنزل على مهل من عينيها الخضراوين الكبيرتين الجميلتين:

«كنا نتبادل الحضور، نداوم هنا، نحن الصديقات. وضعنا جدولاً بيننا حتى لو كانت غير عابئة بنا. خصصت كارولين الوقت كله تقريباً

لها، فهي بلا مسؤوليات عائلية مثلنا، صديقة نادرة فعلاً».

«و...»

أمسكت يدي بيدها:

«ضع حقائبك هنا، بجوار كارولين».

حملتها عني، أخذت المحفظة من على كتفي، سحبت معطفي من يدي الثانية، جرت الحقيبة وأوقفتها بجوار كارولين. اقتربت هذه الأخرى مني، عيناها داميتان، أنفها أحمر وشفتاها يابستان:

«ادخل إليها يا نادر، هذا هو الأمر الوحيد الذي لابد منه في نهاية المطاف».

لبثتُ كصنم جامداً وهي تناولني علبة المحارم الورقية. وقفت إحدى الممرضات بجوارنا:

«السيد نادر، ابنها».

ابتسمت بوجهي مشجعة. بذلت جهداً لا يصدق وأنا أؤجل حتى النظر إلى الغرفة التي تحمل الرقم ٤٤. أصبحن ثلاث، يحاولن دفعي بحنان وتصميم إليها، ويتبادلن النظرات في ما بينهن وأنا لا أقوى على رفع رأسي إليهن. فجأة حُلّت عقدة لساني، فقلت بصوت يكاد لا يُسمع:

«سأفعل، سأفعل».

أدرت ظهري وبركت على أحد الكراسي. وضعت رأسي بين كفي وحالتي تزداد سوءاً. لا تعرف سهيلة المزاح. لو حاولَتْ أن تمزح، لو تعلمت هذه الخصلة لارتحتُ قليلاً. كانت تردد على مسامعي:

«لم يعد الأمر مجدياً يا نادر، أرسلت عشرات الخطابات إلى المنظمات الإنسانية حول موضوع الأسرى العراقيين. لا نعرف من هو المسؤول، لا أحد يستطيع أن يحدد مسؤولية ذلك الأمر المروع. هل هي السلطة العليا للجيش أم هي لجان الإغاثة الدولية، أي خالك

بمعنى من المعاني؟ يلزمنا وقت أطول من الأبدية لنعرف كيف حدث ما حدث»؟

ألهذا السبب فترت علاقتها بخالي ضياء أم لأسباب ما زلت أجهلها حتى الآن؟ كنت أحسب دموعي: قطرة، قطرتين، ثلاث وهي تسيل حارقة على خدّي، وتتساقط على مهل بين كفّي، كأنني عائد من جنازة. كنت أفضل ألا تكون هاتان الصديقتان هنا، وألا تراقباننى بهذه الطريقة. المطلوب أن أكون شجاعاً، موفور الكرامة لكي ترضيا عني، وأبدو بطلاً أمامهما. لكنني جبان، وخائف، ومرعوب، ولا أعرف كيف أتفاهم معهما. نعم، إنني مخاتل ولطالما رشوت أمي. رشوتها كثيراً لكي ترضى عني. تقول، كلا، أنت ذكي، أذكى من والدك قليلاً، لكنني لا أعرف ما معنى هذه الصفات، لا أفهمها، فتعاود:

«أنت لا تعرف أين تضع قدمك الثانية يا نادر».

«والأولى يا أمي، إنها لا تزال معلقة ما بين الارض والسماء».

«لا، إنها في مكان مختلف، أنت لا تعرف التروّي».

«لكنني أعمل كالثور وهذا الروتين يوشك أن يقتلني هناك».

هنا أيضاً في هذا الجناح، نظرات هؤلاء كالروتين تنهش لحمي. لن يهدأ لهنّ بال إلا بعد أن أرمي بنفسي من النافذة كي أبرهن أنني الابن الذي يستحقها. لا أعرف ماذا يقال في مثل هذه المناسبات. إن الأمر يفوق قدرتي على الاحتمال، هل كانت الوالدة من الماضي؟ أم أن الماضي هو الوالدة؟

(٣)

أم وابن: جاسوسان. أحدهما يتجسس على الآخر في أي وقت، وسط الجماعة أو كل على انفراد. ماذا فعلت بي يا سهيلة؟ من أين لك كل هذه القدرة على المكر؟ بدأت حربك قبل أن أولد، فأصبت

ببذرتها. حملتها معي في الغدد والخصيتين، في الركب والساعدين لكي أتلاءم مع المناخ، مع الحاجة. وأنت والدة بلا... وبلا. اخترت لنفسي اسماً بريئاً لكي أكسب قوتي فأبدو في غاية التهذيب. أخفي ثاراتي داخل حلقي، أصرّ عليها بأسناني كي لا تتجه ضدهم أو ضدك، لكنها تتجه مباشرة ضدي.

اسمي نادر آدم، وأنا لم أذهب إلى الحرب، لكن الحرب طعنتني في الصدر والظهر، وكانت دائماً تترصّدني. حربي لم تأخذ غفوة قط. فأسخر منك يوم تطلقين العنان لخيالك، وتروين لي قصصك إياها. كشفتك منذ البدء وكشفته هو أيضاً: والدي. أعجبتني طريقتك المفتخرة في إخفاء الأسرار عني؛ ضربك، تشويهك، تكسير أسنانك وطَرَش أذنك المبكر. كنت تُضربين يومياً حتى صرت مولعة بتلك الطريقة في التعامل، كأنها الطريقة الوحيدة لكسب قُوت يومك، فتركتك وأنا أشد تهذيباً مما تعودتِ مني. تعلمت ضبط الأعصاب أمامك وأمامه. أشاهده كل يوم يزداد تعطشاً لذاك الفعل حتى صرت كالعجينة الطيّعة بين يديه. كانت حرويكما كما توقعتما، هي التي ستنشر السلام والدعة والأمن عليّ وعلى من يجاورنا من بيوت الجيران والأصدقاء والأصحاب، وأنا عاجز أمامكما، لا أعرف ماذا أفعل بكما؟ فالحرب لم تكن في الخارج كما كنتما تتوهمان، وتوهمانني. كانت تعرض عليّ وأمامي، أشاهدها في كل شبر من كل غرفة. صارت سهيلة كلها أمامي، تحاملت على الوقوف وسرت كالمخدَّر إلى غرفتها. لم أُصعَق حين شاهدتُها من وراء الزجاج الصقيل. لم أشاهد طيف الموت يختال بين الشراشف، ولم أدرِ أنه سوف يحضر بعد قليل ويأخذها مني. نظرت بهدوء غريب؛ آلات كثيرة كانت فوقها، بجوارها ومعها. لم أكن متأكداً تماماً من أنها هي، سهيلة، ولا أعرف إن كنت أريدها حية حتى تراني، أم ميتة لتصبح أمي وحدي؟ سأناديها هي من الآن فصاعداً لكي لا تبدو الأمور مشوشة في رأسي. فهذه النائمة، في

هذه الوضعية، من الممكن أن تقلدها أي سيدة، أي امرأة أو أم في العالم. لكنها ليست أمي، ليست سهيلة.

وجهها اللطيف، القديم ذاك، لم يكن مصاباً بالإحباط والمياه. على العكس، كان قادراً ولا زال على عقوبتي، في جانبه الأيمن الإدانة وعلى الأيسر تنفيذها.

أنبوبان رفيعان من البلاستيك يمشيان بمحلول العلاج والغذاء داخل الأوردة. قناع موصول بأنبوبة أوكسجين طويلة فضية اللون، مشبكة بالحائط بصمام يقفل ويغلق بقفل نحاسي، فلا أقدر على النظر الصحيح إلى خديها اللذين انخسفا تماماً. رأيتها من وراء الزجاج؛ ثوب أخضر ناشف يغطي نصف صدرها الكبير، شرشف أبيض غطى بقية الجسم المسجى. أخيراً دخلت وأنا اتعكز على صوت تنفسها البطيء.

[٨]

(١)

لو كانت عمياء لتبادلت معها المواقع، وتركتها تشتاق إليّ. أنا الذي سيعدّ لها الشاي، ويبتاع الصحف، ويساعدها، ويشرف على تنظيفها، ويطعمها بيده ويدعها تشعر بالشبع. أمشّد أصابع قدميها، وأقص لها الأظافر وأشعر بأنها لا ترضى على خدمتي. ألبسها منامتها المنزلية وأدثّرها بالشال الصوفي وأطمئنها بأني لن أخيب أملها في طهو المعكرونة بالدجاج، وأني قادر على حملها إلى مقعدها المفضل. كلا، لا أفضل أن أكون عصاها، فرائحة الأمومة تمسك رأسي، وأشعر بألمها كضرب العصي. أخترع لها الكلمات والطرائف والنكت. تزداد ابتعاداً وأنا أقترب أكثر، لكنها تدفعني إلى الخارج. هذه فرصتي الوحيدة لكي أنظر إليك كما أشاء، وأعطيك جميع ما تريدين. هذا أفضل ما أملك القيام به، أفضل ما أقوم به؛ أشاهدك، أخاطبك وأنت صامتة. سلال من الورد، والقرنفل، والنرجس، براعم صغيرة على وشك التفتح، تفوح ببعض العطر. اقتربت من الأنابيب وشاهدت السائل يسير ببطء. كنت أنظر أمامي ولا أراك تماماً، من أنت؟

حين اقتربت منها كنت أرتجف. لم أخاطبها ولم أتنفس في

وجهها. يداها منفرجتان مفتوحتان كأنهما تستعدان للطيران والرقص. تبدّل فمها، غيّر موقعه، اعوجّ إلى الجهة اليمنى قليلاً. خبطت بالكرسي الوحيد قرب السرير وأنا أدفع جسمي للاقتراب منها. رفعت رأسي، كانت السحب تبدو منخفضة من خلف النافذة. بدت لي حياتي في تلك اللحظة كغطاء تلك الطاولة في مونتريال، كلما تسويه وتعدله، يتهدل، وكلما يتسخ تشطفه وتعلقه أمامي لكي أرى الثقوب والبقع، فأتظاهر بأنني مهذب، ومجامل، وهي لا تعرف ذلك الجزء المدمر من حياتي.

«عمياء، لا، لا، لكن لا ترى أحداً غيري». أتوسل لو لا تشك بي، وتظل عمياء، فقط لتعيش بجواري، معي، في الغرفة الثانية، في الشقة المجاورة والمدينة الأقرب، كطيف، سراب، أو سر، بسبب أو بدونه، وأنا غير قادر على اللحاق بها. إنها لا تحتاج إلي. هل حدث ما حدث لها قصاصاً لي على نواياي المريضة؟ بركت على الأرض، وتملكني الغضب عندما شعرت بأن عينيّ فاضتا بالدموع. بدأت ألثمها مرّات ومرّات، من الكف اليابسة، الباردة عن طريق الأيدي. قلت: سوف نتخاطب، ما كنا نفعل ذلك من قبل، وما علينا فعله جاء أوانه. على سهيلة أن تتحرك في البداية، عبر الأصابع، فأضغط بحنان في بادئ الأمر، ثم أقوى، فأقوى. أردد لها كلمة ما: الشمس، البدر، النخيل. يلثم فمي كفها، أغسلها بدموعي، أتنفس بين الأصابع، الأيدي أفضل موصل للكلام والحرارة.

(٢)

قالت بلانش:

«غاب صوتها كلياً، وعاودها الخطر ليلة أول أمس. بذل الأطباء جهودهم للمحافظة على طاقة ما، أي طاقة، ربما من أجلك يا نادر».

«الثريا، سأناديك الثريا بدلاً من نادر».

قالت سهيلة ذلك في أحد الأيام وأضافت برقة:

«هذا اسمك الحقيقي الأول. فكرنا بفتاة في بادئ الأمر، ستكون نديمتي وهي تنزل من مكانها الأمين. أنثى جميلة من قوة الخليط ما بيني وبين والدك، من أسرار القُبَل، ونوع الغذاء، وشكل المداعبات، وساعات الاستحمام في الفجر ونحن نتداعب بأجسامنا الحنونة. كان والدك لطيفاً، كان ذاك في البداية، قريب أمي من بعيد، فيه جانب لم يفسد بعد. لا أذكر متى فسد ذلك الرجل. لو تسألني لقلت لك، من الجائز أن يكون ذلك في بداية الدوريات إلى الشمال. أنت لا تصدق ذلك بالطبع، ولا أنا، لكن».

تنتعش وهي تعاود سرد تلك الحكاية، تردها مراراً وتكراراً، وتضحك بحياء:

«أريد فتاة لا يتمكن أحد من سلبها مني وأخذها إلى الثكنة. طفلة أدحرجها بين ذراعي وألحس لحمها الطري. وحين أحمّمها، أنظر وأتسلى وأنا أحرك خراءها الأول الدافئ تتصاعد منه الأبخرة الحارة، فلا يسعني إلا أن أبكي. بكيت وصرخت أمام ذلك الأمر البسيط الخارق في اليوم الثاني من ولادتك، رأيت الحقيقة الأولى. أرجوك لا تسخر مني، فالأمر لا علاقة له لا بالحشمة ولا بالمبالغة. القصة دائماً تعاد وتستعاد وأنا كنت أريد أن أقلبها، وأقبّلها، وأشمها وأناديها الثريا. أحب التعريف، وأعيد التفاصيل أمامك، مأخوذة بوقاحة الأمومة. ما من وقاحة فيها جميع ما يخطر ببالك من صفات وجميعها صحيحة، وأنت تشاهد ظهور طفل للمرة الأولى قادماً من أقصى الغيب، يتجه نحوك، تستطيع ملامسته من أجلك أنت بالدرجة الأولى، وليس من أجله هو. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لابتكار الأمل، أليس كذلك يا نادر»؟

كانت تقول ذلك في الأيام الخوالي وحولنا بعض الشموع وأقداح من النبيذ الأحمر، ترتدّ إلى الخلف:

«في صحة الثريا النادرة، في صحتك. تصور، لم أبك وأنت تحضر، لكن الدموع كانت هناك في تلك الليلة وأنا أدفع الثريا من موقعها ملمتراً آخر بعد. العراك هو الذي ربطني بها أكثر. كاد هيكلي العظمي ينكسر. أستخرجها بالمغرفة، أحادثها بصوت خفيض وأنا ممددة؛ آه، لو تتسربين من فمي بدلاً من ذلك المكان القصيّ. سيكون الفم مقبولاً لو صار على تلك الصورة. ستروى القصة ثانية وثالثة، لكنها لن تكون عجيبة. فعلامَ كانت الوالدة لا تفقد عقلها وهي تعثر في الأخير عليها، على الثريا؟ لماذا انتهى الأمر في ما بيننا ما إن تم الانفصال؟ انتهى الأمر يا نادر، وليس بالإمكان شرحه. فبعدما تأخرت طويلاً، لم يُغمَ عليّ. كنت أريد التلصّص على نفسي وأنت تمتصني؛ كيف لا تخطئ بيضتي الطريق لكي لا أصل إلى الموت؟ انزلقت بطرب، أي والله. لم تجرحني كما حصل مع صديقات لي. أما تلك الدماء، فقد ردت الخطر عني وعنك. أخذتك على الفور بين ذراعي، مرّرتك على جسمي بالمخاط والعرق والإفرازات. كان ذاك يا نادر كل ما لديّ؛ دفتر التوفير وخطط التعويض. أما الحليب، حليبي وثدياي الوفيران، فتلك قصة ثانية سوف لن أملّ من سردها عليك ولو استغرق ذلك قروناً عديدة».

•

(٣)

سمعت حركة ما بجواري، يد تربت على كتفي بهدوء. يد خبيرة تحاول أن تنهضني، نبرة خفيضة كنبض سهيلة. لا أدري إن تراءى لي أنني أسمع صوتاً نسائياً بلهجة مصرية، أم كان ذلك مجرد تشويش في السمع؟ لم أجب بـ«نعم» ولا بـ«لا». كنت أقرفص على ركبتي،

أطوّقها بذراعيّ، وأغالب كبرياء الرجل ـ الابن. شعرت بأنني هرمت فجأة، وظلّ تلك السيدة سد عليّ منافذ الضوء. أمسكتني من كتفي وانحنت أمامي. لم تتفوه في بادئ الأمر بكلمة وأنا أتذوق ملوحة دموعي. أمسكتها من ذراعها حتى وقفت، وصارت في مواجهتي. وجهها رضي وطيب، وأنا على وشك أن أتهاوى بعد قليل. انحرفت يدها وخلصتني من الارتباك، قادتني إلى خارج الغرفة.

«وجد، الدكتورة وجد».

«نعم، أي، أهلا...»

تأوّهت بصوت مسموع وشهقت. رميت بثقلي على أول كرسي صادفني. بلانش، كارولين! وثمة وجوه لم أتبين أشكالها، لم أرها من قبل؛ رجل طويل أسمر كان يبتسم حين وقع بصري عليه، باغتني بلهجة عراقية مباشرة:

«أنا حاتم وهذه نرجس زوجتي».

اقتربت مني سيدة، ومدت يدها بتلقائية محببة كما زوجها. حاولتُ الوقوف لكن تعذر عليّ ذلك. اقتربا، وطوقاني كل من جهة. كان الإرهاق والتعب قد استبدا بي، فقالت وجد بصوت ودود:

«أنت ترتعش يا نادر، هل تشعر بالبرد»؟

نظرت إلى معطفي الواقي من المطر، فتقدمت بلانش بالمعطف ووضعته على كتفي. تقدم الثلاثة أو الأربعة، يمدون أيديهم، يسحبون الردن الأيمن أولاً. انسقت إليهم ولبسته بالكامل. كنت أشعر بأنني سأسحق وأدخل في غيبوبة بعد قليل. لم أجرؤ على التحدث ولا أدري في النهاية كيف سأتكلم. ابتعدوا عني فشاهدت كارولين تتقدم وبيدها قدح من الكارتون:

«اشرب يا نادر، هذا عصير برتقال. لدينا غيره، أناناس، وليمون وخوخ، ماذا تفضّل»؟

«شكراً».

تهتز يدي وأنا أرفعها إلى فمي. دخلت في نوبة من السعال الشديد، وتناثرت قطرات من العصير على وجهي ومعطفي. ناولتني كارولين علبة المحارم الورقية، وبدأت أمسح وأنظر إلى الجميع وقد اصطفوا على شكل نصف دائرة حول الدكتورة وجد، بعيداً عني. لمست معطفي بيد حذرة، وبدا لي أن ثمة صوتاً يصيح بي:

«تعال إلى هنا، اقترب وقِفْ أمام المرآة. لا ترمش عينيك هكذا كأنك حزين. كلا، لست غاضبة منك. خذ وجرّب هذا».

كان المعطف بلون الرمل الرطب، على مقاسي تماماً، كأنها فصّلته لي من دون أن تعود إلى تفاصيل جسمي الذي حفظته حين كانت تطوقني وتعانقني في الوداع واللقاء. وقفت تتأملني:

«طريقتك في إيلامي مفيدة في أغلب الأحيان. هل تعلم كيف؟ سأقول لك. كلما أفكر في اللوم، لومك، تطردني أنت من عالمك وتسفّه قصصي، تحرّضني من دون أن تقصد ربما، فأبدو ضعيفة أمامك. نعم، أنت تحب الضعفاء مثله، مثل والدك. تفضل الذين يدورون حول أنفسهم ولا يعرفون كيف يعثرون على بارقة أمل. حسناً، هذا أمر مهم، أنت تنقذني في النهاية من نفسي وليس منك».

عدّلت الياقة بعناية وهي تنظر في عينيّ. تعمل كما لو أنها خياطة في معمل عمومي، وأنا مجرد زبون مشاكس:

«ها، عال، الحزام ليس ضرورياً، تستطيع أن تسحبه من الخلف».

عقدته بإتقان وبدأت بفك الأزرار بهدوء. أسندت يدها إلى ساقي كما أفعل الآن، ثم بركت على الأرض قبالتي:

«امشِ، أترك الأزرار مفتوحة. أليس هذا أجمل»؟

لم أنتبه إلا في هذه اللحظة وأنا وسط كل هؤلاء الأصدقاء، أنه اتسخ واغبرّ لونه. اشترته لي هدية ميلادي الرابع والعشرين. لم أنظفه أبداً منذ ذلك الحين. كنت أعلقه بجوار ثيابي، أرتديه حين تحضر، وأدعه معلّقاً يهزأ مني وهو يتدلى. أمسكه بغضب دافعاً به إلى آخر الدولاب، كما أدفع بجسمي إلى آخر الكرسي قبل أن أتهاوى. كان من الموديلات الكلاسيكية القديمة ويذكرني على الفور بالرجال المتقاعدين، في بداية القرن. غالي الثمن، لكني لم أحبه يوماً. كنت أبدو فيه رجلاً عجوزاً واقفاً في مقبرة، أتلقى التعازي على فقد إنسان عزيز على قلبي.

[٩]

(١)

تقدمت كارولين مبتعدة عن الجميع:

«ستحضر معي يا نادر بعد أن تتحدث إلى الدكتورة وجد. سترتاح قليلاً، فأنا أعيش وحدي. كما أننا سنتناول عشاء خفيفاً، لأني لست طباخة ماهرة كسهيلة، ها...»

تابعت بصوت خافت:

«عليك أن تتماسك، أرجوك».

رفعت رأسي، عمَّ يتحدثون؟ يزداد وجه كارولين كرباً، صوتها مهزوز ومتقطّع:

«شكراً يا كارولين. اليوم بالذات أريد البقاء بمفردي».

لم تلحّ ولم تضف كلمة واحدة. ابتعدت عني، ثم عادت وهي تحمل حقيبتها. مدت يدها بسلسلة من المفاتيح:

«مفاتيح الشقة، صندوق البريد، المخزن والباب الخارجي».

رفعت يدي وأنا أغمغم بعبارات الشكر.

«لن أتأخر يا نادر، يبدأ اليوم مهرجان الفيلم الأميركي في برايتون».

كانت سهيلة تعبث بمفاتيح أبواب الشقة وهي تمسكها بيدها. إنها ليست شقة، هي غرفة واحدة كبيرة قسّمتها بطريقة لطيفة. وضعت ستارة من القماش الشرقي السميك وأنزلت فوقها صوراً، وقلائد، وحلقاً من البلد. كلما تحركت الستارة، خشخشت الفضيات بصوت جميل، ما زالت تتردد على مسمعي حتى اللحظة:

«دعني أتفرج على غيري في قاعة مظلمة. أبقى هناك بلا حراك وأفضح أسرارهم. تعبت يا نادر من أسراري التي أكبتها عنك بالدرجة الأولى، أسراري السخيفة التافهة والمريضة. ساعة ونصف ساعة، ساعتان أجاور رجلاً وامرأة لا أعرفهما حتى يتلاشى الضوء والصمت والخارج. تتلاشى أمك الواقعية وتنتصر الثانية التي لا أعرفها أنا ولا أنت. هناك أصبح شخصاً لا يتصبب عرقاً مما يليق وغيره، وتأخذني الأحاسيس المتعارضة والمتناقضة فلا أستطيع التحكم بها. أصبح متفرجة. لماذا تخاف أن أعبر تلك الحواجز يا عزيزي؟ تعبت من احتلال دور الصدارة في هذا الشأن أو ذاك. نعم يا نادر، في تلك البقعة المنزوية، أصبح امرأة أخرى، لا الوالدة ولا الزوجة، لا الحرة ولا العبدة، لا العراقية ولا الأجنبية. لا أعود أمرأة ناضجة وبالغة ورزينة. وأنت تلحّ دائماً حين أخرج: «انتبهي يا أمي إلى المفتاح، فأنت تكرهين حمل حقيبة أو محفظة. تضعين النقود في جيبك أيضاً ومن الجائز أن تنسلّ الأشياء وتقع إذا ما نزعت معطفك». لكنها تزداد ضيقاً مني ومن أقوالي، فتردّ بعصبية بأنها لا تطيق مثل هذه الأوامر والتعليمات». لكني أواصل وُلا أدعها تكمل، وأقف في مواجهتها أمام الباب:

«لكن الأمر يا أمي لا يتعلق بالمفتاح ولا المحفظة، بل بك أنت. حين تغادرين السينما، تعودين مشوشة ومنومة، وبالكاد أستطيع التحدث معك، كأنك لم تغادري مقعدك في تلك القاعة، ونحن نعرف أن كل ما يجري هناك خدعة، أعني لا شيء».

كانت عيناها تلمعان ببريق غريب فتجيب بصوت قاطع: «كيف السبيل لكي تفهم أن اللاشيء له فتنة لا تُدرَك. أنا بأمسّ الحاجة إلى هذه المشاعر. في تلك القاعات، من قبل المسرح، وهنا دور العرض، أكون أنا بامتياز. كفى ودعني أذهب. فأنت لا تستطيع في كل حيز أو مكان أن تكون أنت».

(٢)

كان عليّ أن ألاحظ أن سهيلة الآن ألطف من السابق حتى لو كانت لا تشعر بذلك. هي المسؤولة الآن عن هذا الوجه. فقد بقيت في حالة دهشة غريبة وكان هذا الأمر يحيّرنا جميعنا في البداية، أنا والسائق الفيتنامي، كن، والمحامي الفرنسي مسيو ألن. كانت دهشتها تبدو غير مفهومة لمن كان في سنها، لكنها لم تبال بنا. إذاً، قد تكون هذه فرصتها الأخيرة لتكون أمي، ولتكون هي، من دون أن تطلب أي عون أو استغاثة، لا مني ولا من اللواتي أطلقت عليهن في جميع مكاتيبها اسم «المحبوبات».

هدأت وتملكتني حالة صفاء غريبة، فلم أتمكن من الوقوف والتقدم إلى الدائرة التي كانت تقفل وتفتح بالوجوه والقامات أمامي. وحدها كارولين ظلت واقفة بعيداً، فالجميع يتحدث العربية. كانت منكسة الرأس، تنظر في فراغ يتسع تدريجياً، ترفع يدها، تمسح عينيها ثم تتمخط. فكرت لو كان بمقدوري أن أقترب منها، وأمسك بكتفها، وأشكرها باللمس وليس بالكلمات. ضجرت من وقفتها تلك فجلست على أحد المقاعد. كنت أرى الظهور أمامي شديدة الاختلاف وأنا أتأملها، والأصوات خفيضة وحركات الأيدي منتظمة الإشارات. كانت نرجس والدكتورة وجد أكثر الجميع نقاشاً. خلعت المعطف، وضعته جانباً، وبدأت أجفف عرقي. على أحدهم أن يلتفت ناحيتي، يطلبني،

يقترب مني ويحادثني، فهذا الانتظار كان الأسوأ في حالتي تلك. لم أتدرب عليه من قبل ولا طاقة لي سوى للتفكير بالواجبات العاجلة التي ستُقترح عليّ.

حين وقفت في طريقي إلى الحمام، اتجهت الرؤوس جميعاً صوبي، ومع هذا لم نتحادث إلا بالإشارة. كان وجهي حين شاهدته في المرآة مسمماً: عينين متورمتين، وأنفاً أحمر وشفتين متيبستين جداً.

هل ستعيش وأتحدث إليها؟ يوماً مضافاً، كسراً من ربع يوم، ساعة لا علاقة لها بما سيأتي، دقيقة، لحظة تشد أزري وتسحبني إليها؛ تبدأ من عنقي، تقبلني من هناك دوماً، تسمي ذلك الحيز «مغارة الحنان». كان ينتظرها عمل أبدي لا ينتهي، لكني بدفعة من يدي، أنهيه زاجراً إياها. فأنا لا أطيق ذلك الذي يملأ عينيها، فأرغب بنسفه تماماً:

«كبرت يا أمي على هذه الأمور، أرجوك أن تكفي عنها».

أغيب وأدعها تتكلم مع نفسها. لا أحد يعلم بماذا كانت تفكر؟ لكن بعد قليل كنت أسمع أصواتاً عدة قادمة من الحمام. تبدأ من هناك، تفرّغ الدواليب على مهل، تكشط الصابون اليابس على حواف البانيو، تلمّع المرآة والحوض والمغسلة، تبدّل المناشف، وتبدأ بشطف الأرضية. تُغرم برغوة الصابون، برائحة الياسمين والمسك. على ذلك النحو كانت تتحدث في نوبات طويلة من الغضب والتوتر تخلّصها على عجل. تستحضر على وجهها ابتسامة كادت تضيع قبل قليل. لا تتوقف إلا بعد أن تتورّم يدها، تحرك ساعدها إلى أعلى وأسفل حين أحاول الدخول إليها:

«هؤلاء الذين أتحدث معهم، أفضل منك. ألقي عليهم التحيات. إنهم أقل مكراً وابتعاداً من والدك ومنك».

يتحول كل ما تمسكه بين يديها إلى عمل يسير ولذيذ. تعمل كما

لو كانت تغني أو ترقص، فهي تتمتع بجسم صغير، نحيف وقصير. وبنيتها كالأرجوحة، خفيفة وناعمة تحركها في جميع الجهات:

«اسمع يا نادر. لكي أخفف الضجر، تتحرّر من داخل جسمي حركات راقصة لا أعرف أين كانت تختبئ. صدقني لا أعرف، لم أتدرب عليها من قبل، بل على العكس. كلما أتدرب، أتيه وأضيع. أفضل أن تنطلق الحركات بعفوية. نحن نقطع الخبز، ونلتهم الطعام، وننشر الملابس على حبل الغسيل، ونغطي أجسامنا بالمعاطف أو البطانيات. حركات تدلنا على كيفية مجابهة الموت، فلا يجرؤ على الالتفات إلينا. ندع الموت يحتار في أمرنا، فلا يعرف كيف يباشر عمله. الرقص هو الذي يحيّر الموت حتى لو كان سيّئ الحركات مثل التي أقوم بها».

(٣)

كانت تغني أيضاً، يصلني غناؤها من أول السلم وأنا أصعد الدرجات. صوتها مبحوح من الدخان، والسعال، والسهر في الليل والمشي في النهار. صوتها ليس جميلاً لكنه ساخر، وهازئ. تقول عنه: «إنه مصنوع من التبغ والنبيذ المعتق الذي أشربه في بيت كارولين وبلانش. تعرف يا نادر أنني من برج الحمل، أي أنني نعجة. فريال من البرج نفسه. كنا نتعارك في بعض الأحيان، ويفصل والدك بيننا قائلاً وهو يمزح: أنا الخروف، هيا اصمتا. فترد عليه فريال بصوت خفيض: عجيب شلون عرفت؟ تقول هذا، وتطلق ضحكة قوية ثم تضيف: لكني أحب الماعز، حليبه وأجبانه. هذا الحيوان ينتصر في الأخير حتى لو كان انتصاره قليلاً».

تواظب على ذلك الشراب في العشاءات القليلة التي نمضيها معاً. تهتم بي أكثر مما أطيق وأنا لا أبدي إعجاباً، لا بصوتها ولا بطريقتها

في الغناء والرقص. أغضب وأشعر بالخجل حين أراها ترقص أمامي. كانت صورتها تخرج عن شكل الأمهات إلى فئة النساء المشكوك في أمرهن، وكان هذا الأمر يخيفني. ماذا لو قدّمت لي في أحد الأيام رجلاً ما وقالت لي إنه رجلها؟ أجل، ماذا سأفعل في هذه الحالة؟ لكنها لا تتحدث عن ذلك إلا بسخرية:

«تصور يا نادر أنني لم أتناول والدك بالشوكة والسكين، أو لقمة لقمة، بل أخذته بأكمله كما تفعل الثعابين بالصيد السمين. ابتلعته دفعة واحدة حتى استقر في داخلي. أين، لا أدري وهذا ما يحيرني».

وتشرب القدح إلى آخره وتسخر ثانية من أبي، من الرجل، ومني أيضاً فأرتعب أكثر. لم تكن هكذا من قبل. لما كنا لا نزال في بغداد، وبعدها أول ما وصلنا باريس وسكنا في شقة خالي مؤقتاً، كانت غير قادرة على أي حديث عابر أو بسيط مع أي كان. وحين أقول لها: أمي، الطقس لطيف اليوم، تعالي نتشمس في الحديقة المجاورة للعمارة، تشيح برأسها ولا تجيب. لا تعرف كيف تردّ ولا كيف تضع الأشياء أو الأفكار في مواقعها المناسبة. تخرج الكلمات من بين أسنانها بطيئة وجاهدة كما لو أنها تسحبها من مكان بعيد جداً. وكان هذا الأمر يعذبني كثيراً، لكني ألح عليها فأشعر بأنها ترد من أجلي فقط كي لا أنزعج أكثر:

«لا أعرف أي شيء يا نادر. ثمة شخص آخر داخلي يسير، ويتنفس، ويدخل الحمام ويغتسل وينام، لكنه لا ينام. إنني ألاحق نفسي، أود لقاءها مجدداً لكني لا أستطيع. لا أحتمل فكرة أنني فقدتها إلى الأبد، سأبقى بانتظارها يا نادر، هل تفهمني؟ أرجوك ألا تغضب مني، إن كان ليس بمقدوري أن أسعدك أو أريح نفسي ومن حولي. هل تعرف، أشعر بأنني لست على حق ولا على باطل، لست خائفة ولا غير مبالية، وأن قواي الأولى، تلك التي كانت لي في العراق،

ذهبت من دون رجعة، رحلت. حتى لو كنت سلبية كما تقول أنت وخالك. إذا أكلت فلا أشعر، أهو خشب ما آكله أم زبالة؟ كل شيء هو شيء آخر، كل شخص يقابلني هو أقل، أصغر، أضخم مما أتصوره. لا شيء له مثال واحد، لا سؤال له جواب، وما من جواب حسن، عادي، وتافه. لا أدري إن كنت أعبّر عما في نفسي كما أشعر تماماً؟ من السهل تكذيبي في كل هذا وأكثر، لكني أعرف أمراً واحداً لا يزال حتى اللحظة الأقوى وعليك أن تصدقه: أنني لا أشعر بالشقاء وأنت معي. نعم، نعم يا نادر، هذه هي الحقيقة الوحيدة في حياتي. لكن لا أدري إن كان هذا له نفع ما. حتى لو كنت على خطأ، فلا تربكني وتتهمني بأن ذلك المحامي كان يغازلني، هل لاحظت ذلك؟ إنه مجرد رجل لطيف، لكن ما الفائدة من الموضوع كله».

لكنها أمي وهي تهتم بي أكثر مما أطيق، وأنا لا أبدي إعجاباً بأغانيها العراقية التي تسبّب لي غماً لا يطاق. نكون حول الطاولة الصغيرة، فتمسك بيدي، وترفعها إلى فمها وتقبلها قبلات مباغتة من باطن الكف فأسحبها حالاً، وأتأفف. يتساقط صوتها عليّ والدموع الفجائية، فلا تعرف متى ستتوقف عن الحديث عنه، أبي، ولا تصغي إليّ أيضاً. أتركها تتابع وألاحق جسم إليزابيث، صديقتي الإنكليزية في ثوبها الجديد، فلا يمكنني الفصل كثيراً بين الشاب الموله بحب تلك الفتاة المتدينة جداً، وبين حب أمي كآخر شخص في حياتها، فيخيل إليّ أنها لا تزال تراني شخصاً في منتصف الطريق بين الابن والزوج، بين الحقيقي الذي أكونه أمامها وذاك الغائب الذي يغطّ في الأسر والفرار. وكانت من فرط ثقتها بذلك الأمر، تسهر حتى آخر الليل، وأمامها ملفات لا حصر لها عن الأسرى في كل مكان على الأرض، والسائق، كن، يحضّر لها بعض الروايات، ويعدها بأنه يوماً ما سيخبرها عنه وعن أمه، في لاوس وكمبوديا، وعن الغجر والهنود الحمر. كانت تخاف الاقتراب كثيراً من الأسرى العرب، من العراقيين

تحديداً، وتعرف أنها إن دخلت إلى هناك، سوف تُأسَر، فيمتلئ حلقها بالدم والشتائم. وتعود ثانية إلى الشقة، تعاود ترتيب الأشياء في الجانب الذي يخصني، وأنا أتابعها كالثور المربوط على مدار العام. لا أتوقف، لا في البرد ولا في الحر.

يُفتح الباب بهدوء. تدخل الدكتورة وجد فتجدني واقفاً على حالتي تلك. تقترب مني:

«هل هدأت كي نتحدث قليلاً؟»

استدرت، امتزج هدوئي بشيء من النفور من جميع هؤلاء:

«ها... هل هي تحتضر؟»

«من أين لك هذه الأفكار السوداء، ليس جميع من يدخل الغيبوبة يتهي».

«و...»

«هل ستتحدث هنا؟»

مدت يدها إليّ:

«اسمح لي من فضلك».

أمسكت بيدي وهي تفتح الباب. كانت حركتها أمومية، فشعرت خالاً بأن الأمر يُنذر بالخطر. أفلتت يدي فسرنا متجاورين. كنت أفكر بجميع المفاجآت التي تنتظرني. هل حانت النهاية وهي ستقسّط عليّ المصيبة؟ يجلس أصدقاؤنا في سكون، كل مستغرق في تأملاته. فاجأني وجه جديد لم أره قبل ساعة. قامت تلك السيدة واقتربت مني، أخذتني بين ذراعيها بطريقة أربكتني جداً. كانت تجهش بالبكاء، قدمتها الدكتورة وجد قائلة:

«أسماء، صديقة أمك، هي التي أخبرتنا بكل ما حدث. ألا ترى أن عدد الأصدقاء والصديقات يتزايد»؟

كان صوت أسماء ذا نبرة عراقية شديدة الحماسة:

«رحمة الله واسعة يا نادر وأنت رجل مؤمن، عيني. تعال يمه، تعال اجلس هنا، هنا قربي».

كنت أجر قدمي بتثاقل، فجلست بجوارها. كانت عواطفي مختلطة. وكل وجه جديد يدفع بالانفعالات لديّ إلى أقصى نقطة في داخلي، فأعود وأرتب حالتي من جديد. إحراجي وتوتري في ذروتهما بينما تركّز وجد نظراتها عليّ. جلست بلانش بجوار كارولين. شاهدت نرجس وحاتم وأنا أرفع رأسي. كانا صامتين، لا تُنبئني جميع هذه العواطف بأي شيء. يجب أن تقرر وجد حالاً، يجب أن تحادثني، فماذا تنتظر؟ اقتربت مني فأفسحت لها المكان بجواري، رفعت رأسي ونظرت إليها بخوف حقيقي:

«الآن أرجوك هيا، إنني أصغي إليك فقولي ما تعرفين».

ابتسمت وجد وبدأت الحديث بطريقة غير متوقعة:

«أخبرتني سهيلة أنك حاولت تأليف فرقة موسيقية حين كنت في الجامعة، وأنك تكتب يوميات أو مذكرات. ترى، أما زلت تحب التصوير الفوتوغرافي؟ لقد شاهدت بعض صورها. كانت تقول: نادر أفضل من يأخذ صوراً عفوية. قبل هذا وذاك، أنت مهندس إلكتروني، أي أنّ الأرقام ليست وحدها ما جذبك، وهذه شجاعة منك. الحياة ليست الكوابيس التي تأتينا في المنام، الكوابيس هي ما تسميه أنت الآن. لطالما ردّدت سهيلة أمامي هذه المقاطع من الشعر». ازددت ضِيقاً وأنا أبلع ريقي بصعوبة:

«لا، هذه لست أنا وإنما غيري

إذ ليس بمقدوري تحمل كل هذا الكم من الألم

لأجل إنسان ما تهبّ الريح الندية

لأجل إنسان ما يتورّد الشفق

نحن لا نعرف شيئاً، فالأمر سيان».

لم أصغ إلى بقية الأبيات، فقد حفظتها لكثرة ما رددتها أمامها. هي أبياتي التي سجلتها أول ما دخلت الجامعة، لكن سهيلة صارت ترددها بدلاً مني.

شعرت بالجدية في صوت وجد كما لو أنها تعطي الدرس للولد الصغير، كما شعرت بأن جميع الواقفات على استعداد للعب هذا الدور. لست معتاداً على ذلك ولا كان بمقدوري تحاشيه؛ سوف يحاكمونني على الأعوام العشرة، أو الاثني عشر التي أمضيتها ماشياً فوق حبل مشدود، بجانب أبي، لا أستطيع فك ألغازه، وسهيلة تبتعد عني عاماً بعد آخر فأعود أدراجي إلى البداية وأخاف ألاّ أعثر عليها طالما أبدو في عينيها، وربما في عيون هؤلاء، غير جدير بالثقة. جففت دموعي وكتمت كلاماً لا يتعلق بهم جميعاً، وإنما بها وحدها. كنت أودّ بالفعل الانفراد بها بعيداً عنهم في حال استيقظت وبدأت باللوم كما تفعل وجد معي. نضب عرقي، واكتشفت أن قميضي رث وأنا أشاهد كمه بعدما فتحته ورفعته إلى أعلى. لا تحب سهيلة هذه الحركات أبداً:

«لم تعد مراهقاً يا نادر كي...».

كانت كمن تحمل التوبيخ في جيوب منامتها أو معطفها، كلما تحتاج تغرف وتعطيني:

«أين ربطة العنق لكي تخفف من شكل تفاحة آدم الثقيلة في عنقك»؟

تكمل وجد:

«أعراض مثل القلق والاكتئاب شائعة لدى جميع البشر، لا سيما

لدى النساء الوحيدات اللواتي يساهمن بشكل واسع في معدلات الارتفاع العام للاكتئاب. فالعزلة والإحباط وانعدام الدخل الثابت والمريح، أضف إلى ذلك تدهور القيمة الذاتية، كل ذلك يضاعف الضغط العصبي. وأمك بلا شريك مستقر، فكيف إذا كان والدك أسيراً أو مفقوداً أو... وكيف إذا كان بلدك منبوذاً. إن العنف الذي واجهته سهيلة من قبل والدك، لا أدري إن أخبرتك بالتفاصيل أم لا، جعلها تعاني مشاكل عصبية وسلوكية. لم تتعالج عندي طويلاً، إذ إننا سرعان ما تحولنا إلى صديقتين حميمتين. هذا خطأي أنا بالطبع أكثر منه خطأها. إنه شائع في الطب النفسي عموماً. أنا التي فشلت معها لأنني قلصت المسافة ما بين المعالج والمريض. الطريف أنني كنت أستشيرها في بعض مشاكلي».

«والآن دكتورة»؟

قلت ذلك بنفاد صبر وعصبية، بعدما سمعت ارتفاع نبرة صوتي، فالتفت الجميع جهتي. كأنما وجد توقعت ذلك، فلم تُفاجَأ، لكنها واصلت بصوت خفيض، فخجلتُ:

«لم ترَ سهيلة الأمر مجدياً. كانت روحها الحساسة تسبب لها ولمن حولها الضيق والانزعاج. حين تعرفت إلى الكاتبة الفرنسية تيسا هايدن المهتمة بالكتابة للمسرح، قالت، من الجائز كونها ابنة مسرحي عراقي كبير، أن تغدو شخصاً آخر وهي تؤدي بعض الأدوار على مسرح فرنسي. قدمت بعض العروض الشعبية أمام جمهور صغير، وعملت مع بعض المخرجين العرب والعراقيين في أوروبا. كانت تسكنها روح الرقص العراقي القديم، من طقوس السومريين حتى الوقت الحاضر. تعتبر الرقص طريقة للتحرر ولرفع النبذ عنها بالدرجة الأولى وعن بلدها. بقيت تيسا مصدر دعم وإنصاف لها في انعطافة حياتها تلك، لكن اللغة بقيت تعوزها، وهي لم تعبأ بالأمر كثيراً. ظلت

تردد على مسمعنا ومسمع تيسا أن الرقص لغتها وتواضعها، وهو الذي يجعل من الفن نقطة مشتركة بين الجميع، جميع البشر. كانت تنهي بعض الأمسيات بطريقة مرحة، وعفوية. لقد آمنت بأن الرقص يزيد مناعتها تجاه القهر الذي كانت تعانيه، ويقوي الاختيار ما بين الحياة والفناء، ولذلك أدمنت عليه».

كدت أضرب رأسي بالجدار الذي أمامي وأنا أمسك بيد وجد، أهزها بحركات لجوجة. يختنق صوتي وأنا أنتفض:

«يا دكتورة أعرف ما كان يواجهها، هو ذاته الذي لا يزال يواجهنا ولعلك تشعرين بأنني أريد أن أعرف الآن، الآن فقط، هل تعتقدين أنه من الممكن اجتياز مرحلة الخطر، تلك الدرجة التي قالت بلانش عنها، الدرجة الصفر. ماذا يعني كل هذا أرجوك»؟

«إلى جانب الرقص كانت تبحث، وتسأل، وتسجل، وترسل الخطابات إلى المنظمات الإنسانية. تدري أن ما من جدوى من ذلك، لكنها تواصل. فهي لا تدري من المسؤول عما حدث ويحدث. كان الهول يقترب منها وهي تعمل بموجبه في أغلب الأحيان. كانت تشرد ولا تصغي إليّ ولا إلى نصائح الأطباء والصديقات وإرشاداتهم».

لم أقدر على تحديد ما تريد الدكتورة وجد أن تصل إليه. فصار الأمر فوق طاقتي. لكنها أكملت بصبر يضاهي يأسي، بل يفوقه:

«بالطبع كانت تُعالَج من الضغط المرتفع وبانتظام، لكن الحالة ترتبط أولا بالعمر، وبدرجة الانفعالات الشديدة. وعلى الرغم من أننا، نحن صديقاتها، نعرف كم هي حريصة على أصول الصحة من خلال المشي والرياضة والغذاء المعتدل، غير أنها لم تتمكن من التخلص من عادة التدخين الشره، و...»

صمتت فجأة، مدت يدها إليّ، أمسكت رسغي، وشعرت بأنني متهم وهي تتابعني بعينيها. وها هي تفتح المحضر فأبدو أمامها،

وأمامهن جميعاً: ابناً خارجاً عن القانون. هل لعبتُ دوري على ما يرام، أم أنه الواجب فقط؟ هل بلغتُ سن الرشد أمام محبوبات سهيلة وصرت مواطناً سوياً كي أنال رضاهن عني، في البداية على الاقل؟ لقد فقدت امتياز أنها ستتعرف إليّ وتضمني إلى صدرها، وبقي الأمر البسيط والصعب في آنٍ: هل حضرت فقط كي تتعزز الثقة بي؟

(٤)

خدعتني وتمارضت، وسوف تخدعني أكثر في حال غابت من دون أن تسمع شائعة حضوري. لم أحضر من أجلها فقط، وإنما من أجلي أنا أيضاً. لم يكن بوسعي أن أمنع نفسي من المجيء، من أجل ليون والطفل الجديد الذي ننتظره وما سوف نتلقاه من أسئلة عن... وعن. لا تزال وجد تمسك برسغي والعتمة تزداد في عيني. أحسست بأنني سوف يُغمى عليّ إن بقيت لحظة أخرى أمام صفوف العيون هذه التي تراقبني:

«نعم...»

لم تحوّل وجد نظرها عني وأنا أكرر بصوت يزداد ارتفاعاً:

«نعم، نعم يا وجد... ماذا هناك؟»

ساد الصمت برهة وأنا أتمتم:

«نعم يا دكتورة، أنا الابن القبيح، والقاسي، والأناني، وغير المطيع. علينا الآن أن نتبادل الأدوار، أمامك وأمامهن جميعاً... ها؟»

واصلت وفي وسع صوتي أن يتعالى أكثر:

«نعم أنا، إنها كلمة ليست كباقي الكلمات، مثل هي أو هو، أو هم، أو حتى أنتن، لكن أنا، آه نعم هذا أمر بديهي لديكم جميعاً، أنتم الصديقات والأصدقاء».

حاولت أن توقفني بهدوئها، كانت تحاول أن تحميني من أمر لا أعرف كنهه:

«يا نادر، لا أنت ولا هي ولا نحن. لماذا تتحدث بهذه الطريقة عن نفسك وعن الآخرين؟ لماذا»؟

«بفضلها، زوجتي، بفضلي ربما، أنا ابنها، بفضل البلد، بفضل الوالد والأسر والحرب، بفضل الجنون والغباء».

وقفت فجأة، كنت أفضل لو كان بيدي مكبر صوت لكي يشقّ صوتي جميع الردهات:

«أريد أن أخرج من هنا، لا أريد أن أراك... هذا فظيع وفوق طاقتي».

وقفت وجد ومثلها فعل الجميع. اقترب حاتم مني بهدوء، أمسكني من ذراعي، دنا أكثر، تحسّس خدي ورأسي. كانت تفوح منه رائحة أبوّة خاصة. كان والداً. شعرت لثانية بأنه نوع جديد من الآباء. أب صالح، موجود وغير متوهّم. انتفض بين ذراعيه بالغاً أعلى درجات العجز. أنا مذهول وهو يواصل:

«أعرف يا نادر، أعرف».

دفنت رأسي في صدره، لم يحرجني صوت النشيج الذي كان يتعالى ولا يتوقف. لماذا أحبتني سهيلة بدرجتَي «لا» و«نعم»؟ مثل فلاح لا يزرع إلا لكي يقتلع، لماذا، لماذا؟

أخذني حاتم بعيداً عن الجميع، كان يمسك بيدي بدفء، تجيد أيدينا الحديث والتفاهم على أكمل وجه. بمقدوري أن أصغي إليه بشكلٍ أفضل وأنا ساكت وأن أعرف ماذا يريد من لمسة يده، بعدما قدّرت أنه، إذا ما تفوه بأي كلمة فسوف أسمعها أفضل منهن. شعرت بذلك وارتحت إليه. كانت حركات خطواته قوية وحازمة:

«هل تريد الجلوس بعيداً عنهن أم تفضل أن نذهب إلى أحد المقاهي القريبة»؟

«لم أعد أحتمل أي تأنيب يا أستاذ حاتم».

«أرجوك، نادني بحاتم فقط».

رفعت رأسي إليه، كان أطول مني بكثير. شاهدت وجهه في بقعة الضوء الآتية من النافذة الكبيرة في أول الممر. كان وسيماً وملامحه تقول إنه سيفهمني. لا أدري لمَ قدّرت أنه لن يُدينني أو يصدر حكماً جائراً ضدي. لن يرمي مسؤولية مرض سهيلة على عاتقي وحدي. تتركز نظراته في عينيه الملونتين، فلم أتبين إن كانتا عسليتين أم رماديتين؟ وبسبب هذا وغيره من المشاعر الكثيرة، لم يذكرني بأي من معارفي أو أصدقاء والدي. أي، هو عراقي، يشبه العراقيين، لكن لا يشبه أبي. تصورته شيخ قبيلة من جنوب العراق، يرتدي الزبون، والعباءة الصوفية تغطي جسمه الرياضي. حين رفعت رأسي أكثر كان على وشك أن يُسكت الجميع بحركة من يده الرشيقة. الجميع يصغي إليه كما أفعل أنا. شعرت بأنه رجل من الطبيعة، من الصحراء، ولد بين الرمال وله مرونة الرجال الصحراويين في المشي والحركة وتغيير المواضيع والأفعال. بدا لي شجاعاً، أشجع مني، ومن أمي، ومنهن جميعاً. سوف تصلني شجاعته وتجعلني قادراً على التماسك أمامه من دون أن أتذمر. يبتسم من خلال عينيه، يفهم ما أعني من دون أن أقول ذلك مباشرة. أبتسم للمرة الأولى وأنا أسمعه:

«تعال إلى المقهى المجاور نشرب قدحاً من البيرة المثلجة ونمتع عيوننا بالصبايا الجميلات. لا تقل إنك لا تحب هذه الأمور. يغريك التلصص على الفتيات، حتى لو كنت بجوار زوجتك، وكانت ملكة للجمال... ها»؟

توجهنا إلى الخارج، وصوت نرجس وراءنا:

«حاتم، لحظة من فضلك».

توقفنا واستدرنا بانتظارها في وقتٍ واحد. لأول مرة أشاهدها تتقدم نحونا. لأول مرة أراها بوضوح. كان جمالها يقطع الأنفاس ويجعلك تتسامح مع أشياء وأمور عديدة تثير التعاسة من حولك. سهيلة لم تفصّل كثيراً عنهما إلا ما كتبته في إحدى رسائلها: «إذا ما نشبت الحرب الثالثة فسوف يكون هذان الصديقان الملجأ والملاذ».

يحيطان بي كل من جهة. شيء من الحنان والدفء ينبعث منهما ويجعلني هادئاً:

«حاتم، إذا كان لا بد من أن تذهبا إلى أحد المقاهي، فلماذا لا نأخذه إلى البيت؟ نتعشى ونتحدث وأعيده أنا ليلاً إلى شقته. وإذا شاء فلينم الليلة عندنا»؟

تتحدث بحذر وتأثر، بلهجة لبنانية مطعّمة بعراقية محببة. حضرت ليال في عيني الآن، وأنا أصغي إلى نرجس. أنظر في وجهها، وجمالها يحرجني أكثر من الأول. كانت تبدو راضية، مسرورة بشيء ما، بزوجها، بنفسها، بصداقتها لسهيلة. يبدد سرورها غضبي الذي لازمني. كانا ينتظران جوابي:

«اليوم غير ممكن، ربما غداً، أو بعده. أريد البقاء وحدي اليوم، شكراً».

ابتسما في وجهي، أعجبتني كثيراً صورتهما كعاشقين، وهما يتحركان ويتحادثان بتلك الطريقة الهادئة جداً، فشعرت بسرورهما يسري فيّ. إنهما لا يشبهاننا، سونيا وأنا. هل السرور ممنوع في المستشفيات، ما إن ندخل الردهات الغامضة حتى تصدر الأوامر، لا أدري من أين، بالمرارة والحزن؟

[١٠]

حضرت بلانش ووجد وأسماء في تلك اللحظة. كانت كارولين آخرهن تجر قدميها بعيداً عنهن. تحلّقن حولنا في دائرة تامة. تصورتهن جنديات متأهبات بكامل العدة، قادرات على قهر العدو: مرض سهيلة وعجزي أمامه. ارتفعت معنوياتي وأنا أتطلع إليهن. شعرت بأن بمقدورهن الدفاع عني أيضاً، والدفاع عن الحياة نفسها. بدت كل واحدة منهن وكأنها قطعت على نفسها وعداً بالدفاع عن الحياة، من دون علم الباقيات؛ كيف تبتكر هؤلاء النسوة من خيالهن ما يقدرن عليه كي يضمنّ نهوض سهيلة ثانية من أي مكان، في أي يوم وأي لحظة، ومع أي واحدة منهن. بدت الحياة بجواري قوية، كل واحد منا يريد الإقبال عليها بطريقته الخاصة. أنصت إلى الضحكات الخفية الصادرة عنهن بطريقة لطيفة فتمنحني بعض السلام.

أعلن حاتم أمام الجميع:

«غداً العشاء عندنا».

مد رأسه قليلاً خارج الدائرة، وأضاف بصوت دافئ مخاطباً كارولين بإنكليزية ذات لكنة عراقية:

«يا آنسة كارولين، غداً سنأكل طعاماً عراقياً وأنا من سيطبخ. حتى لو تحدثنا بالعربية، لكن الجميع يتكلم الفرنسية والإنكليزية كذلك. لا تقلقي رجاءً، أرجوك أن تحضري من أجل سهيلة ونادر».

كانت واقفة تومئ رأسها بحركة القبول. اقتربت مني، مدت يدها وتصافحنا. بدت مترددة بين الذهاب والبقاء:

«وضعت في الثلاجة بعض الخضار والفاكهة والحليب والبيض والخبز. الشقة نظيفة لكن الفوضى تعمّها. لم أقدر على مس شيء من الأوراق والكتب والصحف. بقيت على حالها كما تركتها سهيلة. قد يكون هذا مؤلماً، لكن لم... إذا شعرت بأنك في حاجة إلى أي شيء، فاتصل بي حتى لو كان الوقت متأخراً».

تدخلت بلانش قبل أن تمد يدها:

«إذاً، بعد غد العشاء أو الغداء عندي، ها، ماذا تفضل يا نادر»؟

«شكراً يا بلانش، ينبغي البقاء هنا حتى لو لم تشعر هي بذلك. سنلتقي كثيراً من الآن فصاعداً. أنا من سيداوم هنا بدلاً منكنّ».

اغرورقت عيناي ثانية لكني تماسكت. ربّت حاتم على كتفي:

«ليس بمقدوري أن أقول شكراً، لكني فعلت ذلك كل لحظة. في كندا، وأنا في الطائرة، وأنا بينكم. لا أعرف. نعم، صدقوني، لا أعرف...»

ألتفت إلى الدكتورة وجد كأنني شخص آخر:

«معذرة، يبدو أنني لم أتمكن من التغلب على مشاعري. خمس ساعات من الطيران، سبع ساعات فارق التوقيت، ليلة سابقة لم أنم فيها أبداً، وهي، حين شاهدتها، كأنها اتفقت مع نفسها على أن تكون ضدي. أنتم أيضاً، شعرت بكم كلكم ضدي. كنت أنتظر حدوث أمر ما، ليس معجزة ولا ضربة حظ ولا أعرف تسميته، ربما هو شيء عبثي، كأن ترفع يدها وتضربني حالما أمسّها. الآن يا دكتورة، أعود وأكرر سؤالي وهاجسي: هل ستتحسن، هل هناك أي أمل»؟

اقتربت وجد مني، بدأت الكلام بجرعة الأطباء:

«حسناً يا نادر. للحالة وجهان. يؤسفني أن أخبرك بعد اليوم الرابع، أنها في غيبوبة بدرجة متوسطة، هذا فأل لا بأس به، لكن كم سيطول؟ صدقاً لا نعلم. الاحتمال الأغلب أنها ستقوم، وتتحرك. ومن الجائز أنها ستستعيد وعيها لكن بخسارة كبيرة. لا يمكننا تحديد حجم الخسائر في الوقت الحاضر إلى أن تستعيد وعيها بصورة تامة، وهذا يستغرق بعض الوقت».

شفتاي ترتجفان:

«لكن ما هي الاحتمالات يا دكتورة»؟

«شلل في الأطراف، وهو احتمال ليس مؤكداً. لن تعود حياتها كالسابق. تحتاج إلى رعاية مكثفة ولصيقة ودائمة، وعلاجات طويلة، وتمارين طبيعية ستُجرى لها تباعاً لأنها متوفرة. هذا الأمر لا يقلقني قط».

«و...»

«تحتاج إلى العلاج التأهيلي لكي تستعيد الوظائف الاعتيادية التي فقدتها. يتطلب ذلك شهوراً في أغلب الأحيان وربما أكثر».

سألتها متوسلاً:

«وهل ستعرفني»؟

أطلق الجميع همسات لطيفة، ما بين الاستحسان والتأفف من طريقة إلحاحي. ردّت وجد:

«نعم ولا».

كما هي دائماً: لا ونعم، هل يعقل هذا؟

«كيف يا دكتورة، سامحيني على هذا الإلحاح»؟

«أغلب الظن أنها ستستعيد وعيها لكن قد يستغرق ذلك بعض الوقت. ستتمكن من التعرف إليك وإلى الجميع، لكن قد تخطئ في

البداية، وهذا الأمر سيكون الأصعب عليك، وعلينا جميعاً، وعليها بالدرجة الأولى. ما أخشاه يا نادر، أقول هذا للأمانة، أنها قد تكون غير راغبةً في الشفاء».

صُعقت. بلعت ريقي من جوابها لكني واصلت:

«والاحتمال الثاني»؟

«الاحتمال الأكبر أن تتعرف إليك وإلى الآخرين، ربما بسهولة، كأن تستعيد وعيها ثم يعود ويتشوش فتغيب ثانية عنا».

«لكن كيف استنتجت أنها قد تكون غير راغبة في الشفاء؟ هل بمقدور مريض في حالتها أن يتخذ قراراً كهذا»؟

ابتسم الجميع، لكن على مضض. لم أفهم سر هذه البسمات:

«الحب يا نادر، لن أضيف حتى لا تغضب مجدداً».

سمعتُ صوت كارولين ثانية، لم أنتبه إلا هذه اللحظة، إلى أنها لا تزال واقفة بعيداً عنا، كأنها فهمت جميع ما دار ويدور في ما بيننا. اقتربت، صارت قبالتي:

«لقد كتبت لك أنها تعاني النبذ لكنك لم ترد يا نادر. لا نريد أن نحمّلك فوق طاقتك، من الجائز أن الوقت لم يفت بعد».

تدخلت أسماء كالصاعقة تردّ معانقتي:

«ابني نادر، كل شيء مكتوب وهذا قدر سهيلة. سآخذك إلى الجامع عيني، صلّ هناك وادعُ لها، أكيد ماكو عندكم جامع بكندا. والله كل يوم أتوجه لفاطر السماوات يشيل هذه الغمة عنها وعن بلدنا. راح تشفى وهسه تشوف عيني. شنو هي غير راغبة بالشفاء دكتورة؟ أمك قوية، ستقوم وتقف. ستعود يا نادر، صدق برحمة الله، رحمته واسعة».

كان صوت بلانش هادئاً:

«تدري كل يوم قبل أن آتي إلى هنا، أذهب إلى الكنيسة في الحي

اللاتيني، أضيء شموعاً ملونة باسمها، أبرك على ركبتي، أرتّل لها الصلوات ولأهلنا هناك. وحين أحضر إلى هنا، أسمع أنباء أحسن من اليوم السابق. لا أتصور سهيلة تنتهي بهذه الطريقة. إنني أعرفها، كلنا يعرفها، لديها عزيمة لم تتزعزع يوماً. لا يا دكتورة وجد، ما هذه الفرضية؟ كيف توصلت إليها؟ لم يحدث لها أن يأست وقنطت من رحمة الله. كانت تقول، اليأس موجود دائماً، لكن ليس الآن. أليس كذلك يا حاتم»؟

التفتت بلانش إلى نرجس وبادرتها:

«حدّثي نادر عنها، لعل هذه الأمر ضروري الآن أكثر من السابق».

التفتت نرجس ناحيتي. شعرت بأن لديها مقدرة شديدة البساطة والقوة، في آن، في تخفيف الألم الشديد الذي سببته وجد. أعادني كلامها إلى صوابي الذي كدت أفقده:

«غداً يا نادر سوف نتحدث بطريقة أكثر تفصيلاً. من الخطأ الحديث عن جميع الأشياء في وقت واحد. لا تحمّل نفسك فوق طاقتها ولا تجعل روحك في موقع المتورط. لسهيلة قدرة على التحمل فوق ما تتصور أو نتصور. بمقدورها أن تجعل العلاج ممكناً والتأهيل سريعاً. البداية بالطبع ليست سهلة لكن بمقدورها النجاة. لن أتحدث عن هذا لكي تنام قرير العين، لكني أعرف سهيلة. إنها ببساطة لن تسمح لنفسها بأن تكون عاجزة».

ثم أكمل حاتم بصوت حازم:

«إنها مقاتلة يا نادر. هيا، خذ حقيبتك ودعنا نوصلك في طريقنا، فالوقت تأخر على تناول البيرة والتلصص على الفتيات الجميلات. كما أنها نائمة».

«شكراً يا حاتم. أريد البقاء معها وحدي».

[١١]

(١)

أحمل الحقيبتين وأتوجه إلى غرفتها. لم أتحمل ألماً بهذه الشدة من قبل. ألم قديم، مسحوب من الطفولة الأولى، من الأشبار القليلة من الأرض التي أقف فوقها. ألم أجرّه وراثي فلا يتخلف عني. وأقف أمامها بعد أن ذهب الجميع. وحدي معها. كانت الممرضات لطيفات بالإشارات والابتسامات. أحضرن إليّ عشاءً خفيفاً، عشاءها على الأغلب، لكني لم أنظر إليه. أمعائي خاوية لكني لم أكن جائعاً. بعد أن يئسن مني، دخلن في أحاديث جانبية؛ عن كلب دانييل المريض، وقطة شارلوت الوقحة التي جعلت عشيقها تيري يفرّ من الوبر الكثير الذي كان يراه في الصحون والشراشف. أما رجل الثالثة، التي لم أعد أتذكر اسمها، فقد هجرها وهرب مع أقرب صديقاتها. يتنبّهن إلى وجودي ثم يعرضن عني. يدخلن إليها من حين إلى آخر، يقمن بواجبهن على أكمل وجه، يلتفتن إليّ ثانية وعلى وجوههن علامات الشفقة حيالي، أنا، الذي لا يعرف لماذا بكى كثيراً أمامهن جميعاً.

كانت سهيلة تقول دائماً:

«لو بكى والدك مرة واحدة، واحدة فقط، لتعافى، لتمتع بالباقي من أيامه بشكل أفضل، إنه صخرة».

كانت تبكي بدلاً منه، وتضيف:

«لا أدري إن كان يستحق أن أكون بديلةً عنه في هذا أو ذلك. من يستطيع أن يكون بديلاً عن الآخر»؟

تلتفت إلى اليمين والشمال ونحن في المطبخ نعدّ الطعام معاً:

«أتصور أننا تزوجنا لكي نسجل عرضاً مسرحياً أمام مسرح أبي الذي كانت عروضه تتناقص يوماً بعد يوم بسبب الرقابة. إننا مختلفان يا نادر، وهو شيء مفيد إذا لم يدمر أحدنا الآخر. كنا نختلف على الأمور البسيطة والمعقدة، ثم يتصور أن الأمر لا قيمة له. عنده من العنجهية ما يجعله يتصور نفسه أفضل البشر. الغرور آفة تأكل صاحبها. فجأة لا يعود يرانا، لكنه هو موجود يراقبنا، فيبدأ بتعذيب نفسه. مسكين والدك يا نادر».

قالت شارلوت بلطف:

«لماذا لا تذهب وتتجول قليلاً في باريس؟ هل هذه هي زيارتك الأولى مسيو»؟

تحسّن مزاجي قليلاً. إنها لا تزال حية. هززت رأسي، فتابعت شارلوت:

«إنها نائمة. اذهب ولا تقلق، الحالة مستقرة، هذا هو اليوم الرابع وما دامت تقاوم فإنها ستنجو، ربما من أجلك».

ضحكَتْ مثل الأطفال فابتسمت في وجهها، وبدأت سلسلة من الابتسامات في ما بيننا. كنت أريد أن أسند رأسي إليها، أقبّلها، أكلمها لوحدنا، كالسابق، وأتمدد بجوارها من دون أن آخذ الحب منها عنوة. كنت أكذب من أجلها لكي لا تهتز صورتي في عينيها، فأعود ابناً لطيفاً ومهماً، لكنها تكشفني. هي أفضل من يشكّك فيّ فأكره ما أشعر به من سخافة أمامها. أحاول، وقد حاولت دائماً أن أخبئ خبثي عنها، لكنها

كانت تتصرف في منتهى اللطف والحنان. تضمني بين ذراعيها كالطفل فأتضايق أكثر، أغضب وأتصور أنها لم تعد بحاجة إليّ، وأن ما أخطط له كان يدعها تبتسم في وجهي. وها هي أمامي، أشاهدها وأشكرها، إنها موجودة الآن أكثر من أي وقت مضى، بل أهدأ من أي زمن فات. لا ضمانات معها إلا عندما تكون هكذا، معلّقةً بين دموعي وخوفي. كنت متأكداً منها إلى هذه الدرجة، وكأننا، لا يصلح أحدنا للآخر إلا بما يفصل أحدنا عنه.

(٢)

يداها مسترخيتان والسائل يضغ. خجلت من أن أسال بلانش أو وجد عن طريقة التبول. أنظر، أدور ولا أستوعب أي شيء. فكل شيء واقعي ومتماسك، لكنه مجهول بالنسبة إليّ. كأنها انتصرت عليّ بالمرض فقط، بالوعد الذي قطعته أمامي يوماً:

«أنا المحظوظة بك يا نادر، وأنت لا. أضعك قبلي، قبل الجميع وأنت تتعجّل. أنت على عجلة. صرت صخرة مثله. أنت الثريا؛ أرسل إليك الإشارات علّك تفهم وتستجيب، لكن بلا فائدة».

أستجيب وهي لا، أكتب إليها الرسائل كل ليلة وأقول لها: صرتِ لغزاً يا أمي، وأنا لا أحب الألغاز. لم تساعديني لا من قبل ولا الآن. كان حبها لي جملة في نظرية غير مفهومة، سطراً في كتاب قديم، لهجة محلية تريدني أن أسعى خلفها كأنني بهلوان، لا يهم إن انكسر عنقه ما دام وصل كما تريد إلى آخر الحبل. لكني لم أكن أرسل إليها جميع الرسائل. أكتبها وأضعها في ملفات وأقول، يوماً ما سوف تعثر عليها، وتكتشفها وحدها، فأحضرتها معي إلى باريس. كانت أمومتها هي أقل ما تفعله الأمهات. لكن، ماذا أفعل بهذا الندم، إنه أكبر من مقاسي. كان عليّ أن أحدثك عن الثلوج والرياح في كندا، كيف نخزّن

جميع أنواع الزمهرير في أجسامنا لكي لا تخمد الشمس العراقية، تلك، التي أكلت اللحم والقلب. لم أحب سخونة بغداد ولا ثلوج كندا، لكن كان الله هناك، قريباً مني، وأنا أحب الله. أراه في عيون الجيران وصديقاتك، فريال وبشرى، وأزهار وتماضر، وفي عينيك وعيني الفلاح. أما هنا، فالآلهة مثلجة ولا أعتقد أنها ستذوب في أحد الأيام. أنتِ لا تصغين إليّ، تُصغين إلى أغاني الشجن العراقية، وتبذلين نوبات بكائك بصوت غير واضح، لكني أسمعه:

«في هذه الأغاني أطقطق عظام صدري ورقبتي وعمودي الفقري. ستخسر يا نادر لأنك لم تحاول حتى الإصغاء إليها. غريب وأنا أراك تهز رأسك مع أغنياتك، أي لطيفة تمام، وأنا أحب سماعها معك فلمَ لا تتنازل قليلاً من أجلك أنت بالدرجة الأولى؟ أرجو ألا تراقبني بهذه الطريقة، كأنني قردة في غابة وأنت بالكاد طرزان».

كانت العاشرة ليلاً وأنا لا أزال أنظر إليها. خفت أن أقول للمرة الأخيرة، فرددت في سري، للمرة الأخيرة في هذا اليوم، في هذه الليلة. جسمها ممدّد أمامي. لم يعد بمقدورها التمويه عليالسنين، كأن ترسم وجوهاً جديدة بالماكياج الثقيل الذي تضعه على وجهها عندما تقف على خشبة المسرح. لم تقل يوماً إن جسمها دخل سن التقاعد. كانت تحبه وتُبعد عنه كلّ ما يُمرضه، فتضعه في إطار جميل وتردد:

«انظر يا نادر، إن جسمي يضحك وأنا أستعد للدور. ترى متى تحبنا أجسامنا كما كان بمقدورنا أن نحبها؟ متى تعيد إلينا الديون التي سبق وجمعناها لها في السنين الماضية؟ كان جسمي خادمي المطيع وأنا أقفز عالياً في المسارح العربية، يقول لي «نعم» وأعرف على الفور أنه لا يسخر مني. يغضب قليلاً إذا أتعبته بالتدريبات لكنه ينساق إليّ طوعاً. يخيفني جسدي النحيل وأنا أشقّ طريقي. يرقص، يمثّل ولا يستقر في موضع. أشعل له النيران من جميع النصوص والمسرحيات

التي ألعبها ويخرجها والدي، فيدو المسرح ألذّ من الحياة ذاتها».

كانت عيناها تلاحقان خطوي، كأنها تريد أن تسرّح يدها في شعري الذي تلبّد من العرق وتمسّده. خفت وأنا أتبعها بعينيّ: كيف ستعرف إليّ، كيف؟

جاءني صوت شارلوت:

«هل أنت ذاهب مسيو»؟

كنت أريد أن أقول للمرضة إنها تتحرك، تحركت وكان هذا الأمر فوق طاقتي. بقيت في مكاني أراقبها، ولا أرفع عيني عنها. هتفت بلا دموع باسمها ونظراتي تحيط بها:

«لا تستعجل مسيو، لا تحضر مبكراً غداً صباحاً، فكل شيء على ما يرام. خذ وقتك، إنها نائمة».

ما عساي أفعل وهي تحضر وتغيب. روائح الأدوية، الورد، النفَس، العرق، طيات الستارة، الضوء الخفيف في أعلى السقف، وأنا واقف أمدّ رأسي بين هنا وهناك. يحضر وجه ليون وسونيا بطريقة مختلفة، فلا أدري في نهاية الأمر، من أطيع ومن أقاوم. بقيت كارولين تنقل إليّ ريبة سهيلة قائلة:

«أمك تخاف الكسر فترتد إلى هناك، إلى البلد، حتى لو كان الارتجاج مصيرها أو الصمم أو الشلل والهدم. تسمي باريس: وقت النقاهة من اليرقان العراقي. تُرى، هل كانت بغداد قريبة وفي متناول يدها إلى هذا الحد؟ كان الرقص كالغريزة في جسمها. أتصور يا نادر أن الرقص هو حارسها لكي تبقى عراقية، لكي يبقى انتقامها كاملاً وغير منقوص، حتى لو جعلها تُصاب بجنون العظمة. كنت حين أقول لها هذا تنفجر بالسخرية:

«أي عظمة يا كارولين، حددي كلامك أرجوك. الجوع هو الذي

يجعلك الأكثر جبناً ومهانة. تقفين في المؤخرة وتنتظرين بركات وجبات بلدية باريس. في أحد الأيام وأنا واقفة هناك، مرّ سعد من أمامي وشاهدني. كان أحد تلاميذ والدي المسرحي المعروف. أسند إليه يوماً ما دوراً مناسباً فقام به على أكمل وجه. صفّقنا له طويلاً من على مقاعد المتفرجين. حضرنا من وراء الكواليس لنقف بجواره مهنئين. في تلك الليلة، ولد سعد. عندما شاهدني تراجع قليلاً إلى الخلف، لكن بعد ثوانٍ تقدم مني وهو في غاية الإحراج. كنت أقف بالدور كما تقتضي القوانين، لا أتصارع مع حشود المتقاعدين المسنين ولا أموت من الخجل والقهر. حتى الغضب لم يبد عليّ في تلك الساعة. حين تصل المهانة إلى الحالة القصوى، لا تفكرين بالثمن الباهظ الذي عليك دفعه. تنسين قوانين البشر وتفكرين بالحيوانات. في تلك الساعة كنت أنا، وبوسعي أن أتابع عملي على أفضل صورة، فلم أهتم بمن سيقع بصره عليّ، حتى لو كان سعد مثلاً. إنني أعرف هؤلاء الناس، تقابلنا لشهور طويلة في هذه البناية. وقف سعد بجواري من دون أن يحدّثني قط. اختار لي أفضل ما كان موجوداً في الثلاجة الزجاجية التي تواجهنا: قطعة سمك باردة، علبة صغيرة من الخس والطماطم، خبزاً وبسكويتاً. والحلوى، تذكرت أمي وأنا في ذلك الوضع، كانت لديها أسماء غاية في الطرافة: بيض الملوك، كفوف العروس، قرون السادة. لطالما كانت تثير إعجابي فتجعلني أستعيد مرحي وهي تصفق لي قائلة:

«عجايب، ماذا حصل لك، كله شوية طحين وسكر، بيض وزبيب وزبدة مال بيوت. ماذا جرى لك؟ امسحي عرقك وأنت تأكلين مثل الوحش. الله يعطيك القوة والعافية».

الحلوى في وجبة البلدية، تشبه حذائي العتيق، جلدة عليها بثور، فوقها فراغات ولونها قهوائي غامق. قلت في سري، ما الضير، سآخذها. عيب البطر، ستنفع في أوقات الشدة على الأقل. سأشعر

وأنا أفتح الثلاجة بالأمن الغذائي. سوف أؤكد لنفسي أولاً، أنني أكلت الزاد كله. بعد الحلوى، ينبغي تذوق النسكافيه. كيس صغير وآخر من السكر أثناء السفر في الطائرات. ضرورة الحذاقة لكي تكتمل الوجبة. وضع كل شيء في كيس بلاستيكي زهيد وشفاف جداً عليه طبعة بلدية الدائرة الخامسة عشرة. طعام البلدية يُهضم بسرعة، أطال الله عمره. سيعود صوت أمي ليقول لي وأنا أتجشأ: «عفارم سهيلة أكلت كل شيء. عوافي».

سرنا معاً في الطريق إلى شقتي من دون أن نتفوة بكلمة. حين وصلنا الباب الرئيسي أشرت عليه بالدخول، بقي محتاراً أكثر مني. وقف قبالتي، أخذ رأسي، قرّبه من فمه وباسني على جبيني. رفع يدي بحركة لا تُنسى وقبّلها أيضاً. بكيت وقتها كأشد ما يكون البكاء، فقد كانت أحوال سعد أسوأ من أحوالي. كارولين، هل وقفت يوماً بانتظار أكياس بلدية باريس؟ إنها وجبات، بقيت أتناولها طوال شهور طويلة، آكل وأشكر الله أن لفرنسا قوانين تُنصف الجياع والمساكين، المرضى وأبناء السبيل، وأنها لم تتخلّ عني. لقد كانت كريمة معي، مثلكم جميعاً».

(٣)

شعرت بالظمأ الشديد وأنا خارج من الباب الرئيسي. لا أدري لمَ فكرت بحاتم؟ بوجهه وعينيه وهو يودعني. أحسست بأنه لم يأخذ أدوية أو مسكنات في حياته. كنت أرغب في أن نكون أصدقاء. نأكل، ونتمازح فلا يسألني عن أي شيء، ولا عن أسراري أو حياتي. يدعني أسرد ما أريد، وأصمت حين أشاء، فيقول لي: ها، هل تريد قدحاً آخر من البيرة؟ لكن ما إن أبدا بالكلام حتى أنسى نفسي، فأشعر بأن قلبه ينفطر من أجلي.

كانت الشقة تبعد مسافة قليلة عن المستشفى. حضر خالي ضياء من ألمانيا حين اشتدت الأمور على سهيلة، بعدما تنقلت بصورة خفية بين السكن الجامعي، واستديو الممثلين المجاور لمسرح الشمس الذي وفّرته لها الكاتبة المسرحية تيسا هايدن لفترة محددة. كان يتزاحم عليه الممثلون القادمون من جميع أنحاء العالم للقيام بأدوارهم المختلفة طوال فترة التدريبات، وأثناء العروض التي تستمر شهوراً طويلة. كانت سهيلة تحوّل معظم ما يرسله خالي إلى عمادة جامعتي، وحسابي الخاص. أحياناً لا تدفع الفواتير، فيقطع الهاتف. في إحدى السنين، قُطعت الكهرباء بعدما ظلت تهمل الرد على رسائل الشركة، ولأن الفصل كان شتاء، بقيت التدفئة تعمل حتى حلول الربيع. لم تكتب إلى خالي لكي لا تتوتر الأوضاع بينه وبين زوجته الفرنسية التي لم تستلطف أمي أبداً.

إلاّ أن كن أخبر خالي بطريقته الخاصة فحضر إلى باريس.

لم تسألني كارولين عن خالي، ولم تكرر دعوتها إليّ. كان شكلها لا يشبه ماريان، زوجة خالي الصامتة والغامضة. لم نستلطفها لا أنا ولا سهيلة. كانت كارولين صامتة طوال الوقت، بعيدة وفي نظراتها عذاب شديد. تقف قليلاً، تتمشى، ثم تجلس، كأنها قررت ألاّ تلفت الانتباه. وأن تكون حاضرة فقط، وألا تحتكّ بالآخرين مباشرة.

شارع كونفنسيون طويل جداً. هنا وقعت سهيلة وهي في طريقها إلى البريد. تك، تك، ولم يلحظها أحد. كان هذا في البداية. تواصل كارولين في رسالتها الأولى:

«الحرارة شديدة في تلك الظهيرة». من الجائز أنها وقعت هنا وهي تقطع الشارع، أمام مبنى البريد الذي أقف أمامه مباشرةً. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. تكمل كارولين:

«كأن المرء شاهد هذا الحدث في فيلم قديم بالأسود والأبيض.

أمرأة خمسينية صغيرة الحجم، نحيلة وقصيرة، ترتدي سروالاً عريضاً وبلوزة قطنية خفيفة بأكمام قصيرة، وتحمل حقيبة كبيرة وضعت داخلها محفظة صغيرة تحتوي على بطاقة الإقامة الفرنسية، ودفتر للشيكات، وآخر صغير، عتيق ومجعد من دمغة الأصابع، يحتوي على عناوين وأرقام هواتف أصحابها. لا زالت أمك يا نادر تكتب الأرقام العربية بالأجنبية، وتردد دائماً: «هذه أرقامنا نحن، لا بأس، أخذتم كل شيء وتركتم لنا الأصفار. هل تدرين يا عزيزتي كارولين، أن الصفر رقم مطلق إذا ما اختلط بالجموع سترتفع جلبة تصل إلى عنان السماء. سيصبح علامة الحقد وسوء التفاهم». كانت الأرقام مكتوبة بخط ناعم ولا تحتاج إلى عناية لفكه. لكن الأسماء يا نادر، كُتبت معظمها بالعربية، لذلك اختلط كل شيء وتداخل. عرفوا من هي بالطبع، لكن كيف سيتم الاتصال بمعارفها وأصحابها؟ على الجانب الآخر من الشارع كانت القصة تُروى ثانية وثالثة. ثلاثة شبان من السود هم الذين تولّوا أمرها. هل خطر ببالك يوماً حدث كهذا يبعث على الألم والعذاب؟ جسمها، وأنا أتصوره في تلك الوضعية، كان شديد الغموض والغرابة. أرجوك أن تصدّق حدسها، أن تثق بما أرويه لك. أخبرتني يوماً بطريقة ضاحكة لكنها حاسمة، كأنها تروي حكاية عادية عن امرأة أخرى: ماذا لو تم الأمر على تلك الصورة؟ هل يصعب تخيل ذلك يا كارولين. أرجوك صدقي، لكن لا تهوّلي الأمر على نادر. هذا ما بقيت تكرره وتستعيده دائماً وهي تشاهد أحداثاً، وبشراً، ووجوهاً ومدناً. تغطي عينيها بيدها كأنها تحاول التخلص من ذنب لا يُغتفر يؤذيها. تقول: إنني أعرفهم، كلهم وعلى أفضل صورة، ذلك هو الشيء الوحيد الذي لا أقدر على تحاشي رؤيته. نُقلت إلى قسم الطوارئ بكامل حاجياتها. كيف علمنا يا نادر؟ عليك أن تضحك وسط كل هذه الفوضى لو كنت حضرت إلى باريس. أرجوك يا نادر أن تحضر، لعلها المرة الأخيرة التي تعود فيها إليها، وتراك وتتحدث

معها. لا يزال صوتها يعذبني كلما أسمعه: الثريا، تسميك هكذا وتخبرني: ألا ترين هذه الثريا في صالون شقتك، إنه أجمل من هذا الكريستال الزهري اللون. لا تبحلقي بعينيك المشككتين هكذا، إنني أتحدث عن علّتي ومرضي، عن نجمي وشمسي، عن محبوبي الأبدي. اسمعي، إذا مت فلا تنقلي إليه جميع هذه الأقوال، سوف يقول، ما هي إلا مجرد خزعبلات وعبط. والدة تناسب أبناءَ غيري. كيف ذلك يا سهيلة؟ ترد ووجهها يلتهب: إنه لا يفهم التكيف مع الحب، حبي. إنني لا أتحدث عن البنوة والأمومة، إنني أتحدث عن الصعوبة والإجحاف، عن ثمار الأبناء المُرة في الحلق. إنجاب ولد إلى هذا العالم، ولد يصيبك في مقتل، يرفضك، لكنك أنت تصيرين الاستثناء به. وليد من دون أمل، تدعينه لغيرك، لهم، كلهم إلا أنت. تدعينه بسلام، أو بحرب، بشجار وضرب السيوف، وتحبينه بإسهاب، بإسفاف وبدون نهاية، تناديه بكل النداءات، بكل القادم والذاهب، بالتعاقب والتسابق، بالعصي والسياط، بسوء الحظ كجهنم، وحسن الحظ كي يمسخك إلى مجرد بطن ورحم وثدي، ومخاط، وعرق، وحليب وخراء يتدفق، فألتذ به حدَّ الشبع. إنه ابن مقنّع، على العكس مني، ما عليه سوى الإيقاع بي لكي يكسر مكانتي في آخر المطاف. لا دور لي يا كارولين إلا العطب. يفهم لكنه ينكر. أي هو ذكي وجميل، على الأقل في عيني العجولتين. إنني لا أحب الكنوز الثمينة، وبالتأكيد هو لا يعادل ثروة بمقدوري حيازتها. إنه اكتمال الحرمان الذي لا أستطيع إضافة أي شيء وراء لفظته تلك».

* * * *

الحالة تتفاقم، أخبرتني كارولين أن الأطباء والممرضين يحاولون الاتصال بالأرقام، بدءاً من الحرف الأبجدي الأول، إذا لم يرد ذهبوا للثاني والثالث وهكذا. لم يتعرّف أحد إلى السيدة سهيلة أحمد. يتم

الشرح والتفصيل، المنظر، السرير والحالة المستعجلة، لكن لم يحصل أي شيء إيجابي. هل تدري ما هي المشكلة يا نادر؟ لم تكتب أمك الأرقام التي تحفظها عن ظهر قلب، أرقام جميع أصدقائها المقربين جداً عليها. كانت تسجل البعيدين، والأبعد فقط. المحامون، أطباء الأسنان والعيون والجلد والغدد والعظام، عمال الغاز والتدفئة والحنفيات والكهرباء، المطار والإسعاف، الفنادق، المطارات، الضمان الصحي والمصلحة الاجتماعية. أرقام لندن وموسكو، بغداد، عمان والقاهرة والدمام ودمشق وبيروت وكندا... جرى الاتصال بأحدهم، فرد صوت رجل، تردد قليلاً: يتذكر هذا الاسم، التقى بها في إحدى الندوات من أجل العراق... لكنه لم يضف أي شيء. وحين اشتد الإلحاح أجاب: صحيح، يعرف إحدى السيدات، من الجائز أنهما صديقتان، فقد حضرتا معاً. متى كان ذلك مسيو؟ منذ عام. والاسم، اسم تلك السيدة؟ ربما أسماء على ما يذكر، تعمل محاسبة في إحدى الشركات الخاصة. كان ذلك رأس الخيط، بعدها، خرجنا من بيوتنا وتوافدنا إلى المستشفى. بقيت في الليلة الأولى بجوارها أراقبها وأشتمك يا نادر. سامحني، فقد شتمتك ووالدك. شتمتكما وأنا أراها تحتضر، أكذّب عيني ولا أرفعهما عنها. أول صديقة وصلت لم يسبق أن تعرفت إليها، سارة. قالت لي سهيلة يوماً، سارة رسامة تتنفس الألوان بدلاً من الهواء. غامضة، غريبة جداً تلك الإنسانة. أثارت استغرابي وفضولي بهيئتها وسحنتها وشكلها. كانت جذابة مثل لوحة داكنة. نادر، هل تعرف سارة؟ حين شاهدتها عن قرب أكثر اكتشفت أنني أرى شكلاً للموت، تحاول أن ترسمه أمامنا. سلوكها العام لا يصدّق، كانت شبه مخدّرة أو سكرانة. لم تكن لجوجة وهي تنظر إليها ولا خائفة مثلي. شعرت بأنها متأخرة. صحيح أنها تأخرت، لكن ليس هذا بالأمر المهم، فهي لم تسرع أيضاً. تنزّ عرقاً لا يصدق، أخرجت منشفة حقيقية من حقيبتها وبدأت تجفف جبينها

وخديها وما وراء رقبتها. كانت تمتلك ثقة بنجاة سهيلة لن أنساه ما حييت. هي لم تقل ذلك فعلاً، لكن سلوكها أوحى بذلك وهي تراها ممددة أمامها. الأطباء يذهبون ويعودون والمسافة بيننا لا تتقلّص. صامتة كانت تماماً فخفت منها، تراجعتُ إلى الخلف، لكنها سرعان ما اقتربت مني، ودمدمت من دون أن تنظر إليّ، كأنها تخاطب سهيلة وجهاً لوجه: «معرفة الموت ثمنها الحياة». قالت ذلك بفرنسية صافية ثم أضافت وهي تجفف وجهها: «عندما أموت لن أرى نفسي تموت للمرة الأولى». فجأة رفعت رأسها إليّ، كانت شديدة الصدق: «لا أريد أن أعرف ماذا حدث، لكن صدقيني، سوف تفيق. أقسم بأنها سوف تستعيد وعيها. أتفهمين. نومتها هذه مزعجة لكنها مجرد حلم يقظة. سامحيني، إنني لا أقوى على البقاء هنا، إنني أسوأ حالاً منها وهي تعرف ذلك. أنت كارولين ها، شكراً لأنك واقفة بدلاً منا جميعاً، إنني لا أستطيع، لا...» نادر من هي سارة؟ تعال، دع كل شيء، الخصومات، والمغالطات، والسخافات. يا إلهي ماذا أكتب إليك؟ هل من حقي أن أقول لك كل هذا؟ أنا التي لا تقوى على السهر حتى العاشرة ليلاً، وتستيقظ عند السادسة صباحاً، وأمارس اليوغا فترة ساعة كاملة، وأشعل البخور في زوايا الشقة وأبدأ في ما بعد بما يسعد عيني وعقلي: الكومبيوتر الذي تبغضه سهيلة كالعمى. تلك قصة مضحكة جداً سترويها لك. أنا واثقة من ذلك. نادر، اكتشفت للتو أنك مخلوق كنت تحيا في ما بيننا كلنا، على الخصوص هي وأنا. أعرفك وأستطيع أن أقاومك لو بدأت اللغو ضدها. المهم أن تحضر قبل فوات الأوان، أرجوك»!

[١٣]

(١)

وقفتُ أمام عمارتنا. كانت شبه خالية. طوابق كثيرة أوصدت نوافذها بإحكام. كان الطابق الأخير فقط مضاءً. آه، هي شقة السيدة أنجليك. ذهب الجميع في إجازة. يثن جسمي وأنا ألمس القضبان الحديدية لنافذة الغرفة الأمامية من الخارج. كانت غرفتي في أحد الأيام. الحي ليس شعبياً ولا راقياً، هو بين بين. في جوارنا فندق صغير يقول صاحبه إنه فندق، وتردّ أمي: لا تصدقه، هو مجرد نزل ولا تطيب حتى الإقامة به. قرر مالكه ذات يوم استئجار الشقة المقابلة لنا في الطابق الأرضي وضمها إلى النزل، فبدأ الزبائن يتوافدون ليلاً نهاراً: ألمان، أتراك، إنكليز وأميركيون. تحول مدخل العمارة إلى ما يشبه الملعب الرياضي. بدأت سهيلة تقلق وتتعب من الضجيج. أبواب تُفتَح وتوصَد، أصوات تعلو، كلاب تنبح، أحذية ذات كعوب مسننة تطرق، أقدام ثقيلة تضرب الأبواب وأصحابها سكرى. شعرت أمي بالخطر فكتبت إليّ يوماً تقول:

«نادر، أنفقت بعض المال الذي أرسله خالك، وضعت حديداً غليظاً على النافذة الأمامية، وتوليت طلاءه بنفسي باللون الأسود من أجل بعض الطمأنينة. أعرف أن النقود لا تشتري هذا الأمر، تقول ذلك

لنفسك يومياً كي يكون بمقدورك أن تنام وتواصل الرحلة. نادر، أتسمعني»؟

انتابتني رعشة لم يسبق أن شعرت بها وأنا أضغط على أرقام «الكود» الذي لم يكن موجوداً من قبل. كتبته كارولين إليّ في إحدى الرسائل. أرفع رأسي وأسحب الحقيبة، وضربت تحت تأثير الاضطراب على الهاتف الداخلي وانتظرت قليلاً؛ إنها في الداخل وسوف تجيب بعد قليل. على الجدار الأيسر صناديق البريد، اسمها مكتوب بحروف واضحة. فتحته بصورة تلقائية. كانت هناك ورقة من كارولين، خطُّها عصبي، تقول إنها أغلقت عداد الكهرباء ودفعت الفاتورة. فتحت الباب الثاني وأُغلق خلفي وحده. كان باب شقتنا أمامي مباشرة، شعرت بأن عرقي يتصبّب، يسيل وسط ظهري نازلاً حتى قدمي. أدرت المفتاح دورة واحدة فانفتح. كبست على زرّ بارز فغمر الضوء المدخل الصغير. أول ما واجهتني مرآة طويلة جداً ثُبتت على الجدار وشخص ما يتفرج عليّ. جعلني صوت الهاتف أنتفض. كان يرنّ في غرفتها الصغيرة، فدخلتها على عجل. أضأت النور، نظرت حولي بعجلة والرنين يتواصل. السرير مسوّىً على غير طريقتها ومنامتها المنزلية فوق الوسادة:

«آلو...»

«ها، هل كل شيء على ما يرام؟ أرجوك ألا تسخر من ترتيب الأشياء، أنا كسولة وسهيلة تعرف ذلك. كيف تركتها»؟

«لا أعرف يا كارولين، شعرت لثانية بأنها بدأت تتحرك، ربما توهّمت، أو تشوش بصري من قلّة النوم. كنت أتمنى ذلك بكل تأكيد».

«ها...»

«شكراً جزيلاً. لقد، دخلت للتو، إلى الهاتف مباشرة».

«اتصلت زوجتك، كانت شديدة القلق لكني هدأت من روعها. نادر، هل أنت على ما يرام؟ كان يوماً طويلاً وقاسياً للغاية».

أسندت ذراعي إلى الطاولة الصغيرة الموضوعة بجوار السرير وجلست فوقه:

«أشكرك يا كارولين على كل ما قمت به، على كل شيء».

«وغداً...؟»

تحسست بيدي منامتها، سحبتها إلى الأمام ووضعتها على ركبتي:

«سأكون في المستشفى باكراً».

«وأنا أيضاً».

قالت ذلك بصوت خفيض، ثم أضافت:

«هل رأيت الشقة»؟

«كلا، ليس بعد».

«أتمنى لك ليلة هانئة، تصبح على خير».

«كارولين، لا يسعني إلاّ أن أشكرك. أشعر بأنني لن أستطيع أن أبادلك معروفك».

تلعثمت وأنا أشاهد ورقة من المحارم الورقية مطوية عدة طيات بين كم المنامة وصدرها. كررت شكري بضع مرات كما لو كنت أعتذر.

أعدت السماعة إلى مكانها. كان الهاتف موضوعاً على الأرض بالقرب من السرير. بجواره منضدة صغيرة فوقها ساعة على شكل مثلث، يستلقي في ظلها ضوء على شكل طائر غريب سوف يحلق بعيداً بعد قليل، ما إن ضغطت عليه حتى شاهدت أجزاءً من الطائر على شكل ذبذبات ضوئية، تتطاير في سقف الغرفة العالي: «هذه هدية نرجس يوم دخلتُ في معارك مع الإدارة الفرنسية، من أجل حصولي على المساعدة الاجتماعية، بعد ان أضاعوا ملفي ثلاث مرات. نادر،

هل سمعت بأم الهند، تلك الشخصية الأسطورية المعروفة بالسخاء والعون والنقاء؟ نرجس أكثر من ذلك. هي أمي برغم أنها تصغرني سناً». هكذا كتبت لي يوماً بعد اختفاء أخبار خالي ضياء عنا جميعاً، أمي والمحامي والسيد كن. أمامي مباشرة التلفزيون إياه، ماركة «سوني»، اشتراه خالي قبل أن يغادر إلى أفريقيا حيث مقر عمله الجديد كمستشار قانوني في الهيئة الدولية لوكالة الإغاثة. قال لنا وهو يثبته في مكانه على الرف الأوسط:

«أفضل اليابانيين في الصناعة واللباس التقليدي».

الكيمونو يا نادر لا يُقاوَم حين ترتديه النساء في الأفلام. نساء تلك البلاد يا سهيلة لديهن سحر وغموض لا ندري أين يكمنان؟ في الصمت الشديد أم الاحترام الأشد؟ التفت إليّ وبدأ يمازحني: خطّط منذ الآن للزواج من يابانية، فهي لن توصد الباب بوجهك إذا ما تأخرت في العودة ليلاً.

هي الغرفة نفسها، أستطيع رسمها لو كنت مثل سارة. أرسم الفراغات بين الأشياء كما تركتها. طاولة متوسطة بلون الخشب الذهبي الغامق، بأدراج صغيرة لا تفتح كما يجب في أغلب الأوقات، عليها دمغات واضحة من كعوب أقداح الشاي الساخن والقهوة والنبيذ. منافض للسجاير بجوار السرير، على الأرض، فوق المنضدة وعلى الرف، بأشكال وأحجام كبيرة و صغيرة، عميقة ومسطحة، وبها بعض النقوش والزخرفة. كانت تدخن ولا تزال. كتبت كارولين تقول:

«لم نقدر عليها في هذا الأمر، تترك أياماً وتعاود شهوراً. تقول مازحة: السيجارة لديها أخلاق أفضل من بعض البشر، شريفة ولا تخادع. هي الوحيدة التي تظل صامدة ولو لدقائق، تفهم ما يدور في ذهنك، ولا سيما، في أيام الشتاء القارسة الطويلة، وما هي إلا ثوانٍ حتى تحبين وحدتك وهي معك. اسمعي يا كارولين، السيجارة

محبوبتي التي تتجاوب معي ولا تخذلني».

لا تزال منامتها بيدي. قمت على مهل، التفت إلى الخلف، وفرشتها على السرير. سوّيت الأكمام، والياقة، وجعلت الذيل يتدلى بطوله. بركت على ركبتي ودفنت رأسي في النسيج الناعم. كانت نفسيتي منهارة. للمرة الأولى أنهار بمفردي، ويبدأ عويلي. كان صوته مسموعاً. بكيت بلا خجل، بلا تكتم، بكيت بحرية فشعرت بأن طبلة أذني سوف تنفجر. أمسكت الردن الأيمن وشبكته على وجهي ووضعت الأيسر بين شفتي، كنت أسمع نشيجي وأنا أدفن رأسي في حضنها. أتشبث بالثوب ولا أجد أحداً بجواري يحصي عليّ دموعي. رنين الهاتف مجدداً، سونيا على الأغلب، جالسة أمام طاولة الطعام في الصالون تداعب ليون، فتخاطبني على الفور:

«نادر، حبيبي، كيف الأمور معك، ما هذا؟ تبكي؟ نغمة صوتك تفضحك لكنك لا تريد أن تعترف. نادر، ماذا هناك؟ هل...»؟

«لا جديد يا سونيا، عدت قبل قليل ولست متأكداً من أي شيء. كلام كثير، تفاصيل، معلومات، مصطلحات طبية ونفسية لم أسمع بها من قبل، كل هذا شديد الوطأة عليّ. أشعر بأنني سأنفجر بالصراخ قبل أن أجنّ».

«أرجوك، نم حالاً إذا استطعت، هل شاهدت صديقاتها؟ هل كنّ معك طوال الوقت؟ عليك ان ترتاح قليلاً لأنهن بجوارك. نادر، أرجوك لا تدعنا نقلق عليك. على أحدنا أن يتماسك، إنني أصلي من أجلها وأجلنا جميعاً. نادر، الطفل وأنا بانتظارك، إنه يريد أن يقول لك بلغته شيئاً ما، هيا اسمعه، ها... هل تسمع؟ دادي أحبك».

«حسناً يا سونيا. شكراً على الاتصال... اعتني بنفسك وبليون».

أدرت رأسي، وعدلت جلستي. سحبت السجادة الثمينة الصغيرة إليّ، دفعتها تحتي وأسندت ظهري إلى السرير. كانت الأرضية من

الخشب البني القديم. مددت ساقي وهدأ نحيبي. تمخطت وأنا أطوي ذراعي على ركبتي. كان الألم ينبع من هناك ويصب عند سهيلة، الألم يعرف إلى أين يتجه؟ أكوام من القصاصات، والصحف والملفات. أوراق، وكرّاسات، وأغلفة سمراء كبيرة وصغيرة رتبتها كارولين بهذا الشكل على ما أظن؛ ثلاث أكوام، وُضعت فوق كل منها منفضة، وكتاب، وآنية للزهور كي لا تتبعثر وتتطاير. حين رفعت نظري، شاهدت الرفوف نفسها. كانت خالية حين وصلنا قبل أعوام، حين كان خالي يتهيأ لمغادرة ألمانيا أولاً، بعدما قام بإرسال زوجته وابنه زياد إلى الجنوب الفرنسي، حيث تقيم عائلتها الثرية. بقيت لماريان أفكار خاصة، في ما يتعلق بسهيلة بالدرجة الأولى، فعاملتها بشيء من الجفاء والبرودة. لم نسكن هنا أول ما وصلنا باريس عن طريق تركيا. كانت الاتصالات مستمرة في ما بين أمي وخالي، حين تركنا وغادر في أوائل السبعينيات. بقي الشوق إليه لا يوصف، فتصورت أنه حين سيلقاني، سيأخذني بين ذراعيه كالسابق، ويرفع كم قميصه الناصع البياض، ويمازحني: هيا يا نادر، كما كان يفعل في الماضي؛ يضعني على ذراع واحدة، ينقطع نفَسه وهو يردد: «سأظل أحملك على ذراع واحدة حتى لو بلغت العشرين». كانت طريقته في إعلان الحب والأشواق هادئة وأحياناً متناقضة، بعكس والدي، إلا أن عواطفه بقيت خفيّة. تصورتها ستبقى ثابتة معي على الأقل. كان يعترض باستمرار على تصرفات والدي مع سهيلة، يعترض على كل شيء تقريباً. تخرّج من كلية القانون والاقتصاد السياسي بمرتبة الشرف وفتح مكتباً للمحاماة مع الأوائل في دفعته. لكنه تخلى عن كل شيء بعد شهور قليلة، بعد أن سبّبت مرافعاته المدوية ونجاحاته قلقاً للبعض، والدي واحد منهم. سخر منه، من أفكاره وشخصه. عُرضت عليه في ما بعد، مناصب عدة؛ وظائف في الديوان القضائي، محافظاً لإحدى المحافظات الجنوبية. قيل له: اختر ما تشاء يا ضياء. كان والدي يقول له ذلك

بصوت مرتفع، كأنه يهزأ منه: «ألا ترى، إننا نحتفظ بأمثالك لوقت الحاجة وقد حان الوقت لكي تعمل من أجلنا. هي القضية الوحيدة المضمونة وإلا...» لم يكمل والدي وكانت سهيلة ترتجف في غرفتها وضياء لا يُسمع له أي صوت. لمحنا طيفه وهو خارج، كأنه مضروب في جميع أنحاء جسده، كما هي أمي. علمت في ما بعد، بعد سنوات حين كنا في إنكلترا، أنه تعرّض للضرب فعلاً. وقد أسرّ لجدي في ذلك الوقت: «أشعر بأنني ملاحَق ومراقَب». كان هناك من يقتفي أثره وهو يزور خطيبته نهاد، وهو عائد إلى بيت العائلة. خاف جداي عليه، وكانت المفاجأة بانتظار والدي بالدرجة الأولى. سمعت صراخه وأنا في غرفتي بالطابق العلوي: «أخوك الأفندي الشريف هرب. هل تسمعين يا سهيلة خاتون أم الطرش وصل أذنك الثانية»؟

هل كان خالي رجلاً شجاعاً وحوّله أبي إلى جبان؟ لم يجرؤ أحد على سؤال والدي أو غيره عن الأمر. باعت جدتي بستاناً باسمها في ضواحي كربلاء وبدأت بتهريب الفلوس إليه. كانت تجد دائماً من ترشيه من الأقارب، عسكريين، ومدنيين، ورجال أعمال وفنانين وأصدقاء لجدي، تغريهم بالعمولات الكبيرة. جدي هو الآخر بذل جهده من أجل خالي، فكان يحوّل، خلال الرحلات الفنية وتقديم العروض المسرحية التي تقام في البلاد العربية والدول الاشتراكية، جميع ما يحصل عليه من العملات الصعبة. ظلت هذه الكلمة تدوي في أذني: العملة الصعبة. أسمعها على امتداد الشهور والأعوام، وأقرأها في الصحف وأسمعها في الإذاعة والتلفزيون. هل الصعوبة حال الأقوياء الأغنياء، والسهولة حصة الكسالى والفاشلين والفقراء؟ كانت الفكرة صعبة عليّ. كنت أشعر بالخجل من عجزي عن حل لغزها على الرغم من تفوقي في مواد الرياضيات والعلوم جميعاً، التي كانت تسمى صعبة للغاية، وما دامت الأمور تخص العملة والفلوس وكل هذه الكلمات التي يلتصق بعضها ببعض، فقد أصابتني أنا نفسي

بطريقةٍ ما. كان تأثري بما يجري من حولي شديد التعقيد، يوم قالت سهيلة بصوت هامس، إن بمقدوري الدراسة في باريس بجوار خالي إذا شئت ذلك، لكن بعد حصولي على الثانوية، فالعملة الصعبة متوفرة الآن. قالت تلك الجملة بطريقة مسرحية. تتزاحم الصور في رأسي، أحلم وأنا يقظ وأنا نائم. حين انتقلت من المدرسة المتوسطة إلى الثانوية، كنت أحفظ الأغاني الأجنبية أكثر من الكتابات الثورية التي تُلقى علينا في الصفوف. أما الغيتار، فكان والدي يسخر منه، وينعته بالآلة القذرة، ويضيف: «إنه يفسد الإدراك الثوري ويُضعف المشاعر الوطنية». سهيلة وجدّي يقفان في صفّي. أرسلتني إلى معلمة بلغارية كانت تدرّس في مدرسة الموسيقى والباليه من دون علمه. الوقت ينقضي ووالدي يروح ويجيء ونحن نتلقّى الأوامر. لا يتراجع ولا يملّ. قلت، يوماً ما لن أنفذ أي شيء يريده السيد الوالد. شعرت بأن القوانين والأوامر وُجدت لكي لا نطبّقها بحذافيرها. ففي سنّي تلك، كان الابتعاد عن العائلة يتم، إما لإجراء التدريبات بالأسلحة الخفيفة أو لتلقي الأوامر وحفظ مبادئ الثورة. لم أفهم ما معنى أن تكون ثورياً. هل كان والدي ثورياً؟ كان شارة مروري إلى كل مكان. صدره مزين بالنياشين وكتفه بالنجوم الكثيرة اللماعة، وأنا أسير في بعض الأحيان أبطأ من تلامذة الصف. أمضي وأبتعد، على النقيض منهم؛ وأكتشف أنني أرغب بترديد أغاني بوب مارلي والأخوة ويلز، وألفيس بريسلي وجاك بريل. كلمات أغانيهم بسيطة، حنونة وحرة ولا تبعث في نفسي الخوف أو الملل. تتحدث أغانيهم عما يشغلني؛ السفر إلى مدن جديدة، والحب البريء. حفظت قول بوب وهزتني تلك الكلمات: «لا أميل إلى السود ولا إلى البيض. إنني أميل إلى الله الذي يكره الظلم». وأنا أحب الله أكثر من والدي. كنت أسمع كلمة ثورة في بعض تلك الأغنيات كما لو أنها وُجّهت إليّ لكي أكون مسروراً. لا أحد يُرغمني على فعل هذا أو ذاك. كنت أعتقد أن الثورة هي تجميع

نقاط قوتي لكي أنتصر على ضعفي وعجزي، وأن الأمور لا تحتاج إلى تدريب عسكري فقط، وإنما إلى أن أكون صحيحاً وطبيعياً وحراً. فما إن أرى والدي وهو يتحدث عن الثورة حتى أشعر كأن في فمه بعض الحصى. يبدو عليه العبوس والحزن والغضب. يتمشى في غرفته، يداه خلف ظهره وأنا أمامه منكّس الرأس: «ما هذه القذارات التي تملأ دماغك». تتضاعف الممنوعات يومياً طالما هو في المنزل، فأبدو أمامه غبياً وفاشلاً حتى لو كنت الأول في صفي ومدرستي. كانت سهيلة تشرح لي في ما بعد قائلة بصوت هامس: «أنت غريب يا نادر، أخشى أن يكون مصيرك مثله». لم أفهم مثل من تماماً، خالي أم والدي؟ «أي خالك الذي هجر وهاجر تاركاً كل شيء». لكن خالي لم يكن مَثَلي الأعلى ولا أبي أيضاً. كنت أحبهما بالطبع، لكن بطريقةٍ لا أفهمها. حين فرّ ضياء، حزنت كثيراً. شعرت بأن ثمة نوعاً من المنافسة بينه وبين والدي، وأن الأمر لا يتعدى مجرد كونه وشاية أو خطأ. لم يذكر أحد من أفراد العائلة الأسباب الحقيقية لفرار خالي. سعيت إلى معرفة ذلك بإلحاح في البداية، لكني فشلت. قلت لنفسي في ما بعد: من الجائز أن خالي لم يؤمن بالثورة بصورة كافية، ولكن، هل كان والدي، مؤمناً بالثورة أكثر من ضياء؟ حتى اليوم لم أعرف الإجابة عن هذا السؤال؟ في جلستي تلك، شاهدت صرصاراً على الجدار، أحمر اللون، توقف عن الحركة نهائياً. شارباه رفيعان وحنران جداً، وهو يقع تحت بصري ويدي. ما عساي أفعل الآن؟ تحركت على مهل ووقفت. مشيت خارجاً إلى الحمام، شعرت بأنه حر أكثر مني.

(٢)

كنت أحاول تجنب ملاقاة سهيلة في جميع الموجودات من حولي، لكن التفاصيل كانت تتبعني حيثما توجهت. لم ألتفت إلى المطبخ الصغير والثلاجة على الرغم من عطشي الشديد. لم أمد رأسي

إلى الغرفة الثانية، غرفتي التي حوّلتها سهيلة إلى غرفة استقبالٍ للأصدقاء. وقفت في الحمام الصغير جداً، فتحت الحنفية على مداها، وأخذت أصغي إلى تدفق المياه وأنا أخلع ملابسي. لا تزال الحنفيات تعمل ببطء، لم يتغيّر أي شيء هنا، وأنا أريد ماء أكثر تدفقاً. أريده أن يخبط رأسي، وركبتي، وصدري، وكل الأجزاء الخفية في جسمي. كنت أمسك خرطوم الماء البارد وأجعله ينزلق فوق رأسي، أمرره على وجهي وداخل عيني. تمنيت حينها لو أستطيع أن أنام هنا وسط البانيو الوردي النظيف.

«كل شيء تقضيه على عجلة يا نادر: الطعام والاستحمام والدروس. حتى وأنت تراجع أطباء الجامعة تغافلهم وتخرج مسرعاً، كأنك تفعل كل شيء وتخشى أحداً ما يتبعك. نحن هنا يا عيني، ولا أحد سيمد يده ويأسرك. تريّث قليلاً، لماذا تقتّر في الماء والطعام وكذلك في العواطف ها، لماذا»؟

كانت تضع عنواناً لكل ما تراه في وجهي. تتابعني بعينيها، وتنزعج حين لا أجيب. في برايتون، تدخل الحمام وتكلم الماء، تضايقني نظراتها وهي توصد الباب. كنت أدري أنها ستنزل في البانيو الكبير الأبيض الذي يتسع لبدنها الصغير، وحين تتأخر يساورني الشك وأحتار، كما لو أنها دخلت هناك لكي تنتحر. يغيب صوتها، كما لو أنها تتقصّد أن تفرط في تعذيبي. ما أغربها. أطرق الباب بعد فترة، برقة في بادئ الأمر، ثم بشدة:

«أمي، يا أمي، هل أنت بخير»؟

لا تجيب، هكذا فقط لتغيظني. هي الوحيدة القادرة على تحطيمي وكسر مناعتي. فيزداد غضبي وجنوني، ثم ترد أخيراً بصوت ودود:

«لا تقلق عيني، تعرف كم أحب البقاء في الماء».

«لماذا لا تكلميني؟ لماذا لا تردي عليّ»؟

كانت تغتسل أكثر من اللازم ولا أفهم سبباً لذلك حتى الآن. أضغط على لساني، أعضّه وأشتمها في تلك الليلة والليالي التي تليها، لهذا السبب ولغيره. لا بد من أن تنتهي هذه العلاقة، ولتذهبْ إلى حيث لا أدري مكانها. أنا عصبي للغاية. نتعارك على أمور، قد تكون سخيفة، لكنها تسحقني وتستحق غضبي. كنت أريد أن تتقاسم معي كل شيء، ويكفي أن تعرف أن الحب بيننا يحتمل السذاجة، والغباء، والخبث والمكر. كان عليها أن تلاحظ ذلك.

تصاعد بخار الماء إلى الرفوف الرصاصية في الجهة اليسرى من الحمام. رتبت فوقها قوارير من ماء الورد، وأنابيب من مرطبات الوجه واليدين. قناني أصغر، ملونة تشبه الكشتبان، هناك في برايتون وهنا أيضاً، ما إن أصب بضع قطرات منها في الحوض، حتى يفوح المكان برذاذ المحيطات ورائحة الغابات الاستوائية. روائح طيبة جداً، كأنها روائحها هي. ما إن أدخل الحمام وراءها حتى أغفر لها كل شيء.

وقفت حافي القدمين، فتحت الثلاجة وأنا ألهث. كانت مليئة بأنواع مختلفة من الأجبان الفرنسية والعربية. زبدة ومربيات من الفريز والمشمش، وطماطم و بطيخ أحمر، وكرز وشمام، وعلب معدنية من البيرة، وعصائر من التفاح والبرتقال، وخبز لبناني، وكيس من الخبز الإفرنجي:

«كارولين، كفرية لها علاقة بنا، بالشرق، تبدو مثلنا، مثل بلانش ونرجس ووجد وأسماء. تجلس على الأرض وتتبارى مع بلانش في تدخين النارجيله. تنفخ إحداهن الدخان عالياً وتقهقه الثانية وتردد: «كلا، أنا الأعلى». أحياناً تأكل بيدها حين تشاهدنا نفعل ذلك، ولا سيما ثريد البامية والباقلاء اليابسة، فتدندن كطفلة وتردد «يم، يم». عندما ترى طاولة الطعام، تبدأ بخلع سترتها تمهيداً لما سيواجهها من حرارة البهارات والتوابل الهندية، التي يواظب ضياء على إرسالها من أفريقيا، ومن الخلطات التي أقوم بإعدادها حسب مزاجي. تذهب معي

إلى الأسواق العربية، المغربية والتونسية واللبنانية، كل يوم أربعاء في السوق الشعبي. أنا أشتري وهي تتلمظ ما سوف أطهوه فتجهز عليه، حتى الطعام البائت تفضله، مثلنا».

وضعت كارولين معلبات كثيرة أمامي: بازلاء، فاصوليا حمراء، ذرة. علب ورقية من السكر الأسمر على شكل مكعبات، أنواع من الشاي بالياسمين، والنعناع، والليمون. كانت سهيلة توقظني عند السادسة صباحاً، وتهمس في أذني:

«نادر، يالله، الفطور جاهز. الخبز المحمص، والبيض مثل عيون الفهد، والشاي...»

لم تكن تحب أي شيء يدعى إكسبرس، تهم وتقف أمامي كأنها تخطب:

«وهم، أي والله وهم كوني».

تضحك مكملة موعظتها:

«كل شيء إكسبرس سوف ينهار. شيء يعذّب كالمذلة».

كانت تشتاق إلى تحضير الشاي كأنها على وشك أن تكتب كتاباً أو تؤدي دوراً على المسرح. تغلي الماء حتى تتصاعد أبخرته وتغطي زجاج المطبخ، تفتح صندوقاً مخملياً أخضر اللون وفي عينيها بريق جميل. هناك وضعت الشاي، محلولاً وحراً خارج الأكياس:

«حتى الأعشاب لا تطيق الأسر».

تغرف قبضة بيدها، تضعها في إبريق زجاجي ثان قرب الأول، وتغطيه بقبعة لها آذان:

«دعه يتخدر لكي نهيم به ويمذاقه. والدك هو الآخر يفضل هذه الطريقة، الشاي بالهيل. علمتني أمي ذلك، تفتح حبوب الهال قليلاً وتضعها داخل الإبريق. بقي والدك يسخر من الإنكليز ومن شايهم الباهت المريض».

تلتفت سهيلة وتوجه نظراتها إليّ:

«كل شيء له ميقات يا نادر، هذه قيمة الأشياء. أحياناً أراك مثل عابر سبيل لا تلتفت، لا تقف ولا ترى كما يجب، وأحياناً أخرى تُدهشني قدرتك على المراقبة والتذوق، وأنت تدخل معي المطبخ لتحضّر الأطباق التي تحبها. إنك تحيرني».

كان الماء يغلي أمامي، أخذت فنجاناً ووضعت فيه كيساً من الشاي. شاهدت كيف يتغير لون الماء ويتحول إلى لون ناري مثل وجهي. أغلقت أذني عن إرشادات سهيلة. أشرب بعجلة، آكل وأدرس هكذا. أقطع قطعة من الخبز اللبناني، أضع في وسطه مكعباً من الجبن. لم أشعر بالشبع ولا بالجوع. أفرغت قدح الشاي ودخلت إلى غرفتها مجدداً. أزحت ثيابي فوقعت على الأرض. أمسكت بيدي منامتها المنزلية ثانية، طويتها كيفما اتفق ودفعتها أمامي على الكرسي. رفعت الغطاء وتمددت كالجثة.

«كنا نُجري بعض التدريبات المسرحية ليلاً. جدّك يسمّيني جنرال المسرح العراقي الحديث، هكذا، نكاية بوالدك الذي بدأ يتضايق من عملي الليلي وأنا لا أعرف من أطيع؟ تعليمات المخرج الكبير ووصاياه، أم أوامر الزوج العسكري؟ من الجائز يا نادر، أن الصداع والمرض بدآ في تلك الفترة بعدما تأكدت من أن موهبتي ستتحول إلى مجرد خردة. كنت في حال يرثى لها. شعرت بأن الموت يتربّص بي إذا لم أمثّل وأرقص. كنت أتركك في رعاية أمي. وعندما أعود صباحاً، كانت أمي لا تكفّ عن تأنيبي وإيلامي: لم يتوقف نادر عن البكاء يا سهيلة. كان خائفاً ألاّ تعودي». لكن ما إن أضع منامتك القديمة بين يديه، حتى يبدأ بشمّها مثل الحيوان، يغصّ بالدموع، ويشهق، ثم يسكت ويغفو تماماً».

[١٤]

(١)

استيقظت منهكاً. فكرت بجميع صديقاتها، فتصورت، أنهن سوف يركضن ورائي للامساك بي من أجل جملة نسيتها، وتركتها متحجرة ولم أبح بها؛ أمي امرأة رائعة، هي التي جعلتني أبدو في بعض الأحيان كالشحاذ، هل كانت تعرف ذلك؟ إنها أم مأساوية وأنا لم أعد أفهمها، لا أعرفها. ترى من يعرف أمه؟

الشقة تهجم عليّ، الرفوف مكدّسة بالكتب، والتسجيلات، وأكوام الصحف، والمعاجم، والصور الصامتة. صوري بالدرجة الأولى بدت لي كأنها ليست لي، الطفل، والصبي والمراهق. تمثّل صُوري مراحل حياتي بالتدريج، باللحظات والأعوام، في صفوف واحدة تلو الأخرى، على الجدار. كانت تراجعني كالدروس، وأنا أحبو، وأمشي، وأقع، وأتعثّر بين التلاميذ، في تلك الجزيرة ـ أم الخنازير ـ على الدراجة الهوائية، شعري مبعثر وسروالي مطيّن. في الصباح، في الليل، بين النخيل وأنا أفتح فمي، على سريري ممسكاً بالغيتار، في حفل صغير في شقة صديقتها وجدان في لندن، وأنا أعزف في أعلى السلم، تحت برج إيفل، في كل الفصول وأمام سيارتي الفولز فاغن الخضراء، فأبدو لا حيلة لي، منزعجاً من سخافة إليزابيث،

صديقتي الإنكليزية الورعة، وليال التي تشبه مسقط رأسي ورأس جميع الأسئلة التي لا أجد لها جواباً حتى الآن. أصوّب نظراتي إلى هذه وتلك مثل أبي الخسران. ألاحق كل واحدة يقع عليها بصري. مرتبك، أتسلى ولا أثق بالإخلاص، إخلاص البنات اللواتي أقع في طريقهن، فلا أعود قادراً على احتمالهن ولا على احتمال نفسي. صحت بصوت غاضب وأنا أقف أمام هذه الجدران: صور، صور. لا شيء إلا صوري، لا توجد صورة واحدة لزفافي، ولا لسونيا، ولا لابني. لماذا تصدقين الصور ولا تصدقين صاحبها؟ لماذا تفعلين ذلك يا أمي؟

أدرت الكرسي الدوار ذا اللون البني الغامق بعدما غطته بشرشف أفريقي زاهي اللون لكي تخفي بطانته المتآكلة، وجلست عليه. أبيات للسياب وكفافي وأبي نواس غرزتها بدبابيس أمامي على الجدار. وقد كدّرتني بدلاً من أن تنعشني. أبيات عن الوجود الزائل، عن البلد والحب المستحيل. أقرأ وأتحرك بالكرسي ضمن أمتار الغرفة الصغيرة جداً. الستائر بلونين ونوعين، الرقيقة باللون الأصفر وضعتها أولاً لكي تسمح بدخول الضوء. وتقصّدت أن تكون الثانية من المخمل الزيتوني الداكن، الأنيق والغالي الثمن، وأن تُشغّل أذيالها بخيوط خضر وصفر. كتبت إليّ تقول:

«الستائر الصفراء هدية بلانش، تذكرها أم لا»؟ كانت تقول: «والدي أطلق عليّ اسم كاشانيه، نوع من السجاد الفارسي الثمين، وأمي اسم بلانش». تريد الصدق يا نادر، هي مثل السجادة الكاشان فعلاً، لكنني أفضل اسم بلانش، بيضاء القلب والروح، تشبه جبلاً من البهجة، كلما حاولت تسلّقه تجدها أمامك، بانتظارك. تمد يدها وتسحبك إلى أعلى. تحاول كما نرجس والباقيات، أن تخفي فشلك، وسخافاتك وترددك، فتصدّقك وتصدّقهن. ربما ليس على الفور، ربما أنت الذي تريد أن تصدّق ذلك. لديهن مناعة، وقاية طبيعية ضد الحقد والحسد. لا تضحك عليّ يا نادر وتقول إن صديقاتي ملائكة. لا أحد

ملاكاً، وأنا لا أحب هذا الوصف أصلاً، لكننا بالفعل ونحن معاً، أشعر بقيمة الأشياء؛ الأفكار، والصداقة، والدنيا، والشعر، والشراب، وأشياء أخرى لا أعرف تفسيرها. آه، لو تدري ماذا فعلن بي؟ عجباً، ألم أقل لك ذلك من قبل؟ إذا حضرت يوماً إلى باريس ووقفت في غرفتي إياها، وحاولت أن تحرك الستائر الخضراء فما عليك سوى أن تردد: شكراً، شكراً كارولين. كانت هذه هديتها في ذكرى ميلادي الثالث والخمسين. هيا أزحها ودع النور يدخل الغرفة. لا تدمدم كما فعلت حين شاهدت كارولين تحمل كيساً كبيراً من البلاستيك السميك. جفلت وهي تقول بصوت رقيق:

«هيا افتحيه يا سهيلة».

تحاشيت النظر وحصل لي تأثير عكسي، وأجبتها بلهجة بعيدة عن المزاح:

«لو جلبت لي رأس قنبيط يا كارولين، وباذنجاناً من النوع الصغير الطري والطازج لصنع المخللات والمكدوس، لو أنك أحضرت الأجبان الفرنسية التي أموت فيها، وزجاجة كونياك ماركة «نابليون» بعد النفي، لهضم الساعات والسنين. أنا لا أحب المخمل، لا أحب الستائر أصلاً».

ضحكت كارولين في بادئ الأمر بطريقة عذبة، لم تعرف يا عيني كيف تجيني:

«انظري إليّ يا عزيزتي، يا ابنة الشمال الراقي. من الآن فصاعداً، أنا أفضّل المأكولات على الأشياء والمقتنيات الباذخة كهذه، حتى أنني لا أعرف كيف أستعملها، من الآن وإلى أن... أحضري معك وأنت قادمة إلى هنا، الخضار من كافة الأنواع، والأسماك المدخّنة، والدجاج، وبيض الحقول ذات السماد الطبيعي. وأكثري من إحضار الفواكه. الشمام أجمل من الشمعدانات. كلا، الزهور لا تحمليها. إنها

ترف لا أحتمله، تسبب لي العطاس الدائم، وتستثير لدي الحساسية القاتلة. ها، لا تنسي يا كارولين هذه التعليمات رجاءً».

يا عيني على كارولين، في تلك الظهيرة الربيعية، دخلت في الغم الذي لم أره في عينيها من قبل، والستائر مفروشة على السرير، كأنها نوع من الكفن، لكن الأمر انتهى بعد ساعة. خجلت منها، فسحبت الستارة العتيقة، ذات الشبك الأبيض والبني. صعدت على السلم الحديدي وبدأت بتعليقها فوق النافذة:

«ها، انظري الآن يا سهيلة، أرجوك بلا سخرية، صارت الغرفة ملوكية، أليس كذلك»؟

قالت ذلك بصوت بالغ التهذيب، لكني لم أشكرها. لم أكن لطيفة معها على الإطلاق:

«من قال لك إنني أفضّل الملوك مثلك»؟

كانت تعرف الكثير، عنا وعن البلد. شعرت بوخز وأنا أنظر إلى وجهها الأبيض الرخامي وقد تحول إلى أحمر ناري. نزلت وسحبت الستائر الأولى بجانب الثانية، حتى اشتد الظلام في المكان، وأثار في قلبي مشاعر شتى جعلتني أرى الغرفة وكأنها ليست لي. هي ليست غرفتي، لم تعد آمنة. هذا النوع من الستائر لا يواسي أحداً، إنه نوع من النسيج مكتف بنفسه. حين لمست البطانة السميكة والثمينة، شعرت بخوف مضاعف. كانت الغرفة في حالة استقرار نهائي، تتوعدّني بأمرٍ أجهله، استوحشت منها ومن نفسي. قلت لكارولين أخيراً:

«علينا الخروج من هنا على الفور، سنحتفل بميلادي الميمون في شقتك. ندعو الصديقات والأصدقاء وأنا من سيطهو».

(٢)

فتحت النافذة الأولى على مصراعيها، ثم عالجت الشباك

الحديدي الخارجي فأطلق صريراً. كان الصباح يتجمع فوق الأشجار الباسقة في الحديقة الفسيحة المجاورة للمبنى. أحدق بعيني على وسعهما، ودموعي هدأت اليوم عما كانت عليه أمس. أخذت تسيل على خدي بلا عوائق فلم أمسحها. بدأت بارتداء ملابسي. شعرت بأن عضلاتي متيبّسة وحركتي مشدودة بحبال. كلما أرفع رأسي، تستثيرني الرفوف المكدسة الممتلئة تحت الضوء الطبيعي. ملفات من كافة الألوان ألصقت عليها من الخارج بطاقات بيضاء رقيقة كُتب عليها بخطٍ سميك: رسائل للهيئات الدولية، خطابات من الابن، هكذا من دون أن تكتب اسمي، خطابات المحبوبات في بغداد. كراسة سميكة كتبت عليها اسم «تيسا هايدن» بخط وحبر مختلفين. صناديق مستطيلة زرقاء اللون مصفوفة ومنظمة، كأنها رتبتها قبل قليل. لمست بعضها وأنا أنتهي من ارتداء ملابسي، كان الغبار يملأ أغطيتها. وقفت أمام بطاقة بريدية لسهيلة ورقها بنفسجي، بثلاثة وجوه، بخطوط وألوان مختلفة، فقرأتها، «لم أنتظر أن تجيبي عليّ، سيدتي، لكنني أنتظر الكتابة إليك في مطلع كل عام جديد. ليس هو الواجب، حسناً، لا ترتبكي كعادتك، وترتعشين كمراهقة. إنه نبضي الذي أريد أن تصغي إليه ساعة ذهابك إلى النوم».

انعصر قلبي فحوّلت عيني بسرعة عن الوجه الأول من البطاقة. خفت لبرهة، كأنني أسمع وقع أقدام جزمة والدي العسكرية. سحبت أحد الملفات، لونه أسود، وقرأت في أعلاه بخطها المشوش عنوان ضريبة الدخل. أعدته وسحبت آخر عشوائياً، قرأت بخط ناعم جداً: يوميات كندا. دفعته بسرعة والساعة المنضدية تشير إلى السابعة صباحاً. أحدّق بالأشياء وأدير رأسي من هذا الجانب إلى الآخر، والحديقة أمامي، أشجارها كثيفة الأغصان. أشم رائحة السماد الذي فاض ليلاً وبقي ينبعث برائحة قوية وقبيحة داخل أنفي. أسير حافي القدمين وأنظر إلى الأوراق والصحف المكوّمة على الأرض. خرجت

وتوجّهت مجدداً إلى المطبخ الصغير. معتم جداً، لا تدخله الشمس أبداً، فوضعت قنديلاً يتدلّى من السقف العالي ويكاد يمس بنوره الشديد رأسي. إنني أطول من سهيلة بقليل برغم قصر قامتي أنا أيضاً. لم يعطني والدي شيئاً من طوله الجميل وبدنه الرياضي القوي، فعضلاتي هزيلة بالرغم من التدريبات التي أقوم بها يومياً لكي لا أبدو رجلاً بهيئة طفولية. الآن، وعلى مهل، أكتشف ترتيب المطبخ: الرفوف الأنيقة، واللوحات التي تفتح الشهية، ووصفات بعض المأكولات؛ المقادير، وأنواع من الأطباق والخزف، وأعشاب مثل الباقات معقودة بشرائط ملونة تفوح بالعطر، علّقتها على الجدران كأنها نوتات موسيقية. أشمّ الأشياء وألمسها فينشط مزاجي. وضعت إبريق الشاي على النار. هذه أصابع سهيلة وآثار يديها في كل ركن. كانت تتكلم مع كل شيء وتستنشق هواءه لكي يتغير مزاجها، فتبرمج البلد. تضعه أمامها وداخل رأسها. في كل منزل سكنّا فيه تجد طريقة ما لتنعش روحها وتخفف من أشواقها إليه. لديها ذاكرة لم تتوقف أبداً كأنها تقرأ فقرات منه، قبل العشاء وبعده، كالصلوات. فتضع الرسوم وتترجم من جميع مطابخ العالم وشعوبها أشهر المأكولات. تضع الشرق بجوار الغرب، والشمال في حضن الجنوب، وتهمس لنفسها حتى لو كنت أقف بجوارها:

«هذه ليست هلوسات يا نادر ولا هذيان أمرأة شرقية شقية. العين تتذوق قبل اللسان، أنت تعرف هذا».

تجفف عرقها الغزير وهي تكتب أسماء وعناوين غاية في الطرافة:

«هذه وصفة للتحليق عالياً بعيداً عن المنافقين الأوغاد؛ وتلك وجبة برج بابل التي تقطر ناراً؛ وهذا طبق للتصفيق الحاد».

تحب سهيلة جميع أنواع العطريات، والتوابل. وسائل الإيضاح، وصور الطاولات والشراشف الموشاة بالدانتيل وخيوط الذهب والفضة،

وفناجين القهوة العربية. أقداح الخمرة، لا سيما تلك المخصصة للنبيذ. تخطئ أحياناً في كتابة بعض المقادير، فيجهز الطعام وهو أشهى من قوة الإلهام. في هذه المساحة الصغيرة، كانت تمزج الأشياء وتقول:

«يصبح المكان عجيباً ونحن نحضّر أطباقنا. من أجل لقمة عزيزة ولذيذة، علينا أن نسعد أنفسنا ما دمنا لا ننتظر ذلك من الآخرين».

أول شيء قالته لسونيا يوم التعارف الأول، في برايتون:

«لا تكوني بخيلة في خيالك وأنت تقفين في هذا المكان العجيب. جرّبي مذاقات الهند، وإيران والعراق. جرّبي معارفك، لا كطاهية وخبيرة ماهرة، بل على العكس، كطالشة نزقة، تريد أن تعرف وتتعلم من خلال التجربة. أنا أسوأ طباخة في العالم لكنني أفضل من يتذوق طعام الآخرين».

كانت أمي تكذب من أجل سونيا كي ترفع معنويات الزوجة المغرومة بولدها. لكن سهيلة، بمقدورها أيضاً أن تسمم أحد الضيوف إذا لم تحتمله أو تحبه، فتبدو الطبخة خبيثة. يتمنى الضيف الهرب وهي تتأكد من أنه لن يعود ثانية. لكن ما أن يصبح فرداً حنوناً ودائماً في الأسرة وأمام الطاولة، حتى يتحول مرقها إلى طعام الجنة، هي تغرف وهو فرحان. هذا ما فعلته تماماً مع السائق الفيتنامي، كن، وعشيقته السيدة ليدي.

(٣)

في إحدى رحلات خالي ضياء لحضور تلك المؤتمرات التي كانت تقام في مدينة برايتون البريطانية، تعرّف إلى كن. بدا غريب الأطوار في البداية. لم نتمكن من تحديد عمرٍ له. هادئ ومهذب جداً. ينزل ويفتح لخالي باب سيارة الأجرة. السيارة ملكه لكنها وُضعت

لخدمة أعضاء المؤتمر. كان هو من حصة ضياء، تفاهما بسرعة بالرغم من تحفظ الاثنين، فما إن عرف أنه من العراق ومتزوج من فرنسية حتى تواصلا. دعاه إلى شقته الكبيرة مرتين، أو ثلاثاً. عزفه إلى ولديه من زوجته الأولى التي توفيت قبل أعوام وقال له: «الحياة قاسية هنا لكن نستطيع أن نجد لها بعض المنافذ لكي يكون للدنيا طعم، والبقية ليست في أيدينا». كان بوذياً له طريقة فذة في اختيار الأطباق الخاصة والتعرف إلى الشرارة التي تفتح الأحاديث، وتلهب إلى روح الشخص المقابل بعيداً، تنشّط العقل وتجعل بلوغ الصفاء والسرور والتأمل هدفاً عزيزاً على الإنسان. في تلك الأيام، فكر خالي جدياً في دعوتنا إلى برايتون والتعرف إلى هذا المخلوق الذي أطلق عليه اسماً لطيفاً: القمر الآسيوي المنير. في إحدى تلك الدعوات، توقف خالي عن الطعام اللذيذ وسأله إن كان بمقدوره أن يجد سكناً لابن اخته لإكمال دراسته الجامعية. ابتسم كن بهدوئه المعتاد ولم يردّ على الفور. بعد أن احتسيا الشاي الأخضر المعطر، وقف أمامه وسأله أن يقوم معه. سار خالي خلفه إلى الطابق العلوي من داره. وقف كن وسط الغرفة الكبيرة المضيئة والمؤثثة على الطراز الإنكليزي، وأجاب بصوت خفيض كأنه يكشف سراً:

«هذا الجناح كامل بالحمام والمطبخ الصغيرين. هو يتسع لشخصين إذا ما قمنا ببعض الترتيبات البسيطة، كأن نضع حاجزاً، أو ستارة، أو باباً يتحرك للداخل. لا تهتم، دع الأمر لي. سيسكن ابن اختك هنا. ولكن هل قلت لي ما اسمه»؟

«نادر آدم».

«هل سيعيشان سوياً؟ معذرة للسؤال، فالمكان غير مريح لاثنين لفترة طويلة».

«إنها لا تدري بالضبط... أحياناً تريد البقاء معه دائماً، وأحياناً

أخرى تقول إنّ عليه تحمُّل المسؤولية بمفرده، فهذا أفضل. لكنها ستحضر دائماً إلى هنا. أنت أيضاً، عليك أن تزورنا في باريس، هما يعيشان الآن في شقة بسيطة، ملكنا، زوجتي وأنا. تركتها لهما بعد أن تم نقلي إلى أفريقيا. والإيجار مستر كن»؟

«ليس مرتفعاً، بل سيكون أقل بنسبة عشرين بالمئة، من أجل الصداقة».

«والطعام»؟

«سيكون رفيقاً لابني يان وأخته هايدي. سنأخذ منه الشيء البسيط ما دام وحده. من الجائز أن ليدي، صديقتي، لن تحبذ هذا الأمر، إلا أن ذلك غير مهم».

هنا ابتسم كن ابتسامته التي لا ندري إن كانت دليل دهشة أم فرح وواصل:

«ليدي امرأة صعبة المراس قليلاً، قوية ومتسلطة بعض الشيء، لكن ثمة أمراً بغاية الأهمية، إذا ما وقعتَ في أزمة حقيقية فسوف تجدها إلى جانبك بطريقة قلّ نظيرها، لهذا السبب أحتمل فظاظتها».

وهكذا، انتقلت من السوربون بعدما واظبت فيها عاماً واحداً ولم أشأ المتابعة، فغادرت إلى برايتون بنظامها التعليمي المغاير كلياً للنظام الفرنسي. كانت الإيجارات باهظة. خالي يضبط تلك الأمور سلفاً مع السيد كن وأحياناً، يدفع هو بدلاً من خالي إذا ما تأخرت الحوالات.

حين تعارف سهيلة وكن، وثقت به حالاً. مشاعره خفية إلا أنها حقيقية. قالت ونحن بمفردنا في الطابق العلوي من الشقة التي تحولت إلى مكان شبه آمن لا هو بالبيت المستقر، ولا بالنزل الذي سنخرج منه ولا نعرف إلى أين ستتجه بعده:

«تصور يا نادر، أن هذا الرجل اللطيف يعرف عن بلدك وعن فلسطين أكثر ممّا نعرفه نحن».

صرنا على مر الأيام أفراد أسرة واحدة. ندعوه إلى عشاء عراقي خفيف، ويدعونا إلى شقته وهو يطهو الأطباق الفيتنامية والصينية واليابانية ويقدّمها إلينا على أفضل صورة.

«هل سمعت طريقة تحليله الأوضاع، والحرب، والصراع بين الشرق والغرب، وتاريخ المنطقة، ودور أميركا في جميع ما حدث لبلده ويحدث في بلدان العالم»؟

كانت لهجتها تحمل شيئاً من التأنيب.

«يا أمي، إنه يعيد ما قرأه في الصحافة البريطانية أو يكرر ما يسمعه من بعض زبائنه العرب والأجانب».

«لكنه يستعرض ذلك بطريقة هادئة، بلا تعصّب أو استفزاز».

«تماماً، أفضل مني وربما منك، ها»؟

قلت ذلك بصوت مرتفع قليلاً. بهتت وصمتت ونحن نسمع طَرقاً على الباب. كانت السيدة ليدي واقفة تدعو أمي إلى حضور إحدى الندوات التي تقيمها النسوة المتحدّرات من أصول آسيوية بالدرجة الأولى. قالت: «إذا كان الأمر يهمك، فيمكنك أن تأتي. سوف يدور بعد العشاء الهندي الخفيف، حوار بين العضوات والصديقات الجديدات. ألا تفكرين بالانضمام إلينا»؟

أطلقت تلك المرأة على نفسها لقب «ليدي» على العكس من كل ليدي تصادفها في المحلات والحفلات والدعوات الراقية التي تدخلها كعضوة في إحدى الجمعيات الخاصة بالحفاظ على البيئة. بدت لأمي، في أول لقاء، وكما وصفتها أمامي في ما بعد:

«عدوانية، لسانها سليط جداً، وأحياناً قذر. تهرّج وتسخر من كل شيء على العكس من كن».

حين انطلقنا إلى ذلك الاجتماع الخاص بالمطلّقات والأرامل، أسمعت سهيلة في الطريق كلاماً لاذعاً حول هوسها بالبحث عن أي وسيلة للتعرف إلى مصير والدي. وعندما شاهدت ذلك الخليط من الهنديات والباكستانيات والإنكليزيات، ارتاحت أمي قليلاً، لكنها صُعقت في ما بعد، حين وقفت إحداهن في طريقها إلى المسرح الصغير، وأمام الجميع. كانت سيدة ملونة، أربعينية، شديدة الغرابة والهوس. شرحت لها ليدي قبل صعودها إلى المسرح حكاية أمي، كنوع من التعارف الأولي، فضحكت تلك السيدة بصوت عال جداً ووجهت الكلام إلى سهيلة:

«عليك أن تكوني سعيدة بدلاً من أن تحزني. أتمنى أن يكون زوجي ميتاً، لكنه بصحة جيدة ويعرف امرأة أخرى. وأنا أعمل كالدابة لأعيش. أجل، يكون الأمر أفضل عندما يموتون».

كن يصعدن إلى المنصة، يتحدثن، ويزعقن، ويتغامزن ويتضاحكن، ثم ينزلن. هستيريات، يطلقن أصواتاً صارخة ويتحدثن بطريقة أغرب عن الأسرة والزواج. هل يُعزى ذلك إلى أنهن بلا أزواج، أم لأنهن يرغبن برجال يشعرون بهن كما يشعرون وهم مع أصحابهم وأصدقائهم؟ قالت لي أمي كل ذلك حين عادت من هناك مشوشة الأفكار وعصبية جداً. وأضافت في النهاية:

«أحياناً نحتاج إلى أن نضع السم في أطباق ونقدمها إلى بعض المخلوقات. السيدة ليدي واحدة منهن».

[١٥]

(١)

لم ألتفت إلى غرفتي التي أمضيت فيها حوالي السنتين. لا أريد اكتشافها الآن. دوّى رنين الهاتف فأصبت بخضّة. قفزت من مكاني كأن مساً كهربائياً مسّني. تعثرت بالكومة الأولى من الصحف والأوراق وأنا أرفع السماعة:

«ألو... ألو».

لم أسمع هذا الصوت من قبل. كان مزيجاً من الصراخ والدموع والدعوات. قالت بلهجة سريعة:

«عيني نادر، أمك، اللهم صلّ على الرسول محمد، هذه دعوات الحبايب، دعواتي، والله هسه رجعت من الجامع، وقفت هناك وفتحت صدري لفاطر السماوات؛ عيني، قلت له، مو بعيد عليك يا أرحم الراحمين أن تعيدها إلينا، إلى ابنها المظلوم. نادر، يمه، صليت الفجر بالجامع وجئت رأساً إلى المستشفى. ابني، مو بعيد على الله أن يستجيب لدعائي. عيني نادر، تعال بسرعة، شبيك، أني خالة أسماء، أم حمادة، ها عيني شوكت راح تجيء. لا تفطر ابني سويت لك خبز العباس. نادر دا تسمعني عيني، سهيلة حركت أصابع يدها اليمنى، أي والله العظيم. يمكن لخاطرك ابني. يالله عيني، مع السلامة».

صرت في الشارع. لم ألتفت إلى أحد، لكن صوت أنجليك، جارتنا في الطابق الخامس، كان يحاصرني وهي تحاول إيقافي في الشارع الفرعي:

«هاي مسيو آدم، ?ça va، هذا أنتم»؟

«نعم مدام، ?ça va».

كررت ذلك بصوت محبوس. كنت ألهث وأنا أقف أمامها. اقتربت مني أكثر ووقفت قبالتي. تفوح رائحة النبيذ من فمها وثيابها وشعرها. شعرت بضيق وهي تأخذ بيدي وتمشي بي بعيداً عن هذا الحي وذلك المبنى. لقد ازداد مرضها وباتت لا تطاق، فماذا سأفعل؟

«متى وصلتم مسيو، وأمكم، كيف هي الآن؟ هل هي بخير»؟

كانت هيئتها مزرية، فقدت اتزانها، هرمت جداً، بالرغم من أنها أصغر من سهيلة. ثيابها متّسخة، عليها بقع من طعام يابس، بها ثقوب في الردن والصدر. كانت تحمل كومة مفاتيح بكل الأحجام، فهي مالكة بضع شقق في العمارة. عيناها لا تنظران إليّ، لكنها تواصل الحديث بصوت عصبي:

«تصور مسيو، أمي هي أيضاً دخلت المستشفى بعد أن فقدت السيطرة على أعضائها وأعصابها و...»

أمسكت يدها ورفعت رأسي إليها:

«مدام، نعم إنني أسمعك لكني يجب أن أكون بجوارها. سنلتقي وستحادث مطولاً، تعرفين كم تعزّك أمي».

ارتفع صوتها في وجهي، وهي تقبض على ساعدي، كانت تطلق الشتائم بصوت عال:

«merde! حتى أنت لا تريد الإصغاء إليّ. لا تنظر إليّ هكذا، إنني لست مجنونة كما يشاع في العمارة. أمك تعرفني أفضل من

الجميع. لا تصدّق كل ما يقال عني. صدّق أمك فقط. هي الوحيدة التي بقيت تتحدث معي من دون الباقين، تعانقني، ونشرب قدحاً من النبيذ في بعض الأحيان. إنهم مجانين، فاسدون، خرا. أبي مات مسيو وأمي لا تعرفني، وجاك، جاك الحقير هجرني ورحل مع شابة مغربية. وفارقتني آن، ابنتي، إنفاذاً لحكم المحكمة، أخذها جاك، سرقها من باب المدرسة، يقول إنها لا تريد البقاء معي».

بدأت تبكي وتتمخط، تمسح أنفها بيدها وهي لا تنظر في عيني مباشرةً. لأول مرة أنظر في وجهها. كانت شديدة التعاسة. تتحرك وتحركني معها من هذه الجهة إلى تلك:

«أثناء الحرب، كان بلدكم يُضرب من الجميع، حتى من فرنسا. نزلت إليها فجراً، وشاهدتها تبكي بصمت، عانقتها وبكينا معاً في الممر. كانت أمك أكثر خجلاً مني لكنها لم تتفوه بكلمة. عرضت عليها الإقامة في قريتي في الجنوب، في البيت الريفي، لكنها أشاحت برأسها عني لكي تمسح دموعها. أجابتني: لا عليك يا أنجليك، هذا قدرنا. مسيو آدم، هل أخبرتك أمك بهذا؟ لم توافق على الذهاب معي، إنها عنيدة، أجابت: كلا، أشكرك، لن أترك الشقة».

تدوخني رائحة فمها:

«سآخذ ابنتي بحكم المحكمة وسوف تذهب أمكم لتشهد معي. هي قالت ذلك، إنها سيدة أمينة. سوف نذهب إلى البيت الريفي جميعاً. أنا في إجازة، الخطوط الفرنسية في حالة إضراب الآن. ألم تخبرك أمك أنّ جاك هجرني، وسرقني؟ سرق نقودي ومصاغي وبطاقات الائتمان... وابنتي. خنزير، وغد. لطالما حرّضتني أمك: أتركيه، هو لا يصلح لك. لكني لا أقدر على ذلك. لا، لم أعد أحبه، لكني أريد ابنتي فقط. هو خرا».

كانت أظافرها تنغرس في لحم يدي:

«مسيو أرجوك ألا تتركني. لم تتركني أمك أبداً. كانت تنتظر معي عودة جاك ليلاً. نقف على عتبة الرصيف في الليل ونتحادث. تراقب الطريق معي وتهوّن الأمور عليّ ونحن نراقب السيارات. هل تدري مسيو أنني اشتريت له سيارة جديدة، وبدلات، وأسهماً وسندات، وسجلت إحدى الشقق باسمه؟ جاك في سنك تقريباً مسيو آدم».

تحاصرني بين الجدار وذراعيها. شعرت بأنها تريد أن تجثم فوقي وأحست بأحشائها على وشك أن تخرج من فمها:

«لا يريد جاك أن يراني، يقول إنه مشغول. ابن الزانية»!

كانت نبرات صوتها تُسمع كأنين الحيوان وهي تخور بين يدي، بعدما سقطت على الأرض، تتوسل، وتشتم، وتبكي. جعلني صوت نحيبها ورائحة نبيذها أسحبها سحباً إلى النزل الصغير المجاور للعمارة. يرتجف بدنها بين ذراعي وهي تشبكني بين يديها. كانت أطول وأضخم مني، وأنا أحاول وضعها برفق على أحد الكراسي. طلبت لها القهوة المرة، وبدأت أتراجع إلى الخلف، وصوتها يطاردني وأنا في طريقي إلى المستشفى.

(٢)

وجه أنجليك وصوتها يلاحقانني. شعرت بخوف قاتل على سهيلة من صورة تلك السيدة. تذكرت صورة أمي في الأيام الأولى من إقامتنا في باريس. لم يعد بإمكانها إجراء أي حديث عابر أو تافه مع أيّ كان. ولا تجيب، كانت تظل صامتة حين أغريها بصفاء الطقس ودعوتها إلى أن نتمشى. لا تدري أين تضع نفسها في مدينة مثل باريس، تقول:

«لا أفهم ما يدور من حولي. لا، لا، ليس للأمر علاقة باللغة. لا تقدر اللغة وحدها على إصلاح ما حولك. اللغة وسيلة من الوسائل. كأنني بلا ذاكرة، بلا آباء، بلا أسلاف وبلا تاريخ. كأنني لم أحيا من

قبل، أعني، هل غادرت نفسي الأولى إلى الأبد وسوف لن ألتقي بها ثانية؟ خفت يا نادر ولا زلت خائفة، لكني لا زلت أنتظرها، هل تفهمني؟ أرجوك ألا تغضب مني، إذ لم ألاحظ، صدقني، أن ذلك المحامي كان يستلطفني أو يغازلني؟ إنه رجل لطيف، صديق خالك ويريد الإعتناء بنا. مهذب وودود، لكنه رجل مثلك، يشبهك، يشبه والدك، يشبه جميع الرجال في كافة أنحاء العالم. إنكم متشابهون. في هذه الحالة فقط أنا أصير أمك، ولست سهيلة. قلت لك ذلك من قبل، قلته بطريقة أخرى لا أذكرها. إننا نتغير وعليك أن تلاحظ ذلك في نفسك بالدرجة الأولى وليس فيّ فحسب».

كان هذا صحيحاً، شعرت بأنها على حق وأنا أدخل الردهة الخاصة بالمرضى أمثالها. كان وجه كارولين أول ما قابلت. وجه يمنح بعض الراحة التي افتقدتها هذا الصباح. كانت تلهث:

«إنها تتحرك يا نادر. لقد حركت أصابعها وجفنيها. إنها تتحرك قليلاً في البداية بالطبع. أيعقل هذا؟ هل حصل هذا من أجلك»؟

كانت تمشي بطريقة عسكرية وأنا أتبعها، لكن ما الفائدة، هل ستتعرف إليّ أم لا؟

«تصوّر يا نادر، الممرضات والأطباء قالوا إنها شعرت بك، من أجلك حصل ما حصل. أوه، إنها تعود، ستعود يا نادر، عليك أن تصدّق ذلك لكي تصدق هي أولاً. أليس كذلك؟ لا تهزّ رأسك هكذا كأنك لا تصدق. من الممكن أنها شعرت بك وحدك. إن أواصر الحب كما ذكرت الدكتورة وجد هي ما ينبغي علينا الاعتناء به. نادر، إن مشقة سفرك إلى هنا لم تذهب سدىً، ألا تثق بذلك؟ هيا تعال وادخل. ضع يدك ثانية فوق يدها، إن الحب يسري عبر الأيدي، من خلال النبض والعزيمة. ادخل يا نادر». ودفعتني إليها.

(٣)

بدت مختلفة. هي سهيلة وغيرها في آن. لم تتغير إلى درجة كبيرة خلال أربع وعشرين ساعة. لكني شعرت بأنها بدأت تلمحني، وتشعر بي، وأن جسمها وذهنها وما يدور فيهما ليس هو فراغ المرض. هو أمر لا يقتصر على الاتصال أو عدمه. سرعان ما شعرت بأنها كانت تقاوم. اقتربت كثيراً ووقفت عند رأسها. كانت الوسادة مبقّعة بعرق دافئ، وتنزل من بين شفتيها المتيبّستين بعض القطرات، لا أدري إن كانت من بقايا المغذّي، أم هو اللعاب الذي عاد وتنشّط ثانية؟ بقي مظهرها صافياً، لكن، كان لديها شيء ما في نومتها، شيء لا يخصني أنا باللذات. قلت، من الجائز أنه يخصها وحدها، أو يخص صديقاتها. ذلك الشيء الذي لا أعرف كنهه، كان يباغتني ولا أستطيع تفسيره. لا يُعقَل أن أكون شارد الذهن. عليّ أن أشبع نهمي إليها ورغبتي القوية في لمسها. أردت أن أبدو ابناً جديداً لكي أحصل على كفايتي منها، وكان هذا يكفيني في تلك اللحظات. لكن كل هذه العيون خلفي ومن حولي؛ الممرضات، والأطباء الذين دخلوا وخرجوا ولم يهتموا بي، كارولين، وأسماء وأصوات تتحدث بالعربية والفرنسية. تدندن، تتمخط وتبكي. هذا اليوم قررت ألاّ أبكي. الدموع في عيني لكني دفعتها إلى مكان آخر. أرتعش وأشعر بأن كبدي قد انتقل من مكانه. حالبي صارا تحت قدمي. إنني على وشك أن أتبول على نفسي، ولم تعد باقي أحشائي هي نفسها. هل بدأت تفكر فيّ، هل كانت تنتظرني؟ هل أنا موجود أمامها؟ لمستها ثانية وثالثة، شعرت بالحب، ذاك الإحساس الأول، الطبيعي، والفوري، والمفرط قبل فراقنا. لا يزال الساعدان مرميين على الجانبين، ولم ينكمش لحمها كما تصورت ليلة أمس. كان طرياً، يشبه الطين الاصطناعي وبه نمش. للمرة الأولى أشاهد كل هذه الكمية من النمش فوق الخدين، حتى حدود الرقبة وبجوار الأذنين.

ازداد النمش على جلدها فوضعت يدي بهدوء فوق يدها. سحبت الكرسي ببطء وأخذت أتأملها، لأول مرة منذ توقف الحرب. كان وجهها أمامي سخياً جداً. لم يبق مني يا أمي إلاّك. أصابع يدها بكاملها بين أصابعي. يداها اليسرى، واليمنى. شاهدتها تتململ أمامي، لستُ أبالغ بالتأكيد. لقد انقشعت الغشاوة عن عيني منذ ليلة البارحة. أسمع خطوات أحد الأطباء وهو يدخل، ربما هو الرئيس المسؤول. شعرت به خلفي ثم أصبح أمامي. ثمّة أمر ما يحدث وما عليّ سوى تصديقه وإلا فسوف...

حاولت الوقوف وأنا أرفع رأسي إليه. لا تزال كفها بين كفي. فجأة شاهدت في أسفل السرير كيساً من البلاستيك، لا أدري أين رُبط، لونه بلون اليود والسائل الأصفر يقطر على مهل.

«Bonjour monsieur!»

«Bonjour monsieur!»

كلا، لا يمكن أن يكون هو الطبيب المسؤول. شاب في ملامحه بعض العصبية، أكبر مني قليلاً. بدوت في انتظار ما سوف يقوله مشوّشاً وتائهاً. شعرت بأنه صغير جداً ولن يتمكّن من البوح بالحقيقة. تركت يدها وقمت. أخذ يقرأ اللوحة المعدنية المعلقة على حافة السرير، وبصوت لامبال قال:

«عال، عال، الأمور تجري على ما يرام».

«كيف»؟

قلت ذلك بصوت غير واضح. بعد برهة اقترب من جهتها فتحركت مبتعداً عن طريقه. أخفض رأسه وبدأ يراقب الكيس الموجود تحت السرير:

«جيد، الكلية تعمل ببطء، لكن الأمر لا يدعو إلى القلق».

«والضغط يا دكتور»؟

«مستقر. اليوم أفضل من ليلة أمس».

أنظر إلى ما ينظر إليه. اقتربت منه وهو ينظر إلى الجفنين والأصابع. لمسهما، حاول رفع الجفن الأعلى إلى فوق، ظهر البياض أمامي خطفاً، عاد الجفن بصورة آلية إلى مكانه. مد يده إلى يدها، بدأ يحرك الكف بين كفه، يفتح الأصابع ويطويها إلى الداخل في حركات دقيقة. يبدو أنه أفلح في شيء ما لا أعرف كنهه، عاد واستأنف قائلاً:

«هناك بعض التغير».

كان كأنه يخاطب نفسه:

«ما معنى هذا يا دكتور من فضلك»؟

أخفض عينيه عني، ترك كفها ووضع السماعة وبدأ بقياس النبض. لا أدري لم شعرت بأن أجوبته كانت لمجرد إسكات قلق طفل كبير. تجاهلت الأمر وأنا أواجهه تماماً. وجهان جديدان ظهرا قبالتي من خلف الزجاج من الخارج. شابة رقيقة وجميلة كانت تمسح عينيها، لكن الدموع تأبى أن تكفّ، وبجوارها شاب أسمر وسيم، ينظر إلى كل شيء من حوله بذهول وتأثر. وجدت كارولين وأسماء أمامنا عند مدخل الباب وأنا ألحق بالطبيب. أريد المزيد من المعلومات قبل أن ينصرف:

«لكن يا دكتور هل ستعرفني؟ أقول، إذا، إذا، أرجوك في حال تحركت هل... ستتذكرني؟ أرجوك أخبرني».

شحب لوني تماماً لكني تمالكت نفسي وأنا أشاهد ابتسامة الطبيب، كانت أسنانه صغيرة وبيضاء. ابتسامته لطيفة فغمرني إحساس بأنه سيفهمني:

«هل تريد أن تتذكرك أولاً»؟

لم أفهم، لم أعتد على هذا النوع من الأسئلة المحددة:

«أريدها أن تعود، أن تعود أولاً».

كان يسأل ويجيب، يتحدث عن أمور لا أعرفها ولا أفهمها تماماً. شعرت بأنه قاسٍ، أقسى منها عليّ. لا تزال في الغيبوبة وهذا الصباح لن يكون أفضل من ليلة أمس. ولكنّ أسماء أخبرتني عبر الهاتف إنها بدأت تتعافى، ودفعتني كارولين إلى غرفتها وهي تصرخ:

«إنها تتحرك».

لم تدعني أسماء ولا كارولين أذهب. أصرّتا على أن أبقى قربها، عسى أن يساعدها وجودي على أن تتعافى بسرعة.

قالت أسماء:

«اليوم لا يجوز أن نتركها ولا ثانية، عيني نادر امسح نظارتك الطبية، زين».

ابتسمت أسماء برقّة، لكن عينيها كانتا على وشك البكاء. اقتربت الآنسة التي لم أرها من قبل. قالت بحياء وهي تواجهني:

«شد حيلك يا نادر، أنا نور وهذا خطيبي أحمد».

صارا أمامي، في سني تقريباً أو أكبر بقليل. مدا يديهما وأمسك كل منهما بيد. قال أحمد «سترى أصدقاء لها من مختلف الأعمار».

قالت أسماء:

«أخذت اليوم إجازة من العمل، وعطلة نهاية الأسبوع. ثلاثة أيام، سوف ألازمك هنا حتى تملّ مني».

الأمل، في بعض الأحيان لا يرحم، تماماً مثل اليأس. اليأس لا يخدع، فلا تقدر على أن تلومه إذا مرت ساعة، تأخرت الساعات وضلّ السبيل إلى الأمل. كبير عليّ جداً هذا الأمل، فلا أستطيع تخيّله أو المبالغة فيه. انحشرت أسماء بعيداً عنا. كانت تقرأ بصوت خفيض

جداً بعض الآيات القرآنية. تنفخ الهواء من حولنا، وتستميت للحصول عليه أولاً. كانت ترى أنها الطريقة الوحيدة الصحيحة التي عليّ تصديقها وإلا اختل توازني وفقدت صبري. أسماء امرأة صبورة. كان الصبر هو عملها الإضافي الذي يبدأ منذ الصباح الباكر حتى اليوم التالي. تبحث عنه، وإذا ما عثرت عليه، تغمرنا به قدر المستطاع. كلما أراها أمامي، أشعر بأنني أدخل بيتي. سمعت وقع قدميها ثانية بجواري وصوت خشخشة أكياس، تفتحها وتسحب منها بهدوء وحياء:

«عيني نادر، هذا خبز العباس. أدري أنك تحبه كثيراً، وهي لا تجيد صنعه. عجنته البارحة بالليل، وخبزته اليوم الفجر بالفرن. تقول أمك: حمادة ونادر يتشابهان بالحلْية، الله يحفظكما ابني. يالله تعال عيني اجلس هنا».

أخرجت رغيفاً لا يزال دافئاً، تفوح منه رائحة البهارات العراقية. الفطيرة كلها هبت في وجهي وأسرعت بي إلى هناك. شعرت بأنني عراقي له قيمة ما، حتى لو كانت مختبئة ومعجونة في رغيف خبز يزيد من وحشتي، ويجعلني أرقب الطريق ما بين سهيلة وبغداد وهذه المضيفة الكريمة. أخذته من يدها بعدما التفتّت إلى كارولين ونور وأحمد:

«تعالوا عيني، ذوقوا خبز البيوت الأصلي. ما بكم، لماذا تخجلون؟ اقتربوا هيا».

قدّمت إلى كل واحد رغيفاً ثم التفتت صوبي وهي تبتسم. للمرة الأولى أرى ابتسامة عراقية في هذا المكان:

«والله بعرس أمها سهيلة لم تذق مثل هذا الخبز، ها عيني نادر. حضرت شاي بالترمس، أدري أنت ما تعرف تسوي فطور لروحك».

مدت يدها وبدأت تسكب الشاي في أقداح بلاستيكية، قدمت قدحاً إلى كلٍ منا:

«حصة حاتم ونرجس، بلانش والدكتورة وجد. يمه نادر، حتى إذا جاءت السيدة تيسا، فحصّتها موجودة. خبزت يجي عشرين رغيفاً. اللحم، ابني، حلال، من اللحام المغربي».

كارولين بجواري تقضم وتبلع في صمت وهدوء. شعرت بأنها تحسّ بنوع من السرور، وخمّنت أن هذا الشعور سينتقل إليّ بعد قليل. اقترب أحمد، تلاقت عيوننا وهو يبتلع اللقمة:

«إن احتجت أي شيء، ينبغِ أن تطلبه حالاً مني أو من نور. لدينا سيارة، ومعارف وأطباء من بلدَينا، السودان وسوريا، وأصدقاء في مراكز التأهيل والعلاج الطبيعي. أستطيع أن أقول لك شيئاً واحداً: إنها ستنجو وسوف تتأكد من ذلك. عليك فقط أن تتماسك، وتتحلّى بالصبر».

انتهيت من الرغيف الأول من دون أن أدري كيف. تصورت أنني فقدت شهيتي. قالت أسماء:

«ألف عافية. كُلْ، عيني الله يخليك، حتى تتقوّى على زمانك. كُلْ، أرجوك».

أخرجَت رغيفاً ثانياً، أدارت الملعقة بالقدح البلاستيكي وقدمته ثانية إليّ. كانت طريقة كارولين وأحمد ونور في الأكل لطيفة، وحاولوا أن يكسروا بمرحهم السكون والانتظار.

[١٦]

حركة في الممرات. وجوه جديدة لأطباء وممرضات. آلات لم أرها من قبل تدخل. الجميع موجود في غرفتها. نهضنا ووقفنا أمام الحاجز الزجاجي. لم تعد أمامي تماماً، كانت بعض الشقوق في الستائر تسرّب إلينا بعضاً منها؛ لا تزال مستلقية على ظهرها. أُزيحت الوسادة قليلاً من تحت رأسها. كانوا يلمسونها من كل جانب، لا أحد يدير رأسه إلينا. وضع أحدهم يده على جبينها وفتح الآخر عينيها. تتحرك الأذرع كأنهم يداعبونها. أضافوا سائلاً جديداً في الأنبوب. الممرضة تنحني وتقوم واقفة وبيدها كيس البول، وضعته في صحن معدني عميق وشبكت آخر. يتذكرون شيئاً ما فيعاودون القيام به. شاهدتنا، في تلك اللحظة، الممرضة من خلف الزجاج، فوقفت بسرعة، وتوجّهت نحو النافذة، وسوّت الستائر الكتانية تماماً، فاختفت سهيلة عنا. ابتعد أحمد قليلاً وتبعته أسماء. قالت كارولين بلطف:

«أظن أنهم يغيرون بعض الآلات، يتحققون من كل شيء وسوف يخبروننا بعد قليل. لا تقلق».

«ألم تلاحظي أنهم لم يطلبوا لا مني ولا من أي واحد منا الدخول؟ ما معنى هذا؟ هل هو فأل جيد أم العكس»؟

«أظن أنها بدأت تتحرك، أعني، أنها تحركت بطريقة ما. لقد شاهدوا ذلك عن طريق الأجهزة الموجودة لديهم. نادر، إنها لن

تتحرك في الوقت الحاضر مثلنا. تكفي رمشة العين، أو انتظام النبض أو عودة الضغط إلى حالته الطبيعية. ثمة تفاصيل لا نعرفها».

«مسيو نادر...»

كان صوت الممرضة شارلوت وهي تمد رأسها. وجهها هادئ وصوتها ينمّ عن بعض الثقة:

«تعال من فضلك مسيو، تفضل».

أفسحوا لي الطريق القصير ما بين الآلات وفريق الأطباء وسريرها. لم أسمع أي شيء في بادئ الأمر، إلا أن طبيباً أكبر سناً وأكثر جدية كان يقف بجوار الطبيب الشاب:

«هل تريد التحدث بالإنكليزية مسيو»؟

«كما تشاء دكتور».

ابتسم ابتسامة بطيئة كما لو كنا في صف جامعي:

«انظر كما تشاء مسيو».

نكست رأسي قليلاً وأنا أشاهد زجاجات وخيوطاً وأسلاكاً. وضع الدكتور يده في جيبه واقترب مني في حركة ودودة:

«من السابق لأوانه أن أقول لك إنها ستتعرف إليك مباشرة». لكن لا بدّ من القول إن الأمر أشبه بأعجوبة. من الناحية الطبية، قد يحصل هذا على الأقل بعد أسابيع، أعني بعد استقرار الحالة والانتقال التدريجي خلال شهرين أو أكثر إلى ما وصلت اليه اليوم. إن إصابتها بالغة. حين دخلت إلى هنا، لا أخفيك، كانت حالتها معلّقة ما بين الموت والشلل النصفي».

«هلاّ شرحت لي الأمر يا دكتور من فضلك»؟

«لا أدري إن كانت لديك بعض المعلومات الطبية البسيطة. فالحالة معقّدة، لكني سوف أشرحها قدر الإمكان. لقد تسبّب ضغط

الدم العالي بنوع خفيف من الارتجاج في الشرايين التي توصل الدم إلى الدماغ. حصل نزف ومن ثم توقف. ثق لا ندري متى توقف. ففي الشرايين والأوردة، ثمة أنواع من الأكياس تحتوي على الدم، وحين يزداد الانتفاخ، تصبح إمكانات التمزق والنزف أكبر، وتتسبّب بهذه الحالة. يُطلَق على تلك الأكياس تسمية لطيفة «أمهات الدم»، وقد يصيب الشلل واحدة من تلك الأمهات، أي انسداد في الشريان. والوضعية كما تراها، حالة بين فقدان الوعي القوي والغيبوبة».

«و...»

كانت دموعي تبلّل وجهي بصمت:

«لقد نجت مسيو نادر. هي تسمعنا على الرغم من أنها مغمضة العينين. يمكن حصر الاختلاط الذي أصاب عينيها، بارتفاع ضغط العين العالي الذي قد يضرب العصب البصري. هذا احتمال هو الأصعب في الوقت الحاضر. لكن المفاجأة، أن السكّر حافظ على معدله، ولو ارتفع لكانت الحالة سيئة جداً».

كنت واقفاً أنقل بصري بينها وبين الباقين بعدما ابتعدت الممرضات قليلاً عن طريقي. انحنى الطبيب من الطرف الآخر من السرير وبدأ يتفحّص جفنها الأيسر. كانت هناك رجفة صغيرة في محيط عينيها:

«أمسكْ بيدها مسيو من فضلك».

أول مرة أخاف ولا أقوى على لمسها. أول مرة منذ طفولتي، أشعر بأن ليس بمقدور أحد أن يفرق بيننا. لم أرفع رأسي عن كفها. كانت حركة الأصابع تشبه لغة الأم الأولى؛ تتحدث العربية، نتبادل السلام والكلام، كما يتم ذلك بين أفراد العائلة الواحدة. هل تسمعينني جيداً يا أمي؟ الأدوار تتبدل. لم يحدث أن أتكلّم وهي لا تجيب. اليوم هي لا ترفض، تجيب، لكن بوهنٍ شديد. أنظر إليها وكفّها يحدّثني:

لهجتها لم تتوضح بعد، لكن لا يهمّ. أنظر مباشرةً في وجهها. رفعت القناع الذي كان يضخّ لها الأوكسجين وبدت راحة كفها كأنها تريد تذكر اسمي. كان اسمي بين أصابعها وأنا أجمعه حرفاً بعد حرف. أول مرة أعرف أين اسمي، أول مرة أحب اسمي وأكون راغباً فيه. أتعرّق وهي بدأت تتعرّق أيضاً، كان عرقنا هو الذي يجيب بدلاً منّا. رفعتُ كفها إلى خدي وأنا أتأمل وجهها. أرقب حركة شفتيها، تبللت أصابعها بدموعي. في المستشفيات، لا شيء يُنجدنا ويجمعنا إلا ماء العيون.

«مبروك مسيو».

قالت شارلوت ذلك وتبعتها دانيال وهما تخرجان من الغرفة.

«ستكون الزيارات متعبة جداً لها. يُفضّل أن يكون في الغرفة شخص واحد فقط ولدقائق معدودة».

كان الطبيب يتحدث بصوت خفيض وهو يقف خلفي. قمت على مهل وأنا لا أفهم ما طلبه بالضبط.

«ستكون الأمور مشوشة بالطبع. ستحتاج إلى وقت طويل كي تتوضح الصور والمرئيات لديها، هكذا ستشعر في البداية. سنكون بالقرب منها كي لا تجفل، إذ سترى الموجودات إما مضخمة جداً أو صغيرة جداً، وما علينا سوى أن نحاول ترتيب الأشياء من حولها أو إعادة ترتيبها، أولها أنتم، ابنها، وأصدقاؤها. كما في الأرقام، علينا استعمال الكسور في البداية قبل الانتقال إلى الأرقام التامة وفي جرعات ملطّفة. أنت من سوف يساعدنا على ذلك ومن تراه مناسباً من أصحابها في حالة غيابك. لكن على مراحل وفي أوقات مختلفة».

كانت كلماته قاطعة لكن حنونة.

سألت:

«هل عليّ أن أخرج الآن»؟

كأنها كانت تعاني صعوبةً في النوم فقط، فنامت هكذا. عيناها

هما المنطقة الآمنة بالنسبة إليّ، إذا ما فتحتهما فسوف أتعرّف إليها. أما هي، فلا يزال الوقت مبكراً. هز الطبيب رأسه قائلاً:

«الضوء هو الآخر صعب عليها، والظلام كذلك. الأصوات المرتفعة والخافتة جداً. الضجيج والهدوء. العزلة وضجة الناس. قد ترفض في البداية الاستجابة للعلاج إذا ما شعرت بأمورٍ سيئة».

«مثل ماذا دكتور»؟

«نفسياً لا ندري، لكن ما ذكرته لك هو ما بوسعنا تأمينه لكي يمرّ أول أسبوعين على ما يرام ونعثر على شيفرة حياتها الجديدة».

بدأ يتمشّى أمامي. وقف بجوار النافذة. كانت الستائر من نوعين. تنبّهت لها الآن؛ الأولى عبارة عن شرائط رقيقة جداً من المعدن، والثانية من القماش السميك المبطّن بالمشمّع. حرّك الشرائح بهدوء، فتسرّب بعض النور الخفيف وسقط على رأسه ونظاراته الطبية.

بادرته:

«وماذا عن الطعام يا دكتور»؟

«سوف تتذمر منه في البداية لأنها لا تستطيع فتح فمها كما في السابق. لكن بفضلك من الجائز أن تتناول بعض الأشياء. ماذا تفضّل من أطعمة»؟

أجبت بردة فعل قوية: «كل شيء».

ابتسم الطبيب لأول مرة، وأنا أيضاً.

حدّد لنا الطبيب الواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتقنا. وقف بباب الغرفة واقتربت منه الممرضات، وأسماء، وكارولين، ونور وأحمد وسيدة أربعينية، لم أرها من قبل، بيضاء البشرة، تضع نظارات طبية وفي عينيها كلام كثير. كانت تحمل صندوقاً بداخله أصيص لنبتة غريبة الشكل. شجرة كاملة، قصيرة لكن متجذّرة ومدفونة عميقاً في

التربة. لبرهة، تصورتها تشبه سهيلة تماماً. وقفت السيدة أمامي مباشرة، وهي تقدم النبتة إليّ:

«صباح الخير مسيو نادر. أنا سيمون صديقة تيسا هايدن ووالدتك».

تصافحنا، كانت الشجرة ثقيلة وأنا أرفعها باليد الأخرى. اقتربت كارولين مني:

«هي سكرتيرة تيسا وصديقتها الشخصية».

«أهلاً مدام، شكراً جزيلاً».

وقف الطبيب في الممر يلقي بتعليماته والممرضات يكتبن. وصل مساعدان جديدان واتّسعت الدائرة، عمّ السكون واتجهت الأنظار نحوه مباشرةً. سرنا بهدوء ووقفنا بجوارهم. كانت نبرة الطبيب هادئة وهو يوجّه الكلام إلينا جميعاً. ينظر إلى هؤلاء الأصدقاء ثم يحوّل بصره إليّ بشكلٍ خاص. شعرت بأنه يوليني بعض الثقة. لا أحد يجيب، ولا أحد يسأل. وحده الذي يقرّر، وما علينا سوى أن نبدأ كل في اتجاه. صوته حازم، كلامه كالبرقيات، لم أفهم معظمه؛ مجموعة من المصطلحات الطبية البالغة التعقيد. أين الدكتورة وجد؟ لماذا تأخرت؟ حين بدأ يتحرك تقدمت منه السيدة سيمون، أمسكت رسغه بحركة أليفة كأنها تعرفه. سارا ووقفا بعيداً، تنحني برأسها عليه ثم ترفعه، وصوتاهما لا يصلاننا. أنظر إلى النبتة بينما تقترب كارولين مني:

«أظن أنها تحادثه عن سهيلة. ربما تنقل إليه توصيات تيسا».

تدخّلت نور وكانت مرتبكة. بيدها منديل تمسح به عينيها وتلتفت إلينا:

«أعتقد أنهما يتحدثان عن سهيلة. هل ستنتقل من هذا القسم إلى مكان آخر»؟

أجاب أحمد:

«هذا سابق لأوانه في الوقت الحاضر».

عادت أسماء إلى الحاجز الزجاجي وتسمّرت هناك. كانت لا تتوقف عن الدعاء وترتيل الآيات القرآنية. بدأت الممرضات بالدخول مجدداً، وأسدلن الستائر تماماً. اقتربت أسماء ووجهها لا يزال متأثراً:

«عاد همه راح يبدأ الغسل والتعقيم والتنظيف. آخ، لو يخلّوني، آني أعرف شتحب سهيلة همه. مساج طويل على الرأس واليد حتى تفتح عينيها وتشوفني أول وحدة من الحبايب».

صمتت وهي تنظر إليّ بعينين حانيتين من تحت نظاراتها الطبية.

«يا للشجرة الجميلة». علّقت كارولين لتخفف عني. رفعنا رؤوسنا إلى البطاقة الأرجوانية الأنيقة وأخذنا نقرأ بصوت منخفض:

«إلى سهيلة، صديقتي المتجذرة عروقها في روح العراق مثل هذه الشجرة. فلتسمعي نداءاتنا وصلواتنا. عودي إلينا فكلنا بانتظارك».

«يا للكلام المؤثر».

قالت نور واقتربت. أخذت البطاقة، دنت من أحمد وأخذ يعيد قراءتها.

«تشجّع مسيو نادر، اجتازت أمك المرحلة الدقيقة من مرضها، وحسب ما شرح لي الدكتور ينبغي ألّا نزعجها».

التفتُّ إلى السيدة سيمون كما التفت الجميع إليها:

«أشكرك مدام على حضورك وحملك هذه النبتة البديعة، كما أشكر مدام تيسا على هذه المودة الطيبة».

صوتي يرتجف فلا أقدر على أن أواصل كلامي. اقتربت سيمون، مدت يدها ببطاقة صغيرة. كان صوتها دافئاً جداً:

«أرجوك أن تتصل بتيسا. لقد تركت لك ولسهيلة رسائل عدة على

جهاز استقبال المكالمات، لكنها لم تتلقَّ أي رد. إنها لا تزال في الجنوب الفرنسي، وسوف تعود في الرابع من سبتمبر إلى باريس. لولا كارولين لما علمنا أنك وصلت من كندا. تيسا على اتصال مباشر بفريق الأطباء والمسؤولين وسوف تتحدث معك. لا تقلق أرجوك. أمك ليست وحدها. عليك أن تثق بذلك».

كانت كلماتها مؤثرة:

«سوف تخبرك كارولين...»

«أعرف تيسا من خلال سهيلة وكارولين بالطبع. شكراً، شكراً جزيلاً مدام لحضورك».

شعرت بأنني عاجزٌ تماماً عن التعبير. لا تزال النبتة بيدي، أحسست بأنّ الدموع تكاد تنفجر من عيني. قدّرت سيمون ذلك وهي تمدّ يدها مصافحة. كان كل منا يتمتم بعبارات غير مفهومة. ابتعدَت بعدما صافحت الجميع.

«تعال اجلس عيني نادر. أعطني هذه النبتة. ثقيلة شوية ها»؟

قالت أسماء ذلك وهي تقرأ البطاقة، وبدأت تشمّ بعض البراعم التي تفتّحت على بعض الأغصان الصغيرة:

«أنا من سيحملها ويضعها بجوار رأسها بعد قليل».

قلت ذلك وجلست على أول كرسي واجهني. كانت قاعدة النبتة على شكل مربع، مصنوعة من مادة غريبة، منقوشة بوجوه وزخارف صينية. ليست من الفخار ولا من البلاستيك، لا أعرف ممَّ صُنعت. لونها أخضر غامق، محدّد بإطار مثل السياج الذي يحميها، والنبتة شجرة لها جسم وأوراق وجذور. ليست نسخة من شيءٍ آخر. شجرة أصلية على شكل مروحة مفتوحة، أغصانها ليست جديدة، بل على العكس؛ قديمة، وقوية ومتناسقة. تنحني بسيقانها وهيكلها وتتجه إلينا.

بعض زهورها تتعالى كأنها تريد الوصول إلى القمة. لم أرَ شجرة مثلها من قبل. كلما أدير رأسي وهي بيدي، تحافظ على توازن رشاقتها، وتتكيف مع حركة يدي ويعود ثقلها إلى كفي. شاهدت تيسا أمامي قبل التعرّف إليها، قدّرت نبل عاطفتها وهي تحدثني عن أمي:

«ستعود يا نادر، ستعود. هي مسافرة فقط. كأنما أرادت عزلة ما لكي تعود وتتكيف من جديد معنا ومع نفسها».

كنتُ لا أزال متشبثاً بالنبتة. كأنما هي صلة وصل بيني وبين ما انقطع من جذوري. كنتُ أمسكها برفق، كأنما فيها بعضٌ من روح أمي ووطني الذي غبت عنه طويلاً.

لاحظت كارولين حالتي تلك.

اقتربت مني وقالت:

«هذه النبتة لا تحب الماء الكثير، نرشّها برذاذ الماء أو بخاره، بضع مرات في الأسبوع، وسوف تعطي نوعاً من الزهر الرماني اللون. يمكنك أن تتذوقه. طعمه كالسكر. هكذا أخبرتني سيمون قبل قليل».

[١٧]

فكرت بسونيا وليون، وتذكرت وجه والدي. ظننت من قبل أنني نسيته، لكن ذلك لم يكن صحيحاً، وغير ممكن. كان يتحتّم عليه أن يكون بجواري الآن. جميع هذه الوجوه التي تروح وتجيء، أيديهم دائماً تحمل شيئاً ما، نظراتهم رقيقة، مشاعرهم حنونة لكن، ليس هؤلاء من أريدهم وأنا استدير إلى الطرف الآخر من الممر الطويل. المرضى القليلون في هذا الجناح، يبقون أياماً بدون زيارات، بدون أهل ولا صداقات. يا لصديقات سهيلة المحبوبات. شاهدت الممرضات يخرجن واحدة تلو الأخرى، يحملن دلواً، وشراشف، ومناشف، وثياباً وأشياء لا أعرف ما هي. ماذا فعلن في الداخل؟ كانت عيونهن تحمل رسالةً ما، هكذا شعرت، قلن: إنها تغطّ في سباتٍ عميق وعليك أن تسمع صوت شخيرها. قلن ذلك بلهجة ساخرة. كنّ واثقات بطريقة انتقلت إليّ، فقمت وسرت إلى غرفتها:

«هكذا ستكون مسيو، تحضر وتغيب لكنها تعود أكثر».

كانت هادئة، تموه عليّ ثانية، تصلّني كالسابق، تتركني:

«لا تكن هكذا يا نادر. يجرحني كلامك، لماذا تحاول دائماً إيلائي، ها، لماذا»؟

كنت أتركها وأجري إلى الخارج. أهزأ، وأقسو وأسخر. كيف علّمتني على الرشوة فبدأنا نتبادلها:

«ابني نادر وسّعتُ لك غرفتك أكثر من السابق. أخذت من الحيز الذي أشغله وأضفته لك. ألا ترى؟ صار مكانك أوسع، تعال وانظر».

أتأثر من كلامها لكنني أبتعد عنها:

«لقد صحّحت ما كان عليك فعله من قبل».

كانت تشعر بأنها تهدي إلي هذا المكان الذي لم يكن، لا لي ولا لها. تزيّنه، وتهوّيه وتنظّفه:

«لكي يكون له معنى. لماذا أنت حزين عيني، كأن هناك ندماً ما في عينيك. هل لأنني غيّرت لك الديكور قليلاً؟ يصبح المكان عزيزاً علينا، فهو يشهد أسوأ لحظات حياتنا وأجملها. المكان هو الذي يستعملنا، لا نحن، وعلينا أن نمنحه شيئاً ما، لا أدري ما هو، كي يساعدنا، كي لا يصاب مثلنا بالمرض. علينا ألاّ نتخلى عنه فندعه يموت كما ماتت أمكنة كثيرة من حولنا».

تجلب بغداد دائماً إلى كل مكان عشنا فيه لكي تحتمل، لكي تبقى ولا تموت. إذا كان ثمة شيء صرع سهيلة فهو بغداد. والجدار يعلو في ما بيننا:

«أفعل كل شيء من أجل مصلحتك، لكنك تلومني. لست عدوّتك يا نادر، ولا والدك كان ألدّ أعدائك».

يا للأمهات الطيبات! يردّدن تلك العبارات المضحكة ببراعةٍ عجيبة: من أجل مصلحتك، من أجل المصلحة العليا كما كان والدي يردّد دائماً. كانت المصالح نهايتي ونهاية سهيلة ونحن نجرجر أقدامنا من مكان إلى آخر؛ من المنفى إلى المستشفى، من المكان المحبوب إلى المكان الخطأ. جميع المحبوبات سوف يصفّقن، ويقلن لها: أنت على صواب يا سهيلة، وحين تستيقظ تنظر إلينا:

«أتوق إلى لمسة حنان من الأبناء القساة».

لكن ما نفع كل هذا وأنا أكاد أسمعك وأنت تصدّين وجهك عني وتقولين:

«اذهب وكل نفسك»!

فأصير مثل المكدي، ذاك الذي كان يحضر إلى بيت جدي في بغداد، ذليلاً خوافاً. إذا أكل يتمارض، واذا جاع يخجل من خياله فيتعب أكثر. صرت المتسوّل الذي ينتظر عيدية واهبة غريبة، اسمها أمي. تحولت على مرّ الأيام والأعوام إلى شحاذ من نوعية ممتازة، فكنت أصمم مجال الشحاذة. أكدّس لها شرائط الفيديو لأفلام الأربعينيات الأميركية التي تعشقها، كي لا تخرج مساء إلى دور السينما. أحضر لها الاستمارات من المكتبة المركزية في برايتون لكي توثق البحوث عن الأسرى وتوفر بعض الوقت لي. أبحث في الأسواق الشعبية عن الأقداح العتيقة للنبيذ، وأسطوانات البلوز والجاز وأعود بها إليها. دائماً أعود من الجامعة وأنا أجري، أقفز الدرجات وألهث. بيدي باقة ورد، وخضار ريانة أشتريها من البائع الباكستاني، بينما هي قابعة بالداخل مهمومة، ومكتئبة، لا أثر للدموع في عينيها، تقول:

«خلصت دموعي، خلّصتها عليه، عليهم كلهم».

كنت أرى آثاره فيها وأنا أدخل غرفتي، والحمام، والمطبخ. أغتسل وأشاغبها، أدندن مثلها لكي أقترب منها. يتغيّر مزاجها وتردّ:

«أنا خادمتك عيني وأنت أناني يا نادر، أي والله أناني بطريقة صحيحة مئة بالمئة».

تردد اسمي باستمرار وتواصل:

«لو كنت أكثر شباباً من قبل، لو كنتَ أنت أمي وأنا ابنتك، لو بقي والدك آخر وأول رجل مربوط فيّ، على جسمي، يأخذ خيوطي ولا يدقّق فيها، لو كان حليبي الذي أرضعتك إياه قد سرى في عروقك كالدم، لما حدّثتني بهذه الطريقة القاسية».

كانت تسرف في الحب، وتُرغمني عليه وتريد أن تسمع ذلك كي أقول لها:

«دعيني أرَ أسنانك وأنت تبتسمين».

تغيظني بالحب وتنساني به. لا أحد مثلها يحب الإسراف.

صاحت:

«نـ...»

صُعقت ورفعت رأسي اليها. العينان نصف مفتوحتين ونحن معاً، وجهاً لوجه.

«نعم يا أمي إنني هنا بجوارك. إنه مجرد حادث عارض يا أمي».

قوي صوتي وعلا أكثر:

«كلنا هنا، أنا وصديقاتك جميعاً».

شاهدت الشعر الأبيض في صدغيها. لقد غزاها الشيب منذ تركنا بغداد. قالت لي يوماً ونحن في برايتون:

«لن أدعه أبيض تماماً، سأصبغه وأبدو متنكرة. ها، ما رأيك»؟

أنا من سيعيد صباغة شعرها هنا، سأفعل هذا مع بلانش، وأسماء، ونور، ونرجس.

كانت تبدو لطيفة وهي تسبقني في الخروج إلى المكتبة الكبيرة. ينتظرها السيد كن بسيارته في الساعة الفلانية ويعيدها قبل عودتي من الجامعة. تحضر أوراقها ليلاً. هكذا عملت مع مسيو ألن، المحامي الفرنسي، صديق خالي ضياء. ملامحه مريحة جداً. قال لنا حين شاهدَنا أمامه في مكتبه في حي الأوبرا في عمارة قديمة، وكانت الساعة الرابعة عصراً، إنه يحمل تعليمات مشدّدة من خالي بأن عليه صيانة حياتنا ومصيرنا.

فور مغادرته إلى أفريقيا، بدت المهمة صعبة، بل مرعبة بالنسبة

إليّ. فالعلاقة بيننا، أنا وسهيلة، توترت لدرجة لم أصغِ فيها إلى أي نصيحة. تشبه وصفة خالي حقنة منشّطة بالأمل الوحيد المتبقّي؛ أنا من سوف يتولى حراسة أمي، كأنها جثة من شمع معروضة في قبو مظلم، تنتظر خدماتي طوال اليوم، لكي لا تذوب من الحرارة والإهمال والعفن. لم أكن متحمساً لهذا الأمر كثيراً، فلا يزال خالي يعتبرني مراهقاً وسخيفاً، وما عليه سوى توبيخي عن طريق هذا المسيو. كان يوجه حديثه إليّ بشكلٍ خاص. سألني عن دراستي وخبراتي في الأمور العملية؛ النجارة، والبناء والبستنة. حديثه ودود كما علّقت سهيلة في ما بعد. استفزّتني طريقته في التعارف: يسأل السؤال مرات عديدة، لكن بطرق مختلفة لمعرفة مزاجي، وقدراتي وطبيعة أفكاري. لا، هو لم يقدّم إليّ النصائح كما تفعل سهيلة، لكنه لم يصغِ إليّ بصورة جدية، أو يدعني أرتّب أفكاري كما أشاء. كان يشبه مسؤول الحزب في مدرستنا في بغداد، شعرت أمامه بأنني تلميذ فاشل. أثارت أمي إعجابه بشخصيتها الصامتة، وأراد أن يحظى بإعجابها أولاً، لكنه لو زاد عن الحد، لشعرت بالغضب. كانت ترتدي ثياباً سوداء وتضع شالاً رصاصي اللون غطّى رقبتها وتدلّى فوق كتفيها، وتمشي بحذاء واطئ. لقد اختارت كل شيء بعناية تامة، كأننا سنقابل أحد السفراء الأجانب. فهي تفضّل أن تبدو في منتهى الكلاسيكية. قلّدتها في البداية. ارتديت بذلة كاملة تظهرني أكبر سناً. كنت على مشارف السادسة عشرة، لا أعرف أصول التصرف، إنكليزيتي مضحكة والمسيو كان يقدّر ما يبعدني عن الأجوبة الجريئة أو المحرّمة، التي كنت أحضّرها كنوع من نشاطي الرجولي المبكر. حاول أن يعزف لوالدتي مقطوعات هادئة وهو يحدّثها عن الحفلات الموسيقية، والراقصة، وألحان الفالس، معدداً لها المسارح والقاعات والفرق التي يذكرها:

«نحن هنا في الأوبرا ونستطيع أن نحجز منذ الآن للحفلة القادمة، ها ما رأيك»؟

أزعجني لأنه لم يضعني في دائرة اهتماماته. كانت طريقته تلك، كمن يوجّه إليها الدعوة تلو الأخرى للذهاب إلى تلك الأماكن ويصحبته، وهي لا تفتقر إلى المعلومات الأساسية عن جميع هذه الأجواء. كانت مشبعة بالمسرح وعطشى له:

«طبعاً، في ما بعد، لم لا، سنذهب في أحد الأيام. إنني أعشق المسرح، لكني أفضّل الاستقرار قليلاً الآن كي أعرف الأرض التي أقف فوقها. أجل، شكراً مسيو».

تذكرت ما قالته لي عن استعدادها للعودة إلى الرقص أو تقليد بعض الراقصات القديمات السومريات والبابليات، بعدما تعرّضت للضرب من والدي. كانت على وشك أن تقول ذلك للمحامي. في تلك السنين، ونحن في بغداد، عندما تبدأ بالتمسيد وتدليك ساقيها، كنت أراها على تلك الهيئة، وذلك حين أعود من مدرستي عصراً. أشاهد بعض الرضوض على بدنها، لكن أجوبتها كانت قاطعة:

«تصوّر يا نادر، كادت يدي تُكسر وأنا أتسلق درجات السلم الخشبي لكي أرتّب لك خزانتك. أرجوك كفّ عن جمع تلك الملصقات، والتسجيلات وصور بوب مارلي، والفرق التي لا أعرف أسماءها. ما هذا، غرفتك تشبه محلاً لبيع التسجيلات والبوسترات».

تحاول أن تتحرك أمامي بصورة عادية في المساء، إلا أنها تشعر بإرهاق شديد. تدخل غرفتها وقلقي عليها يلاحقني كظلّي. كانت تمثّل أمامي وعليّ، كانت تمثّل عليه وعلى نفسها. هل ما أراه الآن تمثيل أيضاً؟ هل تحدثت مع خالي عن تلك الأمور فقصّها على مسمع ألن المحامي؟ هل كانت وظيفة المسيو العلاج، وصفة طبية تساعدها على النوم وتبدّد مخاوفها؟ كنت أرد عليه بدلاً منها:

«تصور مسيو، حاولنا تأليف فرقة موسيقية من الصبيان في بغداد.

وافقت أمي على تحويل إحدى الصالات إلى قاعةٍ للتدريب والعزف، لكن والدي رفض الأمر بصورة قاطعة».

عندما قلت له إنني أعزف قليلاً على آلة الغيتار، أصيب بدهشة لطيفة. شاهدت للمرة الأولى تلك البسمة الهادئة الطيبة على وجهه. لقد بدا الأمر مجرد دردشة بين أصحاب يحاولون الاقتراب بعضهم من بعض، ثم تحوّل الحوار في ما بعد إلى مواضيع حول الشقة، والراتب، وإن كان دوامي في المدرسة العراقية أفضل أم في المدرسة الفرنسية، وحول دخول سهيلة إحدى مدارس البلدية لتعلّم اللغة الفرنسية وأشياء أخرى عديدة. الساعة تقارب الثامنة مساء وما علينا سوى التوقيع على الوكالة التي تمّت قراءتها بصوت مرتفع. لم يعلق أي منا عليها أو يضيف، يعدّل أو يحذف أي شيء. ما عرضه خالي كان مناسباً، وقالت أمي: عادل. حوّلت إرثه والقليل من إرثها إليه من دون علم والدي: «إنه لك بالدرجة الأولى يا نادر». حين سمعت ذلك منها، شعرت بأنني صرت مسناً كوالدي، لكني لن أكون كما يشتهي؛ شاباً ثورياً نافعاً ومفيداً. كان شكلي عادياً، أطارد الفتيات اللطيفات وهنّ يفعلن ذلك معي ومع غيري. فتيات تلك المناطق في بغداد التي يسمّيها صديقي حسين، «قصور الفوق»، أصحاب المقامات العالية والمراتب الرفيعة. فكل شيء في تلك القصور كان يعمل أوتوماتيكياً، الأضواء، والأسرّة، والأبواب والأجسام، أما تلك القصة العجيبة التي سمعناها في أحد الأيام، فقد بقينا نرويها ونستعيدها لفترةٍ طويلة، عندما تردّد إلى مسامعنا أن أحد الوزراء كان ينزل إلى بيت زوجته الجديدة بالمروحيّة خاصته. قال حسين: لا، إنها ليست زوجته، هي يعني، ولم يُكمِل. كنت أتمنى أن أسأل والدي عن تلك القصة ونحن نتناول الطعام مثلاً، أو نشاهد التلفزيون. أحضّر نفسي لبدء القصة لكني لا أجرؤ، أخاف إن بدأت ألاّ أعرف إلى أين سننتهي. سنفترق، ربما إلى الأبد؟ كنت أحضّر نفسي لفراقه، كان بمقدوره فراقنا، سهيلة وأنا،

أياماً وليالي، وحين يحضر لا نستطيع لقاءه، فنفترق مجدداً. لا أمل في أن يكون لي أب حقيقي يحضر، يفتح الباب عليّ ويحدّثني بهدوء عن أشياء قليلة، وبسيطة، وسخيفة وعادية وغير ثورية. يحدثني عنه وعني، عن الفتيان اللطفاء الذين لا يعرفون الكهرباء التي تنبعث من أجسامهم وهم يقابلون الفتيات، عن الدموع التي أريد أن يكفكفها لي، ولا يجعلها تندفع بعيداً عنه وعنها. حين أبدأ بالبكاء لا أتوقف، لا أعرف ماذا أقول، لا أقدر على أن أناديه «باباه». عندما كنت أردّد هذه الكلمة، كانت تشبه اللكمة القوية التي تعيدني إلى الأرض القاسية. كنت أحصي المرات التي ناديت فيها أبي، كما لو كنت مصرفياً يعدّ نقوده، فأعرف أنني مفلس وخائب.

سمعت صوت أمي مرة ثانية:

«نـ . . .»

«ماما، انظري إليّ الآن، إنني بجوارك يا أمي. كلنا نريدك أن تعودي. سوف أعزف ونغني لك. قومي يا أمي، تحركي أرجوك».

لم تكن أمامي فرصةٌ أخرى كي أقول لها ما أريد. يستحيل عليّ ذلك إلا وهي مريضة. أترك يدها، أقوم وأقف، أمشي، وأدور في الغرفة. أمي أنت بلا قلب، حدثيني قليلاً. حاولت الاقتراب منك، لطالما حاولت ذلك، لكنك لم تسهّلي الأمر عليّ. لماذا يا سهيلة، لماذا؟ وها أنا أشتمك ثانية.

[١٨]

(١)

حددنا الأعمال الملقاة على عاتقنا من دون أن نخطّط لها. أحضر كل صباح وأقول إنه صباح لا يشبه الصباحات التي فاتت. يرتفع الجفنان، تنظر إلينا ثم تغلقهما فجأة. تحس بنا فتحرك رأسها باتجاهنا ونحن نقف من حولها. نحمل الأزهار بيد ونقرّبها من أنفها، نشعر بأنها تشم بعينيها. نقرأ لها البطاقات، كانت تيسا تبعث يومياً باقة من الزهور تختلف عن اليوم السابق. تكتب: سهيلة، نحبك دائماً. أزهار لا أعرف أسماءها، مرحة وجميلة. تقول لها بلانش وهي تضحك في وجهها بعد أن تقبّلها على خدها:

«ليست كل الأزهار من تيسا. هذه من ابنتي مايا وزوجي سلوان. هذه وردة حمراء واحدة جميلة لم تتفتح بعد، من جليلة التونسية، تذكرينها؟ تلك المرأة التي كانت تكتب اللافتات الفرنسية ضد أميركا وترفعها في المظاهرات. باقات من جارتك مدام مورينو، من كلارا، مسؤولة السكن في مسرح الشمس. حتى من لندن، أرسل الدكتور حافظ زميلك باقة كبيرة وبطاقة جميلة تقول: انهضي يا سهيلة، النهوض امتيازك وسمتك. وهذه، شوفي معي لوحة من ورق أنيق رسمت عليه سوسن وجهك كلّه مقنّعاً بقناع من ضوء الشمس. باقات

من أحمد خطيب نور، ومن حمادة ابن أسماء. أين سنضع كل هذه الزهور، ها عيني قولي لنا رجاءً؟

إذا دخلت بلانش أبقى معها لثوانٍ ثم أغادر. كنت أشاهدهما من خلف الزجاج العريض. تنحني بلانش وتهمس في أذنها، تحاول الابتسام لكنها لا تقدر تماماً. استدار فكها قليلاً إلى الجهة اليسرى، وكانت ضحكتها تتراجع، فنعرف أنها تفهم. تلحّ بلانش، تواصل ولا تنظر في وجهها كثيراً. أذنها هي التي تتحدث، ويدها، تحرص بلانش على أن تمسك بها وتبدأ معها. لا أعرف ماذا تقصّ عليها، ولماذا سهيلة تُصغي بكل هذا الاهتمام. كانت أمي تستعيد وعيها على مهل وتتعرّف إلينا واحداً بعد الآخر. عندما كانت بلانش تضحك وأرى أسنانها أمامي، كنت أشعر بالغيرة قليلاً. تخرج من الغرفة. تصبح قبالتي وقبل أن أسألها تجيب بمرح:

«مرّ الأسبوع الثالث وحان الوقت لكي نصبغ شعرها، نحن سنقوم بذلك، أنا وأسماء ونرجس».

تواصل حين تشاهد دهشتي:

«ليس هذا فقط، هناك مفاجأة أخرى سوف أقولها لك في حينها».

كانت تتحدث بإخلاص. لا تشرح الأمور التي تريد القيام بها كنوع من الواجب. كانت تقوم بكل ما تقوم به على طريقتها الخاصة، فلا نشعر بأنه فوق طاقتها أو احتمالها. لا تنظر إلى ساعة يدها قط، وطريقة التفاهم بينهما، كانت تتمّ بصورة بريئة وعفوية. نجلس متجاورين، بلانش وأنا، بعد أن تدخل أسماء إلى الغرفة، وتستهل الحديث:

«قلت لك ستستعيد وعيها، كلنا قلنا لك ذلك، ربما لم تثق بكلامي. إنني مثل سهيلة، أستشرف الغيب بحدسي. كنت أعرف أنها ستستيقظ من غيبوبتها حتى لو كانت الأمور في البداية صعبة جداً عليها

وعليك بشكلٍ خاص. جميع الذين يحبون الدنيا مثلها ومثلي، مثلنا جميعاً يموتون ويعودون ثانية. هي تفهم الحياة بهذه الطريقة يا نادر، ولا ينبغي أن نتذمّر كثيراً. تصوّر، كنت أراها في الأيام الماضية وهي تستعيد وعيها، تحرك الأعضاء بصورة خفية، هكذا تبدو الصورة من الخارج، لكني أشعر بأنها تتحرك أكثر منا. من أين جاء هذا الإحساس، منها بالدرجة الأولى يا نادر. أي، الموت حق، لكن بعضنا كان جاهلاً بالحياة. الغيبوبة، لماذا لا تراها إلا بالمعنى المرضي فقط؟ ذكرت نرجس بعد إحدى الزيارات المسائية لها: «إنها أكثر حياةً منا، لأنها تحاول أن تحادثنا بلغة لم نعهدها من قبل، نحن من يحاول الوصول إليها وليس العكس. هذا التأرجح ما بين الموت والحياة يا نادر هو محاولتها للتكلّم معنا، معك وربما مع والدك».

أفتقد كارولين للمرة الأولى حين لا أراها:

قالت بلانش:

«لقد ذهبت مبكرة لكي تلحق بتمارين اليوغا. قد يكون هذا هو الأمر المقدس والوحيد بالنسبة إليها».

سألت:

«والإنترنت»؟

«إنه صاحب الجلالة. سهيلة تقول، إنها بلا أصدقاء مثلنا. هي متحفظة، فضولها الوحيد، تلك الشاشة والتخاطب من خلالها مع العالم. هل تدري يا نادر، لقد ارتكبت أمك خطأً يوماً وقالت إنها تكتب يوميات أو مذكرات عن هنا وهناك. ذكرت اسم كارولين وتدريبها على الإنترنت ومقاومة أمك. قالت ذلك وكنا في بيت نرجس. التفتت إلى حاتم، كانت تعزّه كثيراً، تعزّ بناته. أما نرجس، فقد بقيت تردد؛ هذه هدية الآلهة هنا. هي ابنة عائلةٍ شعارها الاهتمام بقضايا الناس. لم تكتف بعضويتها في الحزب الشيوعي اللبناني، بل

أرادت ارتباطاً أقوى، فتابعت مسيرتها في تنظيمات اليسار الأكثر تطرفاً. عملت كصحافية في مجلات لبنانية وعربية، وحضرت إلى باريس لمتابعة دراستها لنيل الدكتوراه في علم الاجتماع. لم تتخلّ عن العمل السياسي والنضال من أجل حقوق الإنسان، بل نشطت في لجان عدة، لجنة العمل من أجل إطلاق سراح المعتقلين اللبنانيين في السجون الإسرائيلية، لجنة العمل من أجل العراق. هي نوع من المناضلين المنقرضين. تعتبر نفسها مناضلة ولا تنتظر أي مكافأة جزاء عملها، بل تقدّمه كمساهمةٍ متواضعة في مقاومة سلبيات الواقع السياسي العربي. هي جنس نادر فعلاً تردّد أمامنا باستمرار: «أنا خجولة، لا أحب الاحتفالات وأحاول تجنب الأضواء. العمل السياسي يجب ألاّ يرافقه انتظار مردود أو مصلحة فردية، وإلا يصبح مفهوم النضال في خطر. فبعضهم لا يزال يعتبر النضال وسيلةً يجب أن يكافأ المرء عليه، أو وسيلةً للكسب المادي أو المعنوي».

أما حاتم، فطلبت منه سهيلة: إذا متُّ يا عزيزي في هذه المدينة، فأرجوك أن تغني أمام قبري أغاني حسين نعمة وداخل حسن. كانت تضحك، بينما كانت نرجس تتضايق أيضاً. تدري، سهيلة كانت تعتمد على نرجس في جميع الشؤون التي تخصّ مؤسسات الدولة الفرنسية ودوائرها؛ الضرائب، والضمان الصحي والمساعدة الاجتماعية، ونقابة عمارتكم وأشياء لا أذكرها. هي التي نظّمت لها الملفات وكتبت لها الخطابات وأرسلتها إلى الجهات الرسمية، والمنظمات التي تعنى بشؤون الأسرى واللاجئين. كانت تسميها الصديق الأمين الذي لا يحسد، ولا يغار، ولا يحقد ولا يغترّ. بقيت تردد: «لا يجوز امتداحك يا نرجس وأمامك، لكني أشعر بأن صدقك وأمانتك ونزاهتك كثيرة على البحوث والنضال الذي تقومين به من أجل العراق وفلسطين ولبنان. أشعر وأنا أعود من منزلكم، بأن بعض ما تملكين من صفات أمر غير محتمل في هذا الوقت. قولي كيف تحتملينها، كأنك رجل

دين من العصور الأولى. تصمت قليلاً، ثم تطلق ضحكة خافتة وتواصل: ولماذا رجل، امرأة دين، حكيمة إغريقية، طبيبة. تشهق هنا وكأنها وجدت المعنى: لماذا لم تدرسي الطب كوالدك، ها عيني؟ أنت طبيبة أخصائية بجميع أمراض العرب المزمنة. تخجل نرجس من هذا المديح، ويصبح وجهها الأبيض ورديا بالكامل، فتديره إلى الجهة الأخرى. تقوم أحياناً خارجة من أمامنا، تتحجّج بالذهاب إلى المطبخ فتسألنا: هل تريدون شاياً بالنعناع أم بالياسمين؟

(٢)

سألتني بلانش:

«هل تحب هذه الخلطة يا نادر؟ كانت سهيلة تمزج أكثر من هذا، أكثر بكثير».

كانت تُحضر معها أنواعاً من الساندويتشات الشهية. في بعض الأحيان تصنعها في البيت، وأحياناً ولكثرة مشاغلها تشتريها من المطاعم الصينية واللبنانية والتركية. اليوم وضعت أمامنا صحوناً من الكارتون وضعت فوقها أوراقاً من الخس، والطماطم، وشرائح من الفلفل الأحمر والأصفر والأخضر، ومخلّلات حارة، وخياراً وباذنجاناً صغيراً، ولهانة وقنبيطاً ولوبياء. ووزّعت فوقها حبوباً من الزيتون الأخضر والأسود. نسّقتها بطريقة آية في الجمال ففتحت شهيتنا. تقف، تمد يدها وتقول بصوت ضاحك:

«كل يا نادر، كل ولا تراقبني هكذا. إن الطعام أحد اللذائذ، هيا لا تحتر كأنك في مدرسة داخلية».

بدأت تأكل، فالأكل يُدخل السرور إلى قلبها. أراها تزداد جمالاً وهي تنقضّ على الأطعمة، كأنها تأكل للمرة الأولى. تتخيل أكثر من هذه المائدة الصغيرة التي صنعتها خلال ثوانٍ وداخل المستشفى. أنضم

إليها بحرج في بادئ الأمر ثم أخيّر رأيي وآخذ ما تقدمه إليّ. كان كرمها بسيطاً، لا يسجّل عليك عدد اللقمات. الكرم لدى بلانش نوع من الفضيلة. حين ذكرت لها هذا، شعرت بالحياء. أنظر إليها بطرف عيني وأدفع بالخبز إلى فمي. كان مذاق الطعام في المستشفى يزيد من توتر أعصابي، لكني أواصل بفعل عدوى المتعة التي تصلني منها.

«وحاتم...؟»

«ما به؟»

«ما هي مهنته؟ هل هو كاتب وباحث كنرجس؟»

«بالإضافة إلى الكتابة والبحوث والنضال الطويل والاغتراب الأطول، يكتب شعراً شعبياً ويغني. أنت اعتذرت عن دعوتهما وفاتك أن تسمعه. صوته عذب ومدهش حين يغني الأبوذية العراقية. يهتم حاتم بكل ما يختصّ بتراث العراق، بدءاً من الأساطير وانتهاءً بالأزياء والرقص الشعبي القديم. لقد هيأ لسهيلة أفضل المصادر عن ذلك التراث من خلال ذاكرته ومكتبته. استحضرت سهيلة بابل وسومر لمسرح الشمس وأمام تيسا هايدن، فقدمتها في إحدى المناسبات وخلال دقائق، في أمسية أطلقت عليها تيسا وسهيلة: الرقص بين طمي النهرين».

«سنلتقي يوم الخميس القادم. في البداية، شعرت بالخجل منكم جميعاً، شعرت بأنكم تراقبونني. عيون كثيرة ترصدني، وأنا مرهق جداً. حاولت أن أستجمع قوتي بعض الشيء، وأتأكد من نجاة سهيلة وعودتها إلى وعيها ولو بصعوبة بالغة».

«لكنها لم تُشَلّ يا نادر. تقول وجد إنها المرحلة التي لا يستغرق فيها علاجها سوى أشهر قليلة، ربما أربعة أو ستة أشهر. ستستعمل العصا في البداية، وحتى هذه لن تحتاج إليها في ما بعد. ألا ترى، إنها الآن مع أسماء، هذه السيدة، بالعراقي نقول عنها، إذا وضعتها على

الجرح يطيب. إيمانها يهزّ القلب ويجعل الخطر يختفي بسرعة. اسمع يا نادر، أمك لا تؤمن بالحظ كثيراً، تسخر منه وتردد: الحظ يصلح للخائبين، والصداقة لا علاقة لها بالحظ. لكني كنت أقول لها، إننا محظوظون بصداقتنا. فتبتسم ولا ترد على الفور، لكنها تضيف بصوت خفيض: الصداقة لا تنزل من السماء، إنها مغروسة بالأرض وعلينا رفعها ورعايتها لكي تصمد وتزهر. أين الحظ في ما بيننا؟ إنه لا يلبّي النداء في أكثر الأحيان، لكنك أنت وباقي الرّبع لم تخذلوا ندائي مرة».

«مع الصديقات فقط...»

«كُلْ عيني، كل. أنت ابنها وبلدها. كُلْ، ولا تخترع أموراً تؤذيك».

كانت يدها كالرخام وهي تقدم إلي ما لذّ وطاب. في إصبع يدها اليمنى خاتم من الفضة على شكل هلال وفي وسطه فص من الشذر. لا أدري لمَ تصورتها مثل سهيلة، واقفة على المسرح تخفي وجهها بخمار من الحرير بلون برتقالي، وهي تجرب الحركات الأولى بسرعة ثم تنفجر بعد ثوان بالضحك والبكاء. شعرت بأنني لا أجيد التفرّج كما يجب، وأن جمالها كان صاعقاً يوماً ما. قلت لها فجأة وأنا أبلع اللقمة:

«سأصوّر سهيلة وهي بهذا الوضع. ها، ما رأيك؟ قد يكون أمراً قاسياً، لكنه مهم بالنسبة إليّ».

«هل تعني أنه نوع من العلاج»؟

«يمكن أن يكون هكذا، لكني لم أفكر فيه على هذه الصورة. إذا ما شاهدت الأفلام في الأسابيع القادمة، فأظن أن ذلك سوف يعجلّ بشفائها».

«وهي... قد لا تحب أن يباغتها أحد في مثل هذه الأوضاع».

«ستشاهده حين تشفى وتقوم تماماً. ستشاهد جسمها وشكلها. سترى قدراتها غير المعروفة، ربما لنفسها أو لنا، سيكون هذا أفضل شاهد على جميع ما عانت من عذاب وألم».

«لكن من الجائز، أو من المؤكد أنها لا تحبذ ذلك. قد يذكّرها بما تريد أن تنساه، وما تكره التفكير فيه».

«لن نقول لها ذلك في البداية، سنصوّرها وهي نائمة، ومستيقظة، لكن من الخارج، من خلف الزجاج. هل قلت إنك ستصبغين شعرها؟ هناك أصباغ كالكريمات وهي لا تحتاج إلى غسيل وتجفيف».

«أعرف، أعرف هذا».

هل كنت أريد حمايتها من الفناء بالكاميرا؟ ألا يعتبر هذا نوعاً من العلاج حتى لو كان في منتهى القسوة؟ اليوم أشعر بالندم لأننا لم نتصور مع والدي. لدينا بعض صوره بالملابس العسكرية وعلى صدره بعض النياشين، يعتمر القبعة وأحياناً حاسر الرأس فيبدو الصلع في أول جبينه الضيق قليلاً. لدي بعض الصور معه وأنا طفل في الرابعة ونحن مع جدي في المسرح وأمي واقفة على الخشبة تؤدي أحد الأدوار. ما من صورٍ تجمعنا نحن الثلاثة أبداً. قرأت بعد الحرب، «إن الصورة أمر خطير وهي أفيون مجتمعنا». لكن الصور كانت هناك في كل مكان، حتى في الأماكن غير المتوقعة، كواجهات المسارح ودُور السينما والحانات. يوم دخلت شقتنا في باريس وشاهدت صوري منذ الطفولة وحتى الآن، قلت في نفسي: أمي لا تحبني قدر حبي لها. فأنا لا أضع صوراً لها في بيتنا في كندا، ومع هذا كنت أشعر بأنها موجودة أكثر، أكثر بكثير من وجودي عندها.

فرغت الأطباق كلها ولم نتبه إلى ذلك. لاحظت نظراتي:

«لا تقلق على أسماء وباقي الأصدقاء... لقد أحضرت طعاماً كثيراً وضعته في ثلاجة القسم قبل أن أحضر».

ابتسمت في وجهها وأنا أشاهد أسماء تدخل وتخرج وهي ترفع يديها إلى أعلى. كانت تلمع من الزيوت:

سألت بلانش:

«ها كيف الأمور معك»؟

«اللهم صل على الرسول محمد، دلّكت لها الكتفين والذراعين والرقبة بدلاً من الممرّضة. وهزت رأسها ونظرت إليّ نظرة كلها حنان».

تبدو أسماء مسرورة على الرغم من تعبها:

«ألا ترين؟ يبدو لي أن سهيلة لا تختفي، وكذلك والدي. يتحولان إلى سر أو لغز فيحضران أكثر».

قالت بلانش:

«كأنك تحسد سهيلة أو والدك على ما هما عليه الآن»؟

«لماذا تقولين هذا؟ لم يخطر هذا ببالي على الإطلاق، ولم أفكر في الموضوع على هذا النحو. أشعر بأن لسهيلة أرواح عديدة. مرة أبصرها بروحك ومرة بأرواح الآخرين، ومرات بروحي أنا. هذا الفيلم إذا ما صوّرته، سيكون أحد وجوهها. هل سيكون بصوت أم بدونه، ها ما رأيك؟ صوتك أو صوتي، أو صوت كارولين، أو حاتم، أو أسماء، أو نور، أو نرجس، أو ربما تيسا. لم لا؟ لماذا لا يكون بأصواتنا جميعاً. حضرت الآن هذه الأفكار وأنا معك. الأصوات تتحدث وتتداخل بلغات عدة، موسيقى، ودفوف، ونايات، وتراتيل مختلفة. تصوري، الآن الاحظ ثلاث ديانات تجمعنا، وعدة لغات وأقوام ودول. بنات حاتم يعزفن، وهو يغني، وأنت ترتلين من الكتاب المقدس وأسماء تقرأ آيات من القرآن الكريم، وتيسا، لا أدري، هل ستوافق على القراءة من التوراة»؟

«ربما ستقرأ مقاطع من نشيد الإنشاد»، قالت بلانش وابتسمت ابتسامة ذات مغزى.

«وسارة، الرسامة العراقية، هل تعرفينها، أفكر لو ترسمها».

أجابت بلانش من دون أن تنظر إليّ، وفي صوتها شيء من الخوف:

«أي سارة، طبعاً أعرفها، لكن اسمع. يعني تريد تصورني معها هنا في هذا المكان؟ لا أرجوك، لا أحب أن أرى نفسي في أي فيلم. لا، أرجوك دعني بعيدة، سوف أشترك بالصوت و...»

«أنت على رأس القائمة، لا مفر يا بلانش أرجوك. أتدرين؟ أفكر بالعزف لها على الغيتار، كانت تحب عزفي كثيراً، تجلس وتصغي وأنا أعيد لها ألحان المقطوعات الإسبانية التي تحبها كثيراً. لم أنجح أبداً في الألحان العراقية. كانت تنسى نفسها وهي تسمع الموسيقى الإسبانية، تقول؛ أولئك الغجر، أصواتهم وأنينهم يشبه أنين ووجع المطربين العراقيين: ناصر حكيم، داخل حسن وحضيري أبو عزيز. وحين أسألها عن هؤلاء الثلاثة، من هم وما دخل الغجر بهم، تقضم أظافرها أمامي وتجيب بهزة من رأسها. فكري يا بلانش، نحن نحاول فقط أن نجعلها تسمعنا وتجيبنا. ها ما رأيك»؟

«إذا انتقلنا إلى المصحّ الخاص الذي حضّرته تيسا لها، فقد يكون كل شيء ممكناً».

(٣)

«لم أكن أدري أنني جائع إلى هذه الدرجة. لكنني لم أكن أشعر بالجوع».

قامت بلانش، فتحت حقيبتها السوداء الكبيرة والثقيلة، وأخرجت شيئاً ملفوفاً بورق هدايا ملوّن. وقفت أمامي وكل وجهها يضحك:

«لو تدري ما هذا»؟

«نبيلة»؟

قلت ذلك بالطريقة نفسها التي شاهدت فيها وجهها. أطلقت ضحكة عالية، ثم خففت من صوتها وهي ترى الممرضة تمر من أمامنا وأسماء تقترب وتنضم الينا:

«ها، ما الذي يُضحكك بهذه الطريقة الرنانة»؟

جلست أسماء بجوارنا. ورائحة الزيوت تفوح منها:

«شكراً يا أسماء».

بدأت تمسح عرقها بعدما خلعت نظاراتها الطبية ووضعتها بجوارها.

«شكراً يا أسماء». كررت ذلك بصوت منخفض. كنت أشعر بأن سهيلة بين أيدٍ أمينة، ربما أكثر أماناً من يديّ، وكان عليّ أن أطمئنّ، لكني شعرت بشيء من الغيرة كذلك.

وقفت بلانش بيننا وقالت:

«من المؤكد أنك جعت الآن. ماذا تفضلين، بط، سمك أو دجاج»؟

أضافت بلانش قبل أن تبتعد:

«أدري أنك لا تأكلين إلا اللحم الحلال».

ابتسمت أسماء وقالت:

«شكراً عيني، بس لا تنسي الماء من فضلك».

«السمك هو الأكثر حلالاً»؟

نظرنا إلى بلانش معاً:

«تدري عيني نادر، لهذه المرأة أفضال على أمك. أي ابني،

الله يعطيها الصحة، تسوي الخير والمعروف للكل وما حد يدري. يمكن أمك حكت لك، هي عندها محل أنتيك. دكان صغير في الحي الحادي عشر فتحته منذ سنوات، بمجرد وصولها من بغداد. كانت مدعوة من اليونسكو لكي تشارك بالمعرض الدولي للسجاد القديم. أرسلها والدها وحمّلها بكل تلك الأنواع الفاخرة، شغل الموصل وإيران. تقاعد والدها من الجيش ثم عمل مع شقيقه في هذه التجارة. وتخرجت هي من كلية الإعلام وفكرت بالعمل في الصحافة. تدري نادر؟ لقد وصلت قبلها بعامٍ واحد. دخلت الجامعة لتحضير الماجستير في الاقتصاد السياسي».

«وكيف انتقلت من الإعلام إلى تجارة الأنتيك والسجاد»؟

تنهدت أسماء وأجابت:

«لم يوافقوا هناك على عدم كونها حزبية. كل من يعمل في الصحافة ينبغي أن يكون منهم. تقول بلانش، إني عراقية بس، شنو حزبية، العراق حزبي. ما قبلوا تعمل في أي جريدة. لو تدري أين تعينت أول ما تخرجت»؟

«وين»؟

«في وزارة الزراعة، قسم يضحّك، أي والله، يعتني بالدجاج والبيض وتفقيس الصيصان والأغذية الخاصة بهذه الحيوانات».

«وكم بقيت في تلك المؤسسة»؟

«ما بقت هناك غير كم شهر. بعدين طلبت نقلها إلى وزارة الإعلام، على الأقل تصير قريبة من الكتب والمجلات والصحافة».

«ووافقوا»؟

«وافقوا تنتقل إلى وزارة الصحة في قسم يضحّك أيضاً. كانت تسجّل في دفاتر سميكة وطويلة، اسم كل طفل يأخذ لقاحات الحصبة

والسلّ والجدري والزحار. كانت تشوف شوفات قاسية في المستشفى الجمهوري وهي حنينة عيني. تدري، من ذاك الوقت صارت تخاف ضرب الإبر. قررت الاستقالة والعمل مع والدها في السجاد. كانت تحب كل أنواع السجاد الأصلي والنفيس. تضحك وتقول لو يرزقني الكريم أولاداً سوف أسميهم على أسماء السجاد: أصفهان، تبريز وكرمان. ما شاء الله، صارت أخصائية في السجاد العجمي والصيني، بيدها المكبرة لما تشوف واحدة منها، تشوف النسيج وتقرأ شكد عمره بكد عدد الغرزات. ويوم اتضايقت بعد عيني أمك من ظروف الحرب ومشاكل خالك مع زوجته الفرنسية وانقطاع الفلوس عنها، فكرت ببيع سجاد خالك. كان من أنواع عدة، صيني، فارسي، هندي وأفريقي، ظل يجمعه طوال سنيّ غربته. أعتقد أن خالك لم يأخذ رأي زوجته حين طلب من أمك بيع بعض القطع الصغيرة من السجاد. منذ ذاك الوقت تفاقمت المشاكل بينهم، خالك وزوجته من جهة، وأمك من جهةٍ أخرى. تقول بلانش، القطع الصغيرة تكون أغلى بمرات من الكبيرة».

«يعني بلانش اشترت سجاد خالي ضياء»؟

«هي أخذتها من أمك أولاً، ضمتها عندها، قالت لها سوف أعرضها للبيع ونرى كم تساوي. كانت تعرف أسعارها زين، لكن أرادت أن تماطل عليها، بلكي تتحسن ظروفها وتعيدها إليها».

«وبعدين، تدرين أن كل هذه القصص لا علم لي بها»؟

«صبرت سهيلة وحدها حتى لا تزيد من همومك ومشاكلك وأنت تمرّ بأيام صعبة، ودراستك عيني نادر غالية هواية. بس بلانش الله يرضى عليها، آني ما أعرف كل التفاصيل، أعطتها مبلغاً كبيراً، لا أدري كم، وقالت لها هذا سعر واحدة بس».

«وأمي»؟

«صدقت عيني. كانت تصدق دائماً. هي لا تدري أن بلانش وضعت السجاد في دارها إلى حين تفرج الأمور وتعيدها إليها ثانية. وفي أحد الأيام، بعدما أصبحتا صديقتين وصار بينهما خبز وملح وزيارات، شافت أمك إحدى السجادات معلقة في بيتها. استغربت وأخذت على خاطرها شوية لكن من عرفت القصة، بكت. وقد رجعت لها بلانش كل السجاد. وقالت لها: خليتها عندي أمانة بس حتى لا تضطري إلى بيعها بخسارة كبيرة».

«والفلوس التي أخذتها منها»؟

«طلبت بلانش منها أن تسددها على أقساط ولفترات طويلة. ومن بدأت تتحسن الأحوال شوية وخالك رجع يرسل الفلوس، وأنت هم عيني ساعدتها شوية، وفت كل الدين. هذه بلانش يا نادر، أمك تسمي صديقاتها، نرجس، وبلانش، وتيسا، وكارولين ووجد، فصوص الألماس».

قمت من أمامها وأنا أشعر بالحرج الشديد. كنت محاصَراً من أسماء، فص الألماس السادس. شاهدت بلانش تتمشى في الممر الطويل وهي تحمل بيدها صينية مليئة بعلب العصير. كانت تبتسم في وجهي وتومئ لي برأسها، لكي أنضم إليهما. لكن، في حالتي المتوترة تلك، كانت غرفة سهيلة هي ملاذي الوحيد.

[١٩]

(١)

شعرت بأن أشواقي إلى سهيلة صارت مثل الورم في قلبي، ما إن تنطق باسمي حتى أنفجر. جلست بجوارها وبدأت أقطر فوق شفتيها قطرات من الماء. عصرت الفاكهة أمامها وقرّبتُ عصيرها من فمها. صارت كلها عينين شاردتين، ترقبني في كل خطوة أقوم بها. في الصباح الباكر، أكون أول من تراه. أفتح لها النافذة الكبيرة وأدعها تسمع أصوات العصافير وصوتي. أقترب منها كثيراً:

«هذا حسن أيلول الذي تحبينه. عادت تيسا إلى باريس قبل يومين. اتصلت وتحادثنا مطولاً وسوف تحضر قريباً. هذه الكراسي سوف تمتلئ بعد قليل بهنّ، محبوباتك. بمن تريدين أن نبدأ؟ هزي رأسك حين أنادي باسم إحداهن. فكل واحدة منهن لها موقع في قلبك. لا، لم أعد أغار منهن يا سهيلة».

حاولت أن تبتسم ولمّا لم تقدر، تابعت المحاولة وأنا لا أنظر إليها تماماً.

«أي، صدقيني، كنت أغار كثيراً منهن. حدث هذا أول ما وصلت وشاهدتهن بجوارك. شعرت بأنهن يصلحن لك أكثر مني، يصلحن في المرض ربما، وأنا في العافية. قلت ذلك في نفسي لكي أرتاح من

عيونهن، لكي لا أنفر منهن كما فعلت مع وجد. عرفت في ما بعد من نرجس، أن وجد تحضر كل يوم عند السادسة صباحاً، وتقرأ آخر التقارير. تحادث الممرضات الساهرات، وتفحص البول وتقيس النبض وترفع جفنك وتشاهد بياض عينيك، ثم تقبّلك على رأسك وتغادر إلى مستشفاها الذي يبعد عن باريس ساعة ونصف ساعة بالقطار السريع. أول أمس أخذت إجازة ليومين بعدما علمت أن تيسا حصلت لك على غرفة لطيفة في المصحّ الخاص لحالات التأهيل والرعاية والتمرين. أمي، بعد أيام سوف تغادرين المستشفى نهائياً. ستعودين إلى نفسك وإلينا. قالت لي وجد وهي تضحك: «سوف أبثُّ سهيلة وجدي خلال اليومين القادمين. أمك يا نادر تحب اسمي، بقيت تلح عليّ: يا وجد عليك أن تعيشي اسمك كله، عليك ألا تأخذي استراحة من الوجد. إن لم تفعلي ذلك فسوف تمرضين مثلي. انتبهي يا وجد، يجعلنا الوجد لا نراجع الأطباء ولا نعرف طريق العيادات النفسية. يشفينا من الاكتئاب فلا تضربنا الوحدة بالفلقة. معليش يا حلوة، سوف تخسرين الزبائن وتربحين نفسك. وأنا يا نادر أجيبها دائما بالكلام نفسه، سوف أغرّم وأكشف لك الأسرار، كل أسراري. لكن أمك ترد عليّ؛ لا أريد أن تكشفي أو تستري أو تعترفي. لا يتطلب الوجد كل هذه الترتيبات التي نضعها له».

أمي، يبدو أن وجد غابت الأيام الماضية لأنها سمعت كلامك، ها، ماذا تقولين؟ كنت أريدها أن تبتسم، تطلق قهقهة، لم لا؟ عيناها تحملقان في فراغ في البداية، ثم تضحكان لبرهة، كأنها تحلل الصوت، ومخارج الكلمات ومعاني المفردات. بعد ذلك أشاهد عينيها ترمقان يدي. أقرّب يدي من يدها، تضغط عليها بوهنٍ، برقة. لا أريد أي وقت آخر أن يحضر. أريد هذا الوقت وأنت هنا على وشك أن تقولي شيئاً ما، أي شيء، أي حرف، فكل الحروف أطرب لها الآن. نتلامس، ألمس كفّك وأحس بك، حتى اللمس لا يوفر دائماً المعاني

نفسها حول الأم. أشتاق إليك يا أمي، فلا تخفي عينيك عني. أخبريني ماذا تقول يدي ليدك؟

أسمع صوت أسماء العذب من خلفي:

«ها عيني، هـه أنت مرتاح شوية لأنها بدأت تسمع كلامك».

قالت هذا وانحنت إلى صدرها وكتفيها. احتضنتها، وقبّلتها فوق خديها. تقرأ وتنفخ عليها الآيات والصلوات، تفعل هذا دوماً، ما إن تصل وحين تغادر. كانت تحمل دائماً أكياساً كبيرة لا أدري ماذا تحتوي. عندما تكون نرجس حاضرة تهمس في أذني:

«بإمكان أسماء أن تعجن الدعوات والتهاليل بالطحين والزبيب والسكر والزبدة. تخبزها على تنور عراقي صنعته في دارها وتقدمها إلى أمك، وإلينا جميعاً كأشهى ما يكون من الكعك، بعدما تكون قد قرأت عليه لكي تمنع عنا الحسد والشر. تعرف يا نادر، نالت أسماء شهادة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي بدرجة الشرف. مُنحت درجات كاملة في القواعد والإملاء والطريقة الحرفية التي كتبت بها بحثها الصعب. كانت أطروحتها حول تأميم النفط العراقي ودوره في التنمية الوطنية. هي تعمل في مكانين، لتوفير مصاريف ابنها الوحيد، مثلك. نجتمع كل نهاية أسبوع، عرباً وفرنسيين وأجانب. بدأت جمعيتنا ببضعة أعضاء لنصرة أطفال العراق، لنصرة الجنوب اللبناني، للسجناء والسجينات العربيات في المعتقلات الإسرائيلية. كانت أسماء تثير الإعجاب بدرجة انضباطها في مراجعة كل شيء، حتى ساعة متأخرة من الليل. كل واحدة منا هنا، في حالة تأهب قصوى، وبوسعها أن تفعل ما تقدر عليه، أي شيء وكل شيء».

«وأنت يا نرجس، وحاتم والبنات؟ لا تتهربي كالعادة».

«ما معنى كالعادة»؟

«ستقولين لا شيء وتقومين من أمامي. تنشغلين بالدخول إلى

سهيلة، ترتبين المواعيد وتتحدثين مع الأطباء والممرضات. تأخذين على عاتقك تنظيم التحليلات ومراقبتها. تلاحظين الهفوات الصغيرة من هذه أو تلك، وترصدين تطور وضع أمي بالكامل في الغذاء والنبض، وفي الحركة والنوم وأشياء أخرى لا أعرفها. تدرين، كلما أراك أتصوّرك طبيبة، أو أنك درست الطب ثم اتجهت إلى دراسة علم الاجتماع سهواً. نعم، هذا ما أشعر به الآن وأنا أتحدث إليك وأنت تصغين إليّ. إنني قوي وأستطيع أن أواجه الخطر. ثمة كلمات لا تقال، لكنني أعرف أمراً واحداً، أنني لولاكنّ لما اجتزت هذه المحنة. ماذا كنت سأفعل من دونكن يا نرجس، جميعكن»؟

ابتسمت بحياء، وبدأت ترفع كم قميصها وتطويه إلى أعلى:

«لا يا معوذ، ما هذا الكلام؟ لقد بدأت تحرجني الآن».

«سوف تقومين كما في كل مرة. كنت أريد أن أرى الفتاتين، سامحيني، لم أقدر من قبل».

«سوف تراهما غداً يا نادر. كانت أياماً صعبة وقاسية عليك بشكلٍ خاص. التقارير الآن جيدة. استقرّ ضغطها الآن. لم تحدث أيّ مضاعفاتٍ. أعتقد أن هذه أفضل نتيجة يمكن التوصّل إليها في الوقت الحاضر، لأن سهيلة ستتغلّب على ما تبقّى. ستحرك ببطء في البداية. وفقاً للفحوصات التي أُجريت لها، لم تشلّ أعصاب القدمين كلها، لكن الفخذ الأيسر يعاني تمزقاً كبيراً، وحتى هذا ليس بالكارثة. لدى سهيلة قوة غريبة لكنها تبعثرت. كأنّ ما حدث هو الذي سيعيد انتظامها، من أجلها هي بالدرجة الأولى. وها هي كما ترى، بعد حوالى أربعين يوماً، تضرب مثلاً في العزيمة. من المؤكد أن الفضل في هذا يعود إليك أنت».

إغرورقت عيناي وفاضتا بالدمع، قلت:

«لقد تحسّنت حال أمي بفضلكم جميعاً. أشكركن لأنكن وقفتن إلى جانبنا ولم تتخلّين عنا».

تململت نرجس تريد الوقوف حين اقتربت منا وجد وكارولين وبلانش معاً. التفتت بسرعة إليّ:

«غداً يا نادر لن نقبل أي عذر. سنحضر إلى هنا ونصطحبك عند السابعة والنصف مساءً، ها، حسناً؟ علّي أن أعود إلى البيت الآن. تدري، هذا أول صيف لم نغادر فيه إلى لبنان، أليس غريباً؟»

أتابعهن وهن يتقدمن نحونا. كان يروق لي لو كانت الكاميرا معي. كنت سألتقط صورة تجمعني بهن معاً. وضعن أنفسهن تحت نظري ونظر سهيلة الذي كانت تستعيده رويداً رويداً. لا تبتسم لكنها تحاول، فيضطرب شكلها وتخجل حتى أنتهي من آخر صورة.

(٢)

في اليوم التالي، وقفت صديقاتها الثلاث فوق رأسها؛ نرجس، وبلانش وأسماء. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين بدأت حفلة الصبغة. كارولين، ونور، ووجد وأنا بقينا في الخارج.

أخذوا رأي سهيلة وهم يلوحون لها بالأنبوبة والقطن. كان وجهها ينبئ عن رغبة شديدة بالأمر. حضّرتها بلانش لهذا اليوم. قالت لها، لن نعيد شعرك إلى لونه الأول، الأسود، لا. ذاك لون الماضي الذي أعطاك نوعاً من القساوة. علّقت أسماء، سوف تصيرين عيني سهيلة شكل تاني. عادت بلانش وبيدها قطنة كبيرة عليها سائل كثيف جداً وقالت لها: هذا لون التمر العراقي الذي يحبه قلبك، لون يناسبك الآن.

كانت سهيلة مستسلمة بصورة طبيعية ونرجس تشرح لكي تبدّد الوقت:

«هذه صبغة جديدة تباع لدى الحلاقين. في الحقيقة، هي مجموعة أعشاب مختلطة ومنقوعة بأنواع من العطور. علّمتني أختي طريقة تحضيرها ولا سيما في المناسبات الطارئة والمستعجلة».

تقرأ نرجس التعليمات، وتحضّر أسماء الخصل بينما تصبغها بلانش وتضحك. كل واحدة منهن حين وصلن، كانت تحمل كيساً. علّقت أسماء منذ ليلة البارحة:

«سنحضّر لك مفاجأة».

تنود كارولين برأسها وهي تبتسم بطريقة لم أعهدها بها من قبل. كانت سعيدة لكنها لم تقوَ على المشاركة:

«لا أعرف أي شيء من هذه الأمور. حتى تنسيق حاجبيّ. ثمة محل خاص بجوار شقتي يقوم بكل ما يخطر في بالك. حين أريد تغيير مزاجي أذهب إلى هناك. إنني كسولة يا نادر. تعرف سهيلة ذلك جيداً. تصور، كل واحدة منهن حضّرت شيئاً ما لها. ابتاعت نرجس لها بلوزة من الحرير الخالص، وصنعت بلانش لها قلادة من الفضة، وهي فنانة في هذا. وأسماء، يا إلهي، قالت، سوف أضع لها ماكياجاً جديداً. نحن، كل واحدة منّا حضّرت لها هدية، وضعناها قرب رأسها. نادر، ما هذه إلا المقدمة. قال الطبيب إن الأدوية الكثيرة لم تُفقد شعرها كثافته، ولم تؤثر في نموه. لكن بلانش تقول، إن شعرها فقد لمعانه. ستحسن الأمور يا عزيزي، فالصحة قبل كل شيء هي إرادة أيضاً. هل أحضرت فيلماً جديداً؟ ترى، كم فيلماً صوّرْت حتى الآن»؟

كنت أجمع صوراً لبغداد والبصرة والموصل. نتراسل أنا وخالي عبر البريد الإلكتروني، على عنوان خاص لكي لا تصله زوجته. أرسل إليّ صوراً عن الآثار، والرُّقَم، والأهوار، وغابات النخيل، والأزياء الخاصة بالرجال في بداية القرن، أثناء الاحتلال العثماني مروراً بالاحتلال البريطاني للعراق، وثياب نساء المدن، في الشمال

والجنوب، والسيارات الأولى، والعربات التي تجرّها الخيول العربية. أجلس ليون على حجري وأشير عليها. أمرّرها ببطء أمام عينيه الجميلتين. أحدّثه عن كل شيء كأنني أنا الذي يخاف أن ينسى. أجمع كل النخيل في مركز عينيه فيملّ ويضجر، ويدمدم ثم يصرخ وهو يردّ رأسه إلى الخلف. أتهجّأ له اسم بغداد بكل اللغات. أجلس قبالته وأحرّضه على ترديده وإشباع حروفه بالموسيقى. ألقّمه أنّ بغداد قطعة موسيقية تستحقّ أن يغنيها، أميل إلى أذنه وأطلب منه التكرار. كان يسمعني ويستجيب في بعض الأحيان، ثم يفلت هارباً فأعود وأسحبه مجدداً. كنت أباً سعيداً، سعيداً بليون، سعيداً بالأبوّة. لطالما دفنت رأسي في صدر ليون، في بطنه، أكاد آكل قدميه الصغيرتين، ولا أعرف ماذا أقول له، كأنني تأخرت عليه طويلاً. وكلما أنظر إليه أرى شيئاً جديداً، أرى صورتي وأمي، صورتي ووالدي، أرى نفسي وأنا أمدّ لساني في الصور التي التقطتها أمي وأنا في الحديقة، كأنني أصوّر إعلاناً لأم وطفلها. لم أشاهد أي صورة لي وأنا أبتسم وأضحك. هل كنت طفلاً يزعج الآخرين ويعكر صفو أيامهم؟ صورت خراء ليون وهو يعبث به. صورته وهو يستحمّ ويبكي، يأكل ويتعثّر في خطواته الأولى. صوّرته لأهرب منه وأعود إليه كي لا أنسى نفسي. صورته لكي ألتقي به وبنفسي. كنت أحمّض الأفلام وأكوّمها في البومات ولا أعلقها أمامي في الصالون. كنت أخشى ذلك، أخاف لو علّقتها أن أنساه. كنت أريد أن أحتفظ به. الوقت ينقضي والعمر يجري وأنا أحتفل بعيد ميلاد ليون الثاني. الصور لا تحفظ الحب، حبي لأمي، حبي لليون. أيقظني من حالتي صوت نرجس:

«أنا متأكدة من أنك سوف لن تتعرف إليها. هيا، تعال وادخل».

سمعت وقع أقدام كارولين ونور ووجد وبعض الممرضات وهن يتراكضن إلى غرفتها. دخلت بعد أن دخل الجميع. كان الكلّ يبتسم في وجهي ابتسامة الانتصار.

لم يخطر ببالي وأنا أحملق كالمعتوه، أننا في مستشفى. كانت الستائر مسدلة إلا من شِقّ رفيع يتسرّب من خلاله ضوء بلون الذهب. أردت أن أصيح بوجهها وأنفجر بالبكاء. كانت عروساً وهي في هذه السن. تتمايل الرؤوس حولها إعجاباً. كل حركة منّا، من أصواتنا، كانت تسمعها، فتدير رأسها بهدوء إلى الطرف الآخر كي نشاهد التسريحة الهادئة والجميلة التي زادتها رقة. هندامها جميل جداً: بلوزة زرقاء اللون، لونها المفضل. لم أنتظر دموعي، لم أخجل كما في السابق. شعرت نرجس بتوتّر الأجواء فقالت بصوت حازم:

«حتى لو كانت دموع الفرح يا نادر! أرجوك نريد ابتسامات فقط».

وضعت بلانش يدها على فمها وأطلقت زغرودة خافتة الصوت.

قالت أسماء:

«لا تحلو الزغاريد إلا بالصوت العالي عيني سهيلة».

اقتربت منها كارولين، انحنت وقبّلتها فوق خدها، ثم صعدت إلى رأسها وشعرها. مسّت كل شيء بهدوء. كانت لا تعرف ماذا تقول. وبلهجة فقدت كل صبر:

«أنتن شيطانات فعلاً. كيف فعلتن كل هذا وفي وقت قياسي؟ ها هي تعود إلينا أفضل من السابق. ثقن، لم أرها يوماً جميلة مثل اليوم».

التفتت إليّ:

«مهم هذا الذي يحدث يا نادر. عليك أن تثق بإرادتها».

كانت هناك أحاديث جانبية، ابتسامات على شكل غناء والغرفة معطّرة بعطرها الذي تفضله، هدية كارولين، حين فتحت القارورة ورشّت على رسغها بضع قطرات. وجد صامتة على غير عادتها، لكن في عينيها تعبيرٌ عن السرور لما تراه أمامها. كانت تحمل كيساً هي الأخرى. اقتربت من سهيلة، انحنت وقبّلتها، ثم نهضت. فتحت

الكيس وأخرجت شالاً باللونين البنفسجي والأبيض. فردته على صدر سهيلة بطريقة جميلة:

«هذا من مصر التي يحبها قلبك».

انحنت ثانية، احتضنتها، وعينا أمي تلاحقان وجد، تدوران حولها، كان بهما شيء من القلق والضّيق من مرأى وجد:

«عليّ أن أعترف أمامكم جميعاً بأمانة، لو كنت أمتلك كل هؤلاء الصديقات اللطيفات من حولي، لتدبّرت أمري وأخذت مكانك يا سهيلة».

بدأت نور بترتيب باقات الزهور وتنسيق البطاقات المرفقة بها. كانت تشبه باقة من الورد. أرسل أحمد زهوراً جميلة وبطاقة كُتب عليها أبيات من الشعر السوداني القديم. بدأت نور بتلاوته وكأنها تغني:

«فاذكروها واجعلوا قلبي الحزين يرفرف طرباً في جوانحي للصحاب». أينعت نبتة تيسا وتفتّحت زهرات جديدة ذات عطر خفي. أرسل حاتم زهوراً من الجيرانيوم، وكتب موّالاً من الشعر الشعبي العراقي، ما إن بدأت نور بتلاوته حتى تلعثمت قليلاً واحمرّ خداها. ناولته لنرجس:

«ويكول أنته ورد وشلون تشتم ورد».

لم تحضر سارة، صديقة سهيلة، مرة واحدة لتراني. لم تتصل بي حتى. هذه المرة الأولى التي ترسل فيها باقة كبيرة من الورد لا أعرف اسمها، ومعها مظروف في داخله رسم بقلم الرصاص لوجه أمي وهي ترتدي شالاً، يظهرها وكأنها مخلوق غريب جداً. ليست هي سهيلة تماماً ولا أمي أيضاً، أظهرت جبينها العريض وضيّقت فتحتي عينيها، وجعلت أنفها أكبر وشفتيها أرقّ، ودوّنت تحتها:

«سهيلة، أنت تنشدين المستحيل دائماً، ربما لمعرفة قدراتك الذاتية إزاء فناء مماثل. أحبك. سارة».

[٢٠]

(١)

أصطحبتنا نرجس عند الساعة السابعة والنصف، بعربتها الصغيرة. جلس حاتم في الخلف بجوار أسماء، وتصدّرتُ أنا بجوارها. كارولين وبلانش ووجد ذهبن بالمترو. بينما اعتذر أحمد ونور. قالت نور لنرجس بحياء العاشقة:

«معليش مرة ثانية حين تقوم سهيلة وتنتقل إلى المصحّ الجديد سندبك ونرقص ونغني. وعدت نادر بذلك وسوف يرى حتى لو زعل أحمد. اليوم أنا التي ستبقى بجوارها ولو كانت نائمة».

كانت قيادة نرجس هادئة، كأنها تخاف عليّ. تقود برفق في الشوارع الفرعية الضيقة بينما لم أكن أنتبه إلى ضجيج الأصوات. كنت في أقصى حالات التوتر الذي سرعان ما يتبدّل ويتحول إلى نوع من الرجاء. الأمر فعلاً بغاية الإثارة: كيف تتجمع طاقة الحب على هذه الصورة وتحرّض الأعصاب على الاستجابة؟ تهدّج صوت أسماء بشيء من الحرج:

«عيني نادر، نرجس عزمت حمادة، لكنه يستحي شوية. إن شاء الله بس تقوم أمك بالسلامة نذبح ذبيحة ونوزّعها على فقراء جامع باريس. هيه كل هذه تصير سوالف».

كانت تريد مكافأتي بولدها حمادة، وفقاً للعادات لأننا أصدقاء قدامى. تدخلت نرجس لكي ترفع الحرج:

«ديالى في الرابعة عشرة وقدس في الثامنة. سوف يعرضان عليك أن تسمع عزفهما على البيانو، أظن أن ديالى سوف تنشد أمامك بعض أغاني الراب الذي تغرم به وتشتري ألبوماته وتحضر حفلاته. قالت سهيلة إنك عازف ماهر على آلة الغيتار».

أجبت بهزة من رأسي:

«يعني، كلمة ماهر كبيرة على عزفي. إنني أحاول فقط».

ارتبطتُ بتلك الآلة ارتباطاً غريباً. كان عزفي يأخذني إلى حدود بعيدة عن مجال إدراكي. لم تجلب تلك الأوتار إليّ السرور القصير كما يحصل لدى معظم الناس. كنت وأنا أعزف أشعر بأنها تلملم لي شتات نفسي. أكفّ عن كوني ذلك الصبي الذي يتسلى، أو ذاك الشاب الذي تغيرت نبرته ويريد من يصغي إليه فقط. كنت أستطيع أن أعيش كلّ ما لم أعشه وأنا أعزف. أبداً لم أكن أتسلّى، ولم أتقن العزف كما يجب.

سأل حاتم:

«أما زلت تعزف يا نادر»؟

«أعزف أحياناً لنفسي لكنني دائماً كنت أعزف لها. هي الوحيدة التي كانت تصغي إليّ بصورة طبيعية».

كتبت إليّ يوماً:

«نادر، اعزف كلما ساءت حالتك. من الأفضل أن تُرضي نفسك في الفن على أن تنافق وتتنازل من أجل غيرك حتى لو كانت زوجتك. أرجوك ألا تفقد صبرك وتحرق أصابعك في الطبخ أيام الآحاد وأشغال البيت والحديقة».

سألت نرجس:

«وزوجتك، هل كانت تحب عزفك»؟

حاولت تغيير الموضوع بطريقة ما:

«عندما يتزوج الإنسان، تختفي حياته الأولى إلى الأبد. ليس معنى هذا أنها تسوء أو تتحسّن، لكنها تختلف فحسب».

تفضل سهيلة الموسيقى على باقي الفنون. تصغي بانتباه شديد، تحرك جسمها من أمامي ومن خلفي. أعتقد أنها تشعر بأن الموسيقى تحررها من الوحدة والكآبة. أسمعها دائماً تقول:

«أمتلأ صحةً حين أسمعك تعزف يا نادر. لكن الزواج هو الواقع، هو الإقامة مع شخص آخر لا نعرف إن كان على حق أو باطل تماماً. لا نلاحظ أنه يختلف عنّا بين ليلةٍ وضحاها. وجبة الطعام هي الأخرى لابد لها من أن تتغير».

قلت ذلك وأنا أضحك، فصمت الجميع. سرق مني الزواج مرحي وفتوّتي وخبصتي. تغيرت، وافقت أنا على التغيير. كنت أشاهد صورتي في المرآة من هذا الجانب أو ذاك فأبدو قديماً. أركض وأجري لكني قبلت بصورتي الجديدة لكي تقبل بها زوجتي، ولا أنحرف عن توقعاتها. كانت قبل الزواج مولعة بالموسيقى والعزف على الغيتار، والنوتات التي كنت أبقى ساهراً حتى ساعة متأخرة من الليل وأنا أدوّنها. كانت رقيقة وحنونة وهي تحمل تلك الآلة إليّ حيث أجلس، تصونها وتمسحها قبل أن تضعها في بيتها الجلدي. تقبل على عزفي كأنني أهم العازفين في الجامعة. وأنا أتفنّن، أشعر بأن عمودي الفقري اعوجّ بعض الشيء، وأصابعي صارت أرقّ وألطف مما كانت عليه، فقط لكي أنال رضاها قبل رضى نفسي. أحبّتني وباحت لي بكل ما عشقته فيّ؛ وكان عزفي أكبر مكوّنات هذا العشق. ماذا حدث بعد ذلك؟ يصعب عليّ معرفة أسباب ذلك التغيير. لا أذكر من وضع الغيتار

في المرآب. هي أم أنا؟ ارتخت أوتاره من الرطوبة والغبار وأصابه التلف. ذهبت إلى هناك في أحد الأيام وشاهدته أمامي: مريضاً، ومسناً. لمسته بيدي كما لمست ليون يوم ولادته الأولى. كنتُ أعتبره جزءاً مني، أُودِعه أحاسيسي وفرحي وشجني. لذا، لم أقدر على رؤية أحاسيسي مرميةً ومركونةً هكذا. لم تسعني رؤيته هكذا مغبراً يتوسّل إليّ، فضربته بغضب حتى تقطعت بعض أوتاره بين يديّ. كررت ذلك كما لو أنني أمسك بالسوط وأضرب نفسي. تذكرت والدي حين كان يضرب أمي، تذكرت الآباء، والأزواج، والأمهات والأبناء.

بقيت أكرر لنفسي: إنني على العكس من والدي. هل كنت هكذا فعلاً؟ توقعت أن أكون ضد زوجتي، فما نفع أن أكون مع نفسي؟ لماذا تلاشيت أنا وخاتم الزواج بيدي أنظر اليه، لا أفرح ولا أحزن؟ اشتريته قبل وصول أمي لحفل الزفاف الصغير الذي أقمناه. كان السيد كن الوحيد من عالم سهيلة، حتى خالي لم يحضر من أفريقيا. اعتذر بشدة وأرسل هدية، شيكاً بخمسمائة جينيه استرليني. قال اشتروا على مزاجكم ما شئتم واعذروني. أهدتنا أمي خاتمها الألماس، هدية جدتي من والدتها. وضعته بإصبع سونيا. كان كبيراً على مقاسه فغيّرت مكانه. عانقتها سهيلة وغطّت الدموع كل وجهها. كيف استطعت أن أتغير إلى هذا الحدّ؟ شعرت بأنني سُرقت، مسلوب أنا، نُهبت مني طبيعتي الأولى البسيطة وأنا في ذلك المرآب المظلم. شعرت للمرة الأولى منذ أن هجرنا بغداد، بأنني لم أعد إلى هنا ولا بمقدوري العودة إلى هناك.

«هيا، تفضل يا نادر. سأركن العربة وألحق بكم».

كان الجميع مضيافاً وحنوناً. وقفت كارولين تدقّق في عناوين الكتب الفرنسية أمام المكتبة الكبيرة الموجودة في الصالون وبجوارها وجد يتحادثان بهمس. أسمع صوت ضحك كارولين وهمهمات وجد.

عادت بلانش فعانقتني ووجهها بغاية السرور. حاتم روحه تشع ويحرجني حنانه ورقته. يمسك بيدي، ويدور معي في أرجاء الدارة المضيئة.

«تعال أعرّفك إلى الفتاتين اللطيفتين. تخجلان قليلاً من الضيوف والوجوه الجديدة».

صادفني البيانو ونحن ندخل. نظرت إليه خطفاً. وُضع في المجاز العريض وأمامه كرسي خاص. شاهدت ديالى أمامنا، وقفت ورأسها منحنٍ قليلاً، وراءها قدس. تم التعارف بطريقة عفوية. يُدخل جمال ديالى البهجة إلى القلب. تذكرت أقوال أبي حين يشاهد صديقات أمي، فريال ونرمين وتماضر وأزهار. كنت أشاهد فمه يتلمّظ، يبلع ريقه، وهو يسلّم عليهن:

«كل وحدة عبالك كيكة».

لم أفهم هذا الوصف أبداً. كانت فريال جميلة وكنت أحبها كثيراً. كانت تسخر من كل شيء، من والدي ووالدتي، ومن نفسها، ومن الأوضاع جميعاً. لديها قدرة على الاستهزاء بالجمال: جمالها، جمال أمي وجمال الجمال، فكانت تقول بصوت ضاحك: يمكنني أن أبرهن لكم أن الجمال زائف، مجرم لأنه ضدنا. كيف أشرح لك هذا الأمر يا نادر؟ والله لا أعرف. ربما، لهذا السبب أو لغيره، طلّقها زوجها. لا أدري إن كانت تُضرب مثل سهيلة أم أنها هي التي ضربت فحصل ما حصل. كانت تشكّك في كل شيء، تعيد وتكرر: والله الحق معهم لو ضربونا جميعاً. إننا لا نطاق، لا أطيق نفسي وأحياناً لا أطيق أمك. كنت أحبها جداً، لذيذة. تبهرني أحاديثها وطرائفها. ما إن تصل بيتنا حتى تغيّر الديكور وتدمدم في وجه سهيلة: هذا متحف للشمع وليس بيتاً مريحاً. نادر، اذهب إلى الحديقة واقطف لنا أجمل الورود وتعال. لا تُبالِ بوالديك والجنود المعسكرين على الباب. أقسم إن الورد لا ينمو جيداً هنا، بل يمرض».

كاد جمال ديالى يرفعني عن الأرض، فلا أدري متى وكيف سأنزل ثانية. ترفع رأسها فجأة فأرى وجهها كله قد صار ورديا. لا تشبه أمها، هي سمراء بعينين خضراوين كحاتم. اسمها على اسم إحدى المحافظات العراقية المشهورة بالبرتقال والليمون الحلو. شعرت برائحة تلك المزارع تدخل أنفي. مدّت يدها وصافحتني. ترتدي البلوجينز الطويل وتسحب ذيله خلفها.

«ديالى».

تصافحنا لكنها سحبت يدها بسرعة. أما قدس، فقد تحدثت على الفور. كادت تقاطع أختها بصوت واضح:

«أنا قدس وأنت نادر، ابن «تانت» سهيلة».

كانت تشير بيدها ثم أمسكت بيدي، فأطلق حاتم ضحكة صغيرة:

«إنها عفريتة. هي حبيبة سهيلة. كانتا تتخاصمان كلما حضرت أمك إلى هنا. تزعل قدس شوية وتختفي عن طريقها ثم تعود، تقف في الممر، تطلّ عليها من دون أن تدعها تلاحظ ذلك».

قالت قدس وهي تقبض على يدي:

«خذني إلى سهيلة».

كان المكان أليفاً، رائحة الطبخ تحضر وأمي غائبة. تمر بنا نرجس وهي في طريقها من هناك إلى الصالون. صوتها لا يكاد يبدأ بالجملة الأولى حتى ينهيها حاتم الذي فارقني وسلّمني إلى ابنتيه. رفعت قدس يدها بالتحية لأختها:

«ديالى، هيا ابدئي بالعزف».

لم تفارقهما الابتسامة. أسماء تتحرك، تحمل المواعين، وتتبعها بلانش وبيدها صينية صُفّت عليها الأقداح. جلست ديالى على الكرسي، رفعت غطاء البيانو، سعلت قليلاً وكأنما تتهيأ أمام الجمهور

وتقوم بالحركات المطلوبة للفت الانتباه إليها. ثم انحنت قليلاً. أعادني صوتها إلى نفسي عندما بدأت تتحدث، قالت:

«سأعزف بعض المقطوعات من فرقة «الزنجي البني» المؤلفة من سود وعرب. سأقول لك بعض كلماتهم أولاً. تفهم الفرنسية ها، طبعاً؟ «كم من الحقد في النظرات. كم من الإهانات في الأفواه. تتغير الأجيال لكن طموحاتها تزداد شبهة».

بقيت قدس تنظر إليّ، تقترب وتبتعد، تبتسم وتحرّك يدها. خفت أن تلاحظا دموعي التي زجرتُها بعيداً. أغمضت عيني ودفعت بي لكي نجلس على الأرض. الحب قادر على شفاء سهيلة، ذلك ما أغضبني من وجد في اليوم الأول. التفتت ديالى وقالت بصوت شديد الحياء:

«اسمع، لا أعرف الإلقاء كما يجب، لذا أرجوك ألا تحكم عليّ. اسمع هذه الثانية: «نسينا النظام إلا حين يتعلق الأمر بإعادة الانتخاب. الدولة تمسك برقابنا بواسطة الآمال الكبيرة». إنني أحب هذه الأغنية جداً، اسمع: «لن تتحرك الدولة قبل أن يتكاثر المهمّشون إلى حد أن أنفاسهم ستثقل أرصفة الحي السادس عشر».

تنبهت قدس فجأة فبادرت حالاً:

«الحي السادس عشر، هو الحي الباريسي البورجوازي».

غمزت أختها بعينيها ونفخت صدرها وهي تواصل:

«نادر، اسمع، سنعزف شيئاً عليك أن تخمّنه. هل تستطيع»؟

كأننا في حديقة دارنا في بغداد لكن سهيلة لم تناد عليّ، ماذا لو حضرت معنا؟ لماذا لم نفكر في ذلك؟ شاهدتها اليوم جميلة، أجمل مما كانت عليه في أي يوم مضى. جمال لا علاقة له بالصبغة، أو الزينة، أو العقد الفضي والبلوزة الحريرية التي غطت صدرها. صدرها، كان مشكلتها الأولى، خاصة على المسرح. كان كبيراً وهي تخجل منه.

ألقت ديالى قصائد أولئك المهمَّشين. رتَّلتها كأنها رسائل موجَّهة إلينا جميعاً، كأننا نحن المهمَّشون. هي نفسها رسالة إلى سهيلة. عزفتها ودندنت معها كأجمل ما يكون العزف والغناء. بقيت هناك بقعة في روح أمي موقوفة لذاك الأسير، مسجَّلة باسمه، كل يوم يتكرر الرجاء، إلاّ أن تلك البقعة من الروح ستظل خالية.

هتفت بصوت عال:

«زوروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة».

بوسع سهيلة أن تصرخ مثلي؛ لو أصاب الموت والدي، لكان أكثر أمناً من الأسر. يفضّل أفراد العائلة زيارة قبره على السماح بإضافة متاعب جديدة: الأمل والحديث عن الغد.

سألت قدس:

«ها، ما رأيك أستاذ»؟

قالت أستاذ بعربية ممتازة وبصوت قوي وهي تشاهدني وكأنني مخلوق نزل إلى الأرض للتو. كنت أتوق إلى تقبيلها، إلى أن أصيح بها، هذا أجمل وأشهى عشاء تناولته في حياتي. ديالى وقدس تقتربان من كتفي وتحاولان رفعي إلى الأعلى. أقف بينهما، أحضنهما معاً، أبتلع دموعي مرة، مرتين. ساعدتاني بلطف أشبه بالنسيم كي أكون أفضل. كنت أهتز وأرتعش وهما تمسكان بيدي وتدفعان بي إلى غرفة الطعام، وأصوات الجميع الصافية تزيدني هدوءاً.

(٢)

اجتمعنا إلى طاولة الطعام. لفتت انتباهي الملاعق الفضية والصحون من السيراميك الغالي والنفيس. كانت المائدة عامرة بأطايب الطعام: سمك لذيذ وصلصة حارقة، وقريدس صغير وردي، وخضار لا تحصى أنواعها: أرضي شوكي، أفوكاتو مقطّع، وفجل، جزر،

خس، طماطم، خيار، وشمندر.

نرجس واقفة ووجهها فُرِح، بينما كان حاتم يدندن أغنية عراقية وبلانش تستفزّه:

«حاتم اليوم لازم ينطلق صوتك من سجنه الانفرادي، ها؟ لخاطر نادر وسهيلة».

كان يبتسم والجاذبية بينه وبين نرجس تجذبنا إليهما. الطاولة مستديرة تتسع لستة أشخاص، شعرت بالحرج حين شاهدت حاتم ونرجس لا يجلسان معنا، وقفت لكن أسماء دفعتني بحنان:

«اجلس عيني، كلنا مو خطار هنا، هذا مثل بيتنا وكلنا أهل. نادر عيني ترى أنت نحيف مثل أمك، شنو أنت ما تأكل هناك»؟

ضحك الجميع وأنا أمدّ صحني إلى حيث مدّت نرجس يدها بقطعة دسمة من صدر السمكة. دارت على الصحون توزّع الطعام وحاتم يضع الصلصة. بدأت كارولين تأكل على مهل وترسل إليّ إشارات من عينيها، كأنها تقول إنها مغرمة مثلنا بالأكل الشرقي.

«هنا لا أحد يلحّ على أحد يا نادر. تذكّر أنك في بيتك».

قال حاتم ذلك وهو يقترب من كارولين ويشير عليها بشريحة من الليمون الحامض والمخللات.

قالت كارولين:

«هذه خلطة من عدة ثقافات. أحب هذا المزيج فأنا أختلف عن أفراد عائلتي البورجوازية، وحتى عن بلدي. تعلّمت أن أتذوق وأتلذذ بالتنوع الذي قدمته إليّ سهيلة في أول يوم من تعارفنا، ثم في بيت بلانش ولدى نور. أشعرتني سهيلة بأنني أمام فنانة بابلية وها أنا وحولي هذه الأطباق الجميلة بكل ما لذّ وطاب. إن الشعر فعلاً هو موهبة العراق الأولى، برغم أن نرجس لبنانية».

أجابت أسماء وهي تبتسم:

«لا تنسي عيني كارولين أن حاتم عراقي».

بلعت كارولين اللقمة ورفعت رأسها إلينا:

«كلا لم أنسَ، ومن بمقدوره النسيان معكم جميعاً. سوف أخبركم شيئاً عن الكروفيت الذي أراه أمامي نائماً في هذه الصحون وكأنه يريد مني أن أبوح بما حصل معي ومع سهيلة أكثر من مرة. لكن قبل هذا، سأخبركم بما حصل معي. ذات يوم طلبت مني سهيلة أن أعدَّ لها طبخة سويدية، أي شيء، حساء، كاتو، أي طبق حتى لو كان شراباً ساخناً. جفّ لساني وحرّكت رأسي. أي نعم، سأفعل ذلك في يوم قريب. هي تنتظر، لا تلحّ لكن نظراتها وهي تدعوني إلى أطباقها البسيطة واللذيذة تحرجني جداً وأنا صامدة لا أتزحزح. خفت أن تصيبني لعناتها في ما إذا وإذا. أرسلت إليّ أمي كتاباً عن الطبخ السويدي ووضعت إشارات على بعض الصحون السهلة والبسيطة. استخدمت تربيتي الغذائية العادية واكتشفت أننا نأكل وكأنّ بوليساً سرياً يتعقّبنا. ازدادت حالتي سوءاً وأنا أقرأ المقادير؛ إن طعامنا ليس فيه أي لغز نحاول فكّه. ونحن أصلاً من طبقة لا تعرف سوى الوجبات غير الخارجة على القانون. قدّرت من جهتي، أن المطبخ المكسيكي هو الأقرب إلى الشرق، فأعددت لها الوجبة المكسيكية الشهيرة: تشيلي كونكارني. استغرق الأمر فترة للتدريب والتعلم والإعداد. في أحد الأيام، دعوتها إلى العشاء. كفى، كفى، لن أتمكّن من مواصلة سرد الفضيحة التي اقترفتها. بعد اللقمة الثالثة دخلت أمك».

هنا التفتت إليّ وأصبح وجهها موازياً لوجهي، قرمزياً، لكنها واصلت بشجاعة:

دخلت سهيلة إلى الحمام، وبصورة تلقائية انتهى الأمر هناك. سمعت صوت الماء وهو يشطف ساعاتي الطويلة التي أمضيتها. غسلت وجهها، سرّحت شعرها، وضعت أحمر الشفاه وتعطّرت أيضاً. عادت

إلى غرفة الطعام، جلست، صبت لنفسها قدحاً من الماء وشربته كله ثم أشعلت سيجارة. التفتت إليّ وأنا في أسوأ حالٍ من الحيرة والقلق. كان حسّ السخرية لا يُصدَّق في نبرة صوتها وهي تقول بصوت شديد الهدوء:

«لو لم تكوني كارولين صديقتي العزيزة لشككت في أمرك».

لم أجب، لكنها واصلت:

«هل كنت تنوين تسميمي يا عزيزتي؟ إذا ما فكرت في أن أقتل أحدهم فسوف أدعوك إلى إعداد هذه الطبخة الخبيثة، فلن يشك فيك أحد. كارولين إياك ثم إياك أن تدعيني إلى مطبخك ثانية، سأستمرّ بدعوتك إلى أطباقي وأمري إلى الله، وأنت،عقاباً لك، عليك بدعوتي إلى المطاعم الإيطالية والصينية والإيرانية، ها اتفقنا عزيزتي»؟

أطلقنا ضحكاً عالياً، لا نعرف كيف نواسيها، لكنها واصلت:

«ومنذ ذلك اليوم، أعلنت التوبة. كنت أدعوها في الغالب إلى مطاعم الأسماك في المونبارناس المختصة بتلك الأطباق. إضافة إلى ذلك، كانت تحب الكروفيت. حين أقول لها إن هذا الطبق يزيد من نسبة الكوليسترول في الدم وأنت تتبعين نظاماً صحياً جيداً لإنقاصه، كانت تجيب واضعةً حداً للنقاش: «عليك بقراءة كتاب روبيرت واريت حول الخيانة والوفاء». وحين أسألها ما شأن ذلك بالكروفيت، تبدأ بسرد ما قرأت: «من بين جميع الأنواع المعروفة، فإن الجمبري والعلق هما النوعان الوحيدان اللذان يتميزان بالوفاء الزوجي. أما بالنسبة إلى المرأة والرجل، فالأمر ليس مؤكداً. ذلك الكاتب الأميركي، مؤلف كتاب الحيوان الأخلاقي، أثار الرعب عند الرجال والنساء حين كتب: «إن تعدد الشركاء يضمن استمرارية النوع». أطلقت ضحكة قوية أمامها وأنا أسألها: «أما زلت مشغولة بموضوعي الخيانة والوفاء يا سهيلة؟ لم ترد أمك يا نادر».

التفتُ إلى وجد، وسألتها بصورة مباشرة:

«ما رأيك يا دكتورة، يبدو لي أن الناس تمارس الخيانة من دون مجهودٍ يُذكَر، تلك التي لا يعاقب عليها القانون»؟

كانت وجد على غير عادتها، بعيدة، وشاحبة. ابتسمت بوهن، لم ترفع رأسها إلينا، لكنها قالت من طرف لسانها كأنها تخاف من شيء محدد:

«إن الخيانة لدى الرجال تعادل الوجود والتوازن، وهي معادلة للسطوة والنفوذ والصيت القوي».

سألتها بصوت متردد:

«وماذا عن النساء يا دكتورة»؟

رفعت رأسها إليّ. كانت نظراتها حزينة جداً:

«ما دمنا نتحدث عن سهيلة فهي كانت تقول، ربما النساء خائنات بقدر الرجال، ربما أقل أو أكثر، لكنهنّ شديدات الكتمان. هذا كلّ ما في الأمر».

تدخلت أسماء وهي تحاول أن تخفف من حدة التوتر:

«هسه شنو هذا الكلام اللي يحرق الروح. المرأة أقل أو الرجل أكثر. يمكن كل واحد يشعر بأنه تعرض مرات للخيانة، مرات يخون ولا يعرف ذلك، من دون وعي، مو هكذا تقولون بلغة علم النفس يا دكتورة»؟

لم تُجِب وجد. أخذت المنديل الورقي بيدها وبدأت تمسح فمها. كانت كارولين مثل الطرشاء بالزفة، إلا أن بلانش كانت تترجم لها. التفتت إليّ بصورة عرضية وكأنها تريد أن تختم هذا الموضوع الحسّاس:

«أمك قاسية يا نادر، قاسية جداً. هل تعلم ذلك»؟

كانت نرجس تضع طبقها على طاولة صغيرة قريبة منّا، جلست حولها مع حاتم. وقفت بعد قليل وهي تمسك الصحن بيدها:

«كانت لدى سهيلة تصورات مثل أولئك البدائيين، مثلاً: إن في الجسم السمين نفساً رقيقة». هنا نظرت إلى بلانش وابتسمت بحنان، ثم قالت:

«وفي الجسم النحيف نفس كبيرة أيضاً، لذلك كانت تضيف، إن النسّاك يقومون بصيامات متعددة وطويلة لكي يملكوا نفوساً كبيرة ويحقّقوا مسكناً كبيراً لتلك النفوس».

«شكراً على هذه الأطايب يا نرجس. ترى من طبخ اليوم»؟

أجابت بلانش وهي تمدّ يدها لجمع الصحون:

«إنهما شريكان بديعان، نرجس تدوّخ السمكة بالصلصة الشهية وحاتم يصطادها ويضعها في الصحن ويوزّع حولها تشكيلات الخضار. هو يستحضر ثقافته الشعرية ونفَسه العراقي، وهي تمتّعنا بذوقها وأناقتها اللبنانيين».

«الله عليك يا بلانش، كلكم شعراء، روحي تفرفح وأنا أسمع الشعر وأقرأه، لكني في الأخير توجّهت إلى دراسة الاقتصاد».

أجابن كارولين بثقة العارف:

«أنت في مركز العالم اليوم، أنت التي تنظمين الفوضى المالية وتضعين في الأرقام بعضاً من الحيوية».

عادت الطاولة نظيفة وأصابنا ارتخاء ما بعد الطعام. وجد واقفة أمام النافذة تنظر بعيداً، تراءى لي أنها تتنهد. هل من حقي أن أسالها، ربما ستجفل. بدت متحفظة تحمل في عينيها حزناً عميقاً:

«إلى أين سرحت يا دكتورة؟ كيف يفسّر الشرود وسط الأصحاب في لغة علم النفس؟ ترى، هل هناك أماكن خاصة للشرود؟ هل ثمة

أماكن قادرة على التخفيف من حدة الشرود والإحباط»؟

التفتت إليّ. وجهها يزداد ألماً كأنها تصارع شيئاً أقوى منها:

«هل ستعود إلى المستشفى بعد أن نخرج من هنا»؟

«نعم».

«جيد، المسافة من هنا إلى هناك ليست بعيدة، سنقطعها ونحن نتحدث».

«عن سهيلة أم عني أم...»

«أم...»

ابتسمت وجد أخيراً ابتسامة صغيرة ونحن نسمع صوت أسماء وهي تدعونا إلى شرب الشاي العراقي.

(٣)

تنبّهت إلى أسماء وهي تقف أمامنا، تحمل بيدها الصينية وينبعث البخار من الاستكانات العراقية الملمّعة الأطراف. قالت بصوت رقيق:

«والله خجلانة منك عيني نادر. وعدني حمادة أن يجي ويتعرف إليك لكنه دائماً يحرجني أمام الأصدقاء. أي هو شوية يستحي من الخبصة والناس الذين لا يعرفهم زين».

«سأتعرف إليه يوماً، ليس عليك أن تعتذري. الأيام القادمة طويلة وسوف نلتقي».

«بس مع أمك يصير على سجيته، ينطلق ويحادثها طويلاً. والله لا أدري منين يجيب الكلام معها؟ تسأله عن الكومبيوتر، تقول أي هو مثلك. أنتما مهندسان في البرمجة، تبرمجان أشياء كثيرة، لكنكما لا تعرفان شلون تبرمجان حديثكما معنا. سهيلة تقول، لا أسمع صوت نادر إلا نادراً، كل شهر أو شهرين. ابني نادر، صدق أنت لا تتكلم مع

أمك إلا شوية لكنك تبقى قدام الجهاز مثل حمادة بالساعات. الله أكبر، أي شنو قابل الشاشة أعز وأهم من الوالدة، وأمك تطلّع كل حزنها وغضبها على حمادة بدلاً منك. أي يتضايق شوية حمادة لكنه يسكت لأنه يحبها ويقدّرها هواية. يحادثها بالتلفون، يشكو مني إليها حين أتأخر في عملي وأروح إلى الجمعية بعد الدوام. نجمع الأدوية، الأقلام والكرّاسات والأغذية لأطفال العراق. عيني نادر ترى كلنا هنا، الجالسين معك، حتى كارولين، نعمل بطريقة ما من أجل البلد».

لاحظت وجد أنني سأتضايق في ما لو سألتني أسماء أو بلانش ماذا فعلت أنا من أجله. لكن نرجس أنقذتني وهي تقف أمامنا بعدما تغير لون وجهي:

«نادر».

سمعت اسمي بنبرتين في وقت واحد. مرة من نرجس وأخرى من قدس التي وقفت تبحث عني بين الحضور:

قال حاتم:

«استلم حصتك يا أستاذ. لقد نجحت في الامتحان بدرجة امتياز. تريد قدس الاستئثار بك دوننا. هيا ماذا تنتظر»؟

حاولت نرجس أن تضفي بعض المرح، فقالت:

«أنت مطلوب من البنات. تصوّر، قدس قالت إنك ستعزف لهن على الغيتار. عفاريت فعلاً، اتصلن بصديقتهن الصينية «هي». فحضرت برفقة الغيتار. هيا، تعال لا ينفع معهن أي عذر».

ابتسمت عينا نرجس الزرقاوان العميقتان وهي تنظر إليّ. كانت عيناها تشعّان سماحةً ونبلاً. قالت سهيلة عنها حين زارتنا في كندا: نرجس طوق نجاة، تقبلك بضعفك وأمراضك وتنقلك إلى الضفة الثانية. تضع يدها الطيبة على كتفك فتشعر بأنها تتفهم حالك على

الفور. لا أدري عندما شاهدتني هل أصدرت حكمها؟ هل تفهّمت وعذرت أم أجّلته قليلاً؟ كنت مأخوذاً بكل شيء، بالأصدقاء الحقيقيين هؤلاء حتى أجتاز الأحداث والمصائب. كنت على هذه الصورة من المشاعر حين سمعت نرجس تصيح ثانية من أول غرفة المكتب:

«نادر، زوجتك على الهاتف».

'ولكن من أين حصلت على رقم الهاتف. كان يبدو عليّ وقعُ المفاجأة، فقالت كارولين التي حضرت ووقفت بجوار البنات في الممر قرب الهاتف:

«أنا أعطيتها خط سيرنا حين اتصلت بي مساءً».

كان صوتي خفيضاً:

«أنت على حق يا سونيا المعذرة».

«كلا، لم أنسَ. كيف أنساكم يا عزيزتي، كل ما في الأمر أنني أجلّت الحديث معك إلى منتصف الليل».

«طبعاً، إنها تتقدم وتتحسن، لكنني طماع. أريد كل شيء أن يمر بسرعة فتعود كالسابق، وهذا غير ممكن في الوقت الحاضر».

«كلا، إطلاقاً، لا يستحسن حضوركما الآن. كيف؟ لم أقل إنك تلاحقينني. من المؤكد أنك قلقة. أعرف هذا لكنني لم أشأ إقلاقك أكثر. بالطبع إنني أهتم بكما يا سونيا أرجوك، هذا ليس وقت العتاب واللوم. لا تطرحي عليّ أسئلة لا أعرف مسبقاً الإجابة عنها. كيف لي أن أعرف متى ساعود»؟

«حسناً، إن كانت أختك ستحضر بعد غد من لندن، فسوف أطمئن أكثر. كيف حال ليون»؟

وضعت السماعة أمام فمه وبدأ يحدثني بكلامه غير المفهوم، يكرّر ويغني.

«نعم، تحركت، لا، ليس جسمها كله، فقط الأصابع وجفناها، فتحت عينيها قليلاً وأغلقتهما. تفعل هذا دائماً، تعود بصورة ما وتغيب مجدداً. لا أدري كأنها تلعب عليّ. حين تفتح عينيها لا تنظر إلى أحد. تنظر في الفراغ، نوع من النظر الغريب، كأن الشخص ليس هو نفسه، ذاك الذي كنا نعرفه من قبل. على العموم، هذا النمط من التصرفات هو ما سألاقيه في الأيام المقبلة. قال الطبيب إنه ما من داعٍ للخوف. إنه أمر طبيعي جداً في الفترة الأولى».

«تماماً، لقد نجت من الأسوأ، ونحن جميعاً نريد أن نصدق ذلك».

«سنذهب إليها بعدما نخرج من هنا أنا والدكتورة وجد. إلى اللقاء يا سونيا».

وضعت السماعة وتراخيت في الكنبة الوثيرة. بقي صوت ليون في أذني: دادي، تعال. تمنيت في أحد الأيام لو كنت أملك رحماً، وأستطيع الولادة كسهيلة وسونيا وكل نساء الأرض.

«هل كل شيء على ما يرام يا نادر»؟

رفعت رأسي إلى وجه نرجس. كانت تحمل صحوناً من المعمول والحلويات اللبنانية التي كنت أحبها كثيراً. وقفت وأنا أهمّ اليها:

«أرجوك دعيني أحملها عنك. كلا، كلا، كل شيء تمام، إنه مجرد قلق».

«هذا طبيعي أليس كذلك»؟

لا أدري إن أخطأت لأنني لم أحادث سونيا عن جميع التفاصيل. لم أكن أريد إقلاقها، لكن صوتها اليوم كان يحمل رنيناً آخر غير القلق؛ هي الغيرة ربما، فأنا محاط بالنساء. لم أر خاتم الزواج في إصبع وجد ولا كارولين ولا أسماء. كما أن وجد لم تكن على ما

يرام، بدت بعيدة وكأنها صُدمت قبل أن تحضر إلى هنا. لاحظت حالتها تلك. كنتُ قد جرّبتها من قبل. قد يكون السبب خراب العلاقة مع الرجل. لماذا خطر هذا الأمر ببالي في تلك الدقائق وصوت سونيا لا يزال في أذني وهي على وشك أن تنهار وتنفجر بالبكاء. كاد أستكان الشاي يبرد في يدي، حرّكت الملعقة على مهل وسمعت اسمي يتردد ثانية:

«نادر...»

قدس مجدداً. كانت تقف متأهبة وهي تنتظرني. غيّرت هندامها وارتدت ملابس خاصة بالهنود الحمر. صبغت وجهها بألوان مختلفة ووضعت ريشة في مقدمة رأسها. كانت تقف أمامي كفوّهة مدفع، تريد مني إصدار الأوامر لإطلاق النار. كانت آسرة، أمسكت بيدي ومن دون كلام، أوقفتني أمام آلة الغيتار الذي كان ممدداً على الكنبة الطويلة. الفتاة الصينية «هي»، وديالى بجوارها، كأنهما تريدان إقامة حفل. جفلت وأنا أرى آلة صغيرة، أكبر قليلاً من آلتي الأولى، تلك التي كنت أعزف عليها في بغداد، ما بين السابعة والعاشرة من عمري. تبادلن النظرات في ما بينهن ثم رفعن رؤوسهن إليّ:

«هيا يا نادر، إنه غيتار صغير، لكنه أحسن ما لدينا هنا. هيا سوف نرافقك في التصفيق والرقص. أنا أرقص أفضل منهن».

أشارت قدس بيدها علامة النصر وتعلقت بيدي. ماذا يمكن أن يشجعني على العزف أكثر من هذا الغنج وهذا اللطف؟ لم يكن صوتي يُسمع، كما أنه لم يكن قادراً على الإفصاح عما يعتمل في صدري من مشاعر متضاربة. وقفت كارولين وبيدها آلة التصوير وبدأت تلتقط الصور بطريقة غير مهنية، تك، تك والفلاش يلمع وينطفئ. عليّ أن أُسعد هؤلاء الفتيات. تختلس ديالى النظر، تلتمع عيناها فأشعر بأنني أخضّها بطريقة ما. أمسكت الغيتار في تلك اللحظة. أطفأت ديالى

النور القوي في الممر، اتخذت هيئة من يقف أمام جمهور يضمر لهم أشد آيات الإجلال والامتنان. جلست على الكنبة.

قالت كارولين بحنان غامر:

«اعزف ما تشاء يا نادر».

سمعت صوت نرجس يقول بنبرة ودودة:

«لنصغِ إلى عزفك من هنا، فهذا أفضل».

بقي الكبار في الصالون والفتيات بركن على الأرض أمامي. كانت عيونهن ترقبني، وتتقد بالذكاء والفطنة وشيء لا يوصف من الفرح. بدأت العزف على مهل. ضبطت الأوتار وأغمضت عيني قليلاً. اعتراني ألم داخلي لا أستطيع وصفه، ليس ألم الطفولة الأولى، ولا ألم الشباب الخالص الذي ولّى من دون رجعة. ألم من لم يصل إلى النشوة بعدما تسرّب الحب من بين يديه، حبي الأول لليال. كانت المعزوفات مثل سبّحة جدي. ما إن أضع أصابعي على الأوتار حتى تنفرط الألحان تدريجياً من بين يدي. تتسارع دقات قلبي وضربات أصابعي. أخشى الفشل أمامهن، وثمة إحساس جارف يشدّني إلى الألحان الأولى، تلك التي أحبّتها ليال، تلك التي عزفتها لها من دون مراجعة: love story. حين قالت سوف أغادر إلى بيروت لم أفطن إلى أنها تتخلى عني. قالت ستعود وصدّقت. ربما افترضت أنّ الأمر غير مهم، وربما نسيت، وأنا أنتظرها أمام أبواب دُور السينما والمتاحف والمسارح والمقاهي الباريسية. بدت حذرة جداً من الشبان العرب، ولا سيما العراقيين المنفيين، الذين لا يعرفون لوالدهم عنواناً، فلم توح بالتسليم إليّ سوى بهزة من الرأس، هزة أربكتني في بادئ الأمر. نعم، هنا بدأت أردد تلك المقطوعة، أصفرها أمامها وهي تتمايل من أمامي ومن خلفي. نمشي في الشوارع والجادات، تحت المطر والثلج والريح القوية. ألاحقها وأهتف في وجهها، أمام المارة: هيا، انظروا إلى

وجهها الذي أسقمني جماله. قولوا لها إنها الجميلة المغرورة، والمتكبرة، فأغطي كرامتي بغضبي. وليال أمامي كسوط أبي، تصوّرت الفتيل يتفجر من بين ذراعيها، وبدل سحبه إلى الخارج، تفجرّه في وجهي. توقفني أمامها بدموع حارة ويتسرّب صوتها من بين صوت المطر والدموع: اسمع، أنا لا أصلح لك وأنت أيضاً. أخاف هذا النوع من الحب، أخافك. لا، دعني أذهب، إنني لا أصلح. هيا، اذهب حالاً ودعني، اذهب، دعني وشأني. لكنها تتناثر فتجذبني إلى فُتاتها. كلما أرادت الانفصال عني، التصقت بها أكثر، فتقفز قفزة عالية إلى الخلف كما تفعل ديالى بالضبط. وجهها نوراني كما وجه ليال. لطالما توسّلت ليال ألا تذرف الدموع، فلا ترد. يصير وجهها كالسدّ، وتشرق عيناها البنيتان المغريتان بشيء غير الدمع، لا أعرف كنهه. لكنها لا تقول شيئاً. لا تكلّمني. كانت صعبة المراس، وقاسية، ومؤذية. لم أستطع أن أنسى قسوتها، ولا نبرتها المؤنّبة وأنا أسمع صفارات القطارات المغادرة من باريس إلى ليل، حيث تسكن وتدرس. كانت ستغادر في الصباح الباكر. علّي أن أقبّلها قبل أن أموت. فكرت في ذلك قبل أن أراها، اعتقدت أنني سأموت إذا لم أقبّلها، لكنني لم أمت حين شاهدتها، ولم أكن مسروراً أيضاً. كانت رغبتي تنهشني وهي تسير أمامي. تجلس، وتدخّن، وتشرب النبيذ. هي التي علمتني شربه أول مرة. وحين تتقدم باتجاهي، أفتح ذراعي. أريد أن أضمّها إلى صدري. أتنفس بهدوء وبطء وهي بجواري، بجسمها الناحل وكأنني أستيقظ من حلم. قلت لها إن جسمها صيفي، ضحكت أول ما سمعت هذا ولم ترد. كنت أريد أن أجمعه بين يدي كما تُجمع خيوط الحرير، فأكتشف رغبات جديدة لم يسبقني إليها أحد عندها وعندي، لكننا لم نتحادث. بقيت أرقبها وأحترق، هي تدخّن وأنا أشمّ وأستنشق دخانها. أمسكتها، في أحد الأيام، من يدها وسحبتها بقوة، صعدنا أول سيارة أجرة صادفتنا وذهبنا إلى شقتنا. كانت سهيلة في تونس تحضر إحدى

الندوات عن المسرح. في غرفتي إياها كانت هناك ثمرة واحدة، إجاصة وضعتها أمي في صحن عميق ذي نقوش جميلة:

«تكاد تسحقني. نادر أرجوك، دعني، سآكلها وحدي».

وضعت الثمرة بين فتحتي شفتيها، بين اللسان واللسان. بدأت أقشرها وأنا أمد لساني وأسناني، أسحب القشرة ولساني ينام بين أسنانها. لا أغمض عيني ولا أفكر في نفسي. فقط أدفع بماء الثمرة إلى جوفها، إلى الداخل. يفور الماء ويسيل إلى حنكها فأمصه وهي على وشك أن تغفو وأنا أريد أن تفتح عينيها قليلاً لكي أعرفها أكثر، لكنها لم تنظر إليّ. فقط أنا الذي كنت أتلاشى، أتحايل على نفسي لكي لا تبتعد عني، وهي بين ذراعي. كانت تبتعد ثم تزداد بعداً. كلما ارتعشت وارتجفت، أبدأ بلمسها. أمسّ جسدها الغافي بين يدي، ذلك الجسد الطري الذي دوّخني. لم يكن طوع بناني. في بادئ الأمر، انكمش وابتعد، كأنه يرفض هذه الصحبة. صدقتها لمّا قالت إنها ستعود. صدقت كلّ ما قالته لي. وما إن تحرّكت تريد أن تغادر حالاً، حتى بدأت أنفر منها. فجأة، أحسست أنني أرفضها. كانت تتسرّب وتقتلني بكل شراسة. لم تكن هي ليال وأنا أعزف لها الألحان التي تعلّمتها في بلدي. كانت تتركني وتذهب إلى مكان أجهله. أنا أعزف وأوهم نفسي بأنها تصغي والعرق يبلل جبيني وثيابي، كأنها تقول: اذهب يا نادر في حال سبيلك. تدبّر أمورك بعيداً عني. أنا هاربة من الحرب وأنت قادم منها. الحرب بيننا يا نادر، فلماذا لا تصدق ذلك؟ الأمر لا يعنيك ولا يعنيني فقط. نحن نعيش بين الأموات أكثر مما نعيش بين الأحياء...»

كان التصفيق يتعالى من حولي ويد مراهقة تمسكني من قميصي:

«لقد سجّلنا كلّ ما عزفت».

قالت ديالى بحياء ووجهها نسخة أصلية عن وجه ليال. وحدها

وجد تقترب مني، بقيت واقفة، تشي عيناها بأنها سمعت وشاهدت كل شيء. إنها تعرف أليس كذلك؟ لم أشح ببصري عنها ولا هي. تبادلنا النظرات وأنا أحاول أن أبتسم فأخفضت عينيّ عنها. وبلهجة مرحة بادرت أسماء:

«أمك لم تقل لنا إنك عازف ممتاز، عبالك كنت تعزف لها. تمام نادر، هل فكرت بأمك وأنت تعزف، ها عيني»؟

كانت تبتسم وتكمل:

«هذا ما ينقص حمادة، والله سوف أقصّ عليه كل شيء حتى يتندم لأنه لم يحضر ويسمعك».

«إنني مبتدئ، مجرد هاوٍ».

قالت بلانش:

«كنت غاضباً يا نادر وبذلت جهداً كي لا نلاحظ ذلك».

لم أكلّف نفسي عناء الردّ، كي لا أضع نفسي في موقف لا أعرف كيف أخرج منه.

قال حاتم وهو ينظر في عيني:

«كأنك مهدد بالخطر وأنت تعزف. كأنك في قارب وتخشى الغرق، لكن الرسالة وصلت يا نادر».

وقفت وأنا أحرّك رأسي بين البنات الثلاث. كل واحدة مدّت يدها إليّ، رفعت يد «هي» إلى فمي وطبعت عليها قبلة. ابتسمت قدس وهي تمد يدها بالريشة الصفراء. وضعتها في جيب قميصي من أعلى. لم تتفوه بكلمة، كانت تنظر إليّ فقط. استعادت رقّتها ثم التفتت إلى الجهة الثانية:

«خذ، هاك».

أضافت من دون أن أجيب:

«إن لم يعجبك هذا الرسم فعليك أن تحضر ثانية إلى هنا كي أكمل رسمك. وجهك غامض بعض الشيء وأنت تعزف».

«سيحضر مرة ومرات، إنه لا يزال هنا وسنراه كثيراً».

أجاب حاتم وهو يدفع بهن إلى الممر المؤدي إلى غرفهن. لدى ديالى كلام بلا نهاية. أدركت ذلك وهي تقف في ظل عتمة الممر. ساد الصمت والجميع واقف أو يتحرك إلى الداخل. كانت ديالى تريد أن تقول إنّ الوقت مر بسرعة. هل كانت لحظة، ثانية، أم أقصر أو أطول. كانت ليال في بعض الأحيان مكابرة. قالت ستعود يوماً وصدّقتها، كان من الأفضل ألا تقول ذلك أبداً ما دامت غير قادرة عليه.

قالت وجد وهي تحمل حقيبتها وتقف أمامي:

«سأرافقك إلى المستشفى يا نادر، أريد أن أعودها معك».

ثم قالت:

«هل تزعجك مرافقتي؟ أعني هل تودّ ألا يرافقك أحد، أن تبقى وحيداً»؟

ابتسمت في وجهها ولم أردّ.

«غداً ثريد الباسية عندنا، أرجوك لا تنسى».

كانت بلانش تضحك وهي تدعو الجميع ونحن نقف عند المدخل المؤدي إلى الباب.

«نادر، دقيقة من فضلك».

أخذتني نرجس من يدي ووقفنا أمام مكتبها وطاولتها. الملفات مكدّسة: بطاقات بريدية، ورسائل رسمية، وصحف فرنسية وعربية ومجلات، وكتب مصفوفة كتاباً فوق الآخر:

«أود أن أشكرك لكني لا أقوى، لا أعرف ماذا أقول».

«هيا لا تقل هذا ثانية».

«على اللطف والضيافة والبنات الجميلات. نرجس لا أقدر، صدقاً لا أقدر...»

«اسمع يا نادر، أمامنا أشغال كثيرة. وضعت سهيلة في عهدتي ملفات كثيرة عن الأسرى، عن حرب الثمانين بالذات وأنا جمعت لها ملفات عن حرب التسعين، لكن يعوزني الكثير بعد. هل يزعجك أن نبحث في أوراقها عن... خذ، سجلت لك ما أريده لأنها لم تقدر على أن تسلمني إياه. حصل ما حصل وأنت تعرف الباقي. أمامنا حملات من كتابة الرسائل والالتماسات وتسجيل الشكاوى وتحضير المظاهرات وتجميع كل شيء وأي شيء للعراق. ألديك الوقت والرغبة في البحث أو حتى في العمل معنا طالما أنت هنا؟ سيكون هذا مفيداً لنا ولك، ولسهيلة على ما أعتقد. فكّر بالأمر. اليوم الخميس، وعلى الأغلب سوف نأخذها نهار الاثنين إلى المصحّ. هل شرحت لك تيسا التفاصيل»؟

«نعم، كل شيء جاهز».

«وعملك يا نادر، والأسرة وباقي الأمور»؟

«رتبت أنا وكارولين عن طريق البريد الالكتروني كلّ شيء مع مدير الشركة. لقد تفهّم وضعي الجديد. لو سوّيت الأمر في عطلة نهاية الأسبوع، سوف أبحث لك عمّا طلبته. أكرّر شكري لك يا نرجس».

يوميات

أخبار هذا الصباح والذي سبقه لا تتغير. سيُضرب البلد ثانية، هكذا بلا مواعيد. يقولون عما قريب، في ما بعد، الآن، في أي لحظة. تخصصوا وتولّعوا فيه، لسنا وحدنا في كل هذا الحب الذي يطبقون به على الجثث، ولا جثة زائدة أكثر. يقول المذيع ليس تماماً بعد. متى، هذا شهر ديسمبر، في رأس السنة؟ قبلها؟ تلفلفت بالشال الصوفي السميك جداً، سحبت سيجارة، مددت ساقي، أزحت الستائر كلها وبدأت أتفرّج على الأشجار العارية. لم أقدر أن آخذ النفَس الأول، على شفتي السفلى أثر لطمة حمى. قلت لوجد، هكذا نسميها بالعراقي، ورم داكن ينضج بطريقة رخيصة، وفجأة، يجعل الكلام صعباً كالشتيمة، والابتسامة أصعب. قلت لليال قبل قليل حين اتصلت للمواساة قبل الضرب، ولتكرار دعوتي إلى حضور مناقشة أطروحتها للدكتوراه:

«لا أقدر عيني، وجهي وارم، أشعر بأنه ليس وجهي. تلك اللطمة تمشي بصورة منتظمة وأنا أتبعها، إلى أين، ربك وحده يعلم».

أجابت بصوتها الجميل:

«سهيلة، ستكونين أجمل، هيا لا تتخذيه عذراً. أمي التي لا تعرفك ألحت عليّ أن تكوني بدلاً عنها وعن نادر. طيب من أجله احضري».

أجبتها: تمام، آثار الحمى الباقية هذه حالة تافهة، لكن تعرفين، في بعض الأحيان تضرب لنا التفاهة المثل الأعلى.

ضحكت وأضافت كي تخرسني: ستكون هناك تيسا هايدن. هي عضوة الشرف في لجنة التحكيم. إنني متأكدة من أنك سوف تنسين أثر الحمى هذا وكل مآسيك قريباً.

* * * *

الساعة الثانية عشرة ظهراً:

وضعي سيّئ ومزعج. ليس للأمر علاقة بأعوامي الطويلة والكثيرة فحسب، لكن بشيء آخر يتسلّل بشراهة ما بين صدغي وفكي وتحت أجفاني، ولا يتباطأ أبداً ولم يدعني أتلافاه قطّ. كل يوم ينزع مني طبقة، ولا يدعني بالمقابل قادرة على أن أنبح كالكلب الأمين على ما بقي من اللحم والعظم وهما يتفسخان بشجاعة منقطعة النظير. لقد فعلتها الكهولة وانتهى الأمر. كنت أتعثر بها في خطاي كالتلميذة النجيبة، لكني أدفع بها بلا مبالاة إلى الطريق العام، فأشعر بأن أسناني تتحرك من مكانها، أصرّ عليها ليلاً وحين أستيقظ، أرى الدم على وسادتي ولثتي وارمة. أسناني هي أول ما خيبت آمالي. قال الدكتور نبيل، إنها مسألة وراثة وعمر لا مفر منه يا مدام. متأسف، لا أقدر على عمل أي شيء لها، سوف تزداد الأمور سوءاً عاماً تلو العام، العوض بسلامتك. حضّرت مناديل مخرمة مشغولة بالدانتيل لكي أضعها على فمي حين أضحك، ثم قررت أن الضحك لا لزوم له أيضاً، فلعل ذلك يساعد على عدم تهدل جانبي فمي. العبوس والجدية سيعطيان نتائج ممتازة. لكن أنفي تغير. أقسمت لبلانش إن الوضع في بغداد كان أفضل. كان في الحقيقة يحالفه الحظ، يشمخ قليلاً فيزيد مفعول الكرامة لديّ، فأموت سعيدة ما دمت لا أستطيع أن أعيش هكذا. لم أتذكر أنفي والديّ، نسيت شكلهما نهائياً، هل تقوّسا من ومن...

تهوّن بلانش الأمور كثيراً وتطلق ضحكتها المجلجلة وتجيب بشكل سريع: لا عليك، حين أربح اللوتو، سأجري الإصلاحات اللازمة لكل ما عُطب. هي أكثر إيماناً وسروراً مني. لكني حين أقف، كنت أبتكر طرقاً عديدة لكي أنمّي عظامي. كنت أجعلها تتعجرف إلى أقصى حد. عندما تسمع أسيمة ذلك مني تضحك طويلاً وترد عليّ: كيف يا سهيلة، بالله عليك أجيبيني كيف؟

أجيبها بحزم: العجرفة تعيد بناء مخّ العظام. إذا تواضعت فسوف تُستهلك تلك المادة بشكل درامي. إنني أمقت العظام المتواضعة. تواصل أسيمة ضحكها وأنا أواصل الشرح: أي والله، أقسم لك، في بغداد كنت أطول على الأقل بخمسة أو ستة سنتمترات.

متى بدأ النخر بهذه الطريقة الوديعة والغامضة؟ لا أحد يجيبني على سؤالي. فجأة، لا تعثرين على قامتك. فريال أقصر مني بقليل، ورباب أيضاً. في الأكاديمية كانوا يطلقون علينا: حلف القصيرات الثلاث على وزن الفرسان الثلاثة، والخلاصة، قلبي مفتوح ومسدود معاً. اليوم بالذات أنا بحاجة إلى آفة الشباب، تلك التي واريتها بساديّة. الشباب الذي لم أذق طعمه حتى الآن. لا دليل على وهم شبابي سوى كهولتي. بدأ كلطمة الحمى هذه في شفتي السفلى، سحقته هناك في بغداد، وأنا معه. اخترعت الشباب لكني لم أجرّبه كما في المختبرات والمعامل. قلت لنادر في أحد الأيام وكنا في برايتون، تتوسطنا شمعة بيضاء جميلة وقدحان من النبيذ: تريد الصدق، لا أريد الاختفاء عن العمر. علينا ألا نزعجه وندعه يتعثّر في خطواته ثم لا يعرف كيف يعتذر منّا. علينا أن نُظهره كله على محيانا ونضعه في مواضعه ولا نسرف في اللحاق به، فلربما يخجل من نذالته بكل ما نخدع أنفسنا به. شعرت بالخجل من نادر فلم أقل له إن جميع رغباتي لا تزال جامحة وحمقاء. لم أشطب ولا واحدة منها لأنني لم أكتشفها

بعد. وحين أرفع الكأس إلى الأعلى في منزل كارولين أو بلانش، لا أصدق أبداً أنني عشت، ولا أصدق جميع الثواني التي كانت تحت تصرفي وقد انصرفتُ عنها. لا أصدق أنني كنت في الثامنة والثلاثين حين غادر «السيد» ولم يعد: لم أعلم إن كان قد هرب، أُسر، انتحر أو قُتل. كان لغز الاختفاء وشبح معكسرات اللاجئين قد اقتلعا شبابي ورغبتي في الحياة من الجذور. وها أنا أفرط في سنيّ عمري وأخطو داخل متاهة حياتي، فأصير عبرة لمن اعتبر. ازدادت العداوة لجسمي حين كانت فيروسات الرغبة تدخله، فأقهرها وأنهكه بالعمل التطوعي في الجمعيات، وبالرقص المميت حتى أُصاب بالدوار. كانت وجد في أول يوم من التعارف تُصغي إليّ بحميمية صادقة، وحين ينتهي الكشف الأصولي كنا نخرج معاً، تدعوني إلى شقتها في الحي الثامن عشر، نشرب النبيذ ونفتح بعض العلب. كانت تحدثني عن وحشتها كذلك بصورة تلقائية. هل كنا حقاً متشابهتين؟ كلا، يا وجد، إننا لا نتشابه لكننا في الختام وحيدتان في باريس. كانت تصمت وتنظر إليّ، وتبادر قائلة: ألا ترين بشرتي بدأت تتجعّد، أشعر بهذا. ولحمي يتهدّل. كنت في السابق ألطف من اليوم، ألطف بكثير، كنت مغرمة وأشير بيدي عليه. كان عزة نفسي وأنفتي. كنت غبيةً فلم أسأله، هل أحببتني كما أحببتك؟ أجمع له كلام الأولين والآخرين وأفكر فيه في المترو، في القطارات التي تأخذني إلى العيادات الشعبية خارج باريس، في السرير وأنا أداعب جسمي لكي يمر عليه فيتصبب عرقاً ولطفاً. لا أجد مشقة يا سهيلة وأنا أحادثه ليلاً نهاراً. أخبره بالتفاصيل، والأسرار، والسخافات. أتلذذ بالذرائع لكي أكلّمه. كنت أحبه كل لحظة أكثر من التي فاتت. لا أكرر الكلمات أبداً. أريد أن أعتني بكل كلمة أقولها له. استعمل سحر الكلام عليّ. أفتح شهيته كفاية لكي يتذوقني فأقتات منه، هو قوتي التي أقتات عليها ومنها. أردته أن يتماهى في جسدي الذي يتوق إليه، وشفاهي العطشى إلى قُبله. وددت أن يحنو على شبابي قبل

أن يتلف. أيوه، هو من شمال أفريقيا لكن عموده الفقري به اعوجاج ما، به كسور ورضوض، لم أنتبه لزيفه في البداية، قلت فليكن، ساعتني به، ليس كطبيبة، ولا كأم، بل كعاشقة. لم أفقد صبري، لم أستسلم. كان من فصيلة عجيبة، ليس مريضاً فحسب. يهجر لأسابيع، يختفي نهائياً بلا أسباب، يغيب على أمل إخضاعي. هو جرّاح عظام مشهور. كنت أضحك وأجيبها: يمكن كان يحب أن يكسر عظامك. لا تهتم وتواصل: لكني لم أبغضه يا سهيلة. كان ضعيفاً جداً ويهدّد، قالت الجملة الأخيرة بحزن فظيع. كنت أعفو عليه وأحبه أكثر، وأكثر. أفكر أحياناً في أنني أحببته من قبل أن أراه. لا تضحكي مني يا سهيلة ولا تقولي إنني الطبيبة وأنت المريضة. في بعض الأحيان تتداخل الأمور ونتبادل الأدوار كما يحدث الآن.

• • • •

الساعة الثالثة بعد الظهر:

أحب صيف باريس، فالشك يساور مناخه في كل لحظة. أرتدي القمصان العريضة المهدّلة والتنورات الضيقة والطويلة لكي أبدو أطول. أضع المظلة في حقيبتي في أكثر الأحيان وألبس المعطف الواقي من المطر. أحب الشكوك بين شهري تموز وآب. تكون للمرء خطوات كثيرة بين رذاذ المطر ولظى الشمس. أصبح مخلوقات عديدة في ذلك الفصل. أما هذا البرد الذي ينخر في العظام، والأطراف، وفي القلب بالدرجة الأولى، فماذا أفعل به؟

الهاتف مرة ثانية، ليال تلح وأنا أجيب: سأحضر.

لماذا أنا هنا، في هذا الحمام البارد الضيق جداً؟ وجهي أمامي في المرآة. سآخذ حبة ضد الحساسية الآن، حالاً قبل أن يبدأ الهرش في القاعة وأسوّد لحظات المناقشة. الحساسية مرض تافه، هايف حسب قول وجد. عموم أمراضي تافهة ويبدو أنني أستحقها، ما من مرض

معتبرٍ بالنسبة إليّ، حتى ضغط الدم العالي مرض سخيف يصيب الملايين من البشر في شتى أنحاء العالم. كنت أشتهي مرضاً يشبهني، مرضاً يستأهلني ولا أصاب إلا به. لكن مرض الحساسية في واقع الحال يسبب عذاباً أكيداً لأنك لا تتوقع متى يحضر وأمام من ومع من تكون. يبدأ من الذراعين كتمهيد لما سوف يأتي، تتبع ذلك حكة تنزل إلى ما تحت الإبطين والقدمين. أما على الصدر والبطن، فالحكّة على الغالب كانت تطوح بي بقوة، فأحاول الاختفاء عن الجميع. ظهري هو الذي يخدعني ويسيء معاملتي، يصبح هرشه كالغول، فلا أقدر على أن أصل إلى جميع الجهات. اشتريت كفاً من الصّدَف ووضعتها بجوار سريري. ازدادت حساسيتي هنا أكثر من هناك، واستغربت من هذا الأمر فذهبت إلى الدكتور سلومي، طبيب العرب والمهاجرين. آه، ما ألطفه وهو يشرح لي أصول الحساسية ودوافعها:

«إنه المرض الوحيد الذي لا يميت، لكنه مرض حقود».

عندما كشف على ظهري، بربر ودمدم:

«أيعقل امرأة في سنك تحمل في جسمها خريطة دامية كهذه؟ هل كنت تشعرين بلذة وأنت تقومين بهذا العمل»؟

بدأ يتحسس ظهري، نفرت وقمت حالاً. قالت سارة حين أرشدتني إليه:

«لا بأس به. سيعطيك عدة أنواع من الأدوية، ستة على الأقل، واحد منهم هو الصحيح. لن تتعافى في البداية لكنك تواظبين عليه في ما بعد بالخداع أو اللطف لا فرق. لا تجفلي من مزاحه السمج فهو رجل طيب».

«لكنه يتحرش بي بصورة مزعجة».

أجابت: «وماذا بعد؟ سأحدثك يوماً عن دكتوري العربي الآخر، استقتل كي ينام معي وأنا في غيبوبة جراء تسمم. رائحتي مقرفة لكنه

حاول. الجميع يحاول، كلنا مشاريع بعضنا للبعض الآخر، لكن الرجال مستعجلون دائماً، ربما أكثر منّا. لماذا تتوقعين العكس يا سهيلة؟ في ما بعد يقولون لنا أو عنا الكثير، أحصلوا علينا أم لم يحصلوا. لا عليك، أنت التي تختار وترفض. سلومي ليس الأسوأ. ألا ترين نفسك، أنت تشبهين الحطب اليابس. نشفتِ، كل شيء فيك ناشف، يابس. صرت مجرّد أنقاض، ألا تثقين بكلامي؟ ماذا فعلت بنفسك هناك يا عزيزتي وماذا ستفعلين هنا؟ هيا، هؤلاء مثلنا، فراريج متوفة الريش، يمكن أقل منّا وحشة لأنهم أوضح، لماذا لا تفهمين؟

سارة لا تجيد المواساة. الدكتور سلومي أعطاني يومها حبة مستطيلة بيضاء، كسرها إلى نصفين وقال: خذي هذا النصف الآن، والنصف الثاني قبل النوم. ستُشعرك بالنعاس، لكن لا بأس. هل لديك سيارة؟ لا تقودي وأنت على هذه الحال. اذهبي حالاً إلى البيت. الحبوب هذه غير ملائمة مع الخمرة، هل تشربين النبيذ؟

* * * *

الساعة الرابعة عصراً:

عليّ أن أقص شعري بعض الشيء، أن أدعه كما كان قبل ثلاثة شهور. أين البطاقة الزهرية اللون الذي سجلت عليها عدد المرات التي قصصت فيها شعري. يختم الحلاق على البطاقة ويقول بصوت أنثوي: حسناً المرة العاشرة ستكون مجانية. كل مرة أجلس أمامه مثل تلميذة خائبة، أفتح المجلات وأدل على واحدة حين أكون في أقصى درجةٍ من حالات الاكتئاب واليأس، فأنتهي بقصّة شعر تورثني النكد والعبط. أطلب من الحلاّق أن يجزّ ما شاء له من الشعر كي أبدو فظيعة. أختفي عن الجميع لمدة أسابيع، مرات لمدة شهور، من دون أن أتعذب من جراء ذلك. أسماء هي الوحيدة التي ألتقيها. عندما تشاهدني تبادرني راساً:

«شكد تبالغين سهيلة، أي مو حلو مثل الأول، لكن هم زين، عادي، يعني، مو كلش فظيع».

أقلّب شعري إلى الأمام، أسرّحه بالفرشاة، أنظر إلى بعض الشعرات تتساقط في الحوض أمامي، أهز رأسي إلى اليمين والشمال، أعيد الخصل إلى الخلف. سرّحت شعري بأطراف أصابعي، في الفودين ظهرت منابت الشيب. ويبدو أن الأصباغ لا طائل منها كأنني أصبغ الفراغ. لماذا؟ سارة تؤكد:

«شعرك مثل الرمل حتى الصبغة تنزلق منه، دعك من هذه الخزعبلات واذهبي إلى سلالة سونيا، أليست زوجة ابنك نصفها فارسي. إذاً، ما عليك سوى بالحنّة الفارسية، آه ما أغناها».

لو كانت أم ضياء واقفة قبالتي لصفعتني بالقول المأثور: الصبغة لا ترحم عزيز قوم ذل.

قالت لي مديرة الرقص الإسبانية التي كانت في مثل سنّي تقريباً:

«أفضل ما فيك مدام، بُنيتك الصغيرة الطرية والقصيرة، وساقاك الرفيعتان. هذه الأنواع من الأجسام هي كنوز مطمورة تحت الثياب وما علينا سوى تجريدها وإعادتها إلى الأرض، إلى الدنيا هنا».

كنت أتصور أن مستقبلي المهني سوف يتحسن وأنا أسمع هذا الكلام، لكنني بعد أيام أستفزّ وأتعثّر بخطواتي، وأهتزّ من رأسي إلى أخمص قدمي ولا أعرف الخطوة القادمة. هراء كل ذاك المديح والإطراء، فأغيب عن الدروس وتمارين السيدة الحنونة، صديقة تيسا، التي عرّفتني إليها وجعلَتها تأخذ نصف الأجور من أجلها، ثم اكتفت في ما بعد بعد أن تصادقنا، بربع الأجر من أجلي. لكن جسمي على مر الشهور والسنين كان يتناقص، يقلّ ويضمر عن العام الفائت. الوقائع ملموسة أمامي ولا تحتاج إلى براهين كثيرة. قلت لنرجس أمام

حاتم يوماً وأنا عائدة من تلك الدروس المسائية في مدرسة الرقص الإسباني، وقفت وأنا أغلي:

«ابن الكلب لا يخجل ولا يستحي».

دهشت نرجس يا عيني من طريقة شتمي. تصورت أن أحداً كان يعاكسني، فقالت بين الضحك والجد:

«شو، خير إن شاء الله».

وقبل أن أجيب بادر حاتم بطريقته الماكرة وصوته الساخر وهو يلتفت إلى نرجس:

«هو، ومن غيره الذي تتحدث عنه، العمر، عمرها أليس كذلك»؟

ضحكنا بصوت مسموع وأنا أكمل:

«ابن الكلب يمشي على هواه، يتحرك بعناد ولا صرخة ولا أنين يصدران عنه. وليس بمقدوري اتهامه بالشطط حتى».

أضغط على الفودين وأكاد أصرخ، لكنني لا أفعل، ما نفع كل هذا؟ كنت غبية ودمي نشّفته سياط الجمهورية الفتية، والزوج يهوي بعصا الطاعة على جسدي وأنا لا أصرخ. أنظر إلى جسمي من سقف فمي، من أحمر الشفاه الفاقع الذي يبدد خوفي، من أظافر قدميّ المصبوغة بالأصفر الميت، بالسم المغشوش الذي كنت على استعداد لبلعه كي أنام وحدي، من جسمي الصغير الموجود في أي ساعة من ساعات الليل والنهار وهو يكدح حالاً ودائماً بين يديه. تبلل أمي الشراشف ليلاً، وأنت يا سهيلة في كل وقت، بالدموع، يا للحظ العاثر. لم أبال بما بقي من الوقت، من السنين، من الرجال والشبان، من المخلوقات. وجدت للجميع عذراً فبدأت أحضر الحفلات الموسيقية مع كارولين التي كانت تشتري بطاقتين دائماً. كان الاحتشام السخيف ذنبي، وبدأت تنقلات قدميّ تتحسن يوماً بعد يوم، وشعري

يضرب جبيني وينزل إلى الخدين. نبّهتني تلك المدرّسة بطريقة جد حنونة على العكس من سارة، بأن أدع الشعيرات البيضاء على سجيّتها:

«ها، مثلي ما الضير في ذلك».

قالت ذلك بصوت ودود، وبقيت تردد على مسامعي:

«هذا رائج في هذه الأيام، إنه موضة».

تقول هذا وهي تجهّز لنا الموسيقى، والأضواء، وفيلم الفيديو. هيا يا سهيلة، آخر حركة على وجهي، بودرة خفيفة على الأنف الذي تحرك قليلاً من مكانه، خط خفيف واحد من الكحل الهندي المائل للرمادي فوق الجفن الثقيل النازل. هذا الكحل أهدته لي كارولين من دون مناسبة. لم أضع الماسكارا على أهدابي. وضعت الشال الأفغاني السميك باللونين القهوائي والبنفسجي على كتفي ولففتُ به رقبتي. النظرة الأخيرة إلى المرآة، تحت العينين، الأسود الشنيع، مكان الكفر الأول والأخير يبتسم بتشفٍّ في وجهي ويثبط عزيمتي. لم تعد البودرة تُسرُّ لا الصديق ولا العدو. كانت سارة تجيبني كعادتها بصوت لا يُسمع في بادئ الأمر ونحن في معهد الرقص، ثم يتعالى أكثر وأكثر ونحن في الشارع العام:

«عليك باحترام مواضع التجاعيد والندوب، حتى النمش الخفيف دعيه، إنه لطيف، لماذا لا تصدقين؟ تهدل الأجفان، اعوجاج الأسنان، قصر العظام، يباس الأوعية، جفاف البشرة، إذا شئت لَعدّدت لك أكثر من هذا، فأنا أخصائية في هذه الشؤون. كل شيء يحضر من دون عائق كما لو أنه يتزحلق على جليد. اسمعي يا سهيلة، سنمكث في هذه السن طويلاً جداً، أطول مما هيّأنا أنفسنا له في سابق الأعوام. تتجدّد السنين على الدوام وهي تناسبنا. لا تحدقي فيّ هكذا. هيا اخرجي من ذلك الوهم، فكري في أن تكوني خادمة نفسك بدلاً من أن يكون الخادم لك. نسفتِ تلك الحصون فلا تمشي في نوم أشباحك

وأطيافك. لا ترفعي هامتك على رؤوس الأشهاد كالطاووس اليتيم وتنفخي صدرك الكبير، فأنت لم تعودي جذابة. أي، كنت جميلة، كنتِ! لكنك لم تعودي الآن، لن يعود الماضي أبداً».

كنت أبقي على بشاشتي ولامبالاتي وأنا أسمع سارة، فلا أهتم كثيراً بكل ما تقول. أبتسم لنفسي في المرآة، أحشر نفسي بالبالطو السميك الأسود العتيق، وأدفع بكل شعري داخل القبعة الصوفية وأنا أُنزلها كثيراً حتى تغطي الغودين. أضع قدمي بالجزمة الواطئة، أغلق الباب خلفي. يا عيني يا سهيلة، سارة فظيعة لا تواسي أحداً، لا تواسي نفسها أصلاً، إنها أسوأ مني.

* * * *

خطر ببالي، وأنا أقرأ، أن أمي تريد أن تخفي النقص والفشل، تريد أن تقول النجدة أمام نفسها. هذه القصاصات والكراسات التي فرشتها بحثاً عما طلبته مني نرجس. من الصعب أن أميز بين الزائف والحقيقي في كل هذا. كأن سهيلة أمامي مجدداً. لست أنا الوحيد الذي لا يعرفها، لكنها هي بالدرجة الأولى لا تعرف نفسها. لعلها كانت تفضل هذه السيدة وهي تتحدث وتحادثها، تهذي وتسخر وتُخرج من رأسها هذه التزهات. سهيلة تكذب، تريد أن تضلّلني كي لا أشك فيها. هي هكذا كي لا أعثر عليها، لا في الدنيا ولا في الأوراق ولا حتى في الآخرة. هل هي قصص، مجرد قصص ترويها ولن تعرف تبعات ذلك عليّ إذا ما طالعتها في أحد الأيام؟ كم من الأكاذيب ستلفّق وكم من الزلات ستنطق بها؟

كان حذري وأنا أمس الدفاتر شديداً. أخاف أن أعثر على رجل. رجال سوف يكسرون رقبتي وأنا أصطدم بهم بين الورق. يمشون سريعاً ويحاولون الانصراف قبل أن ألحق بهم لأعرف هويتهم. كل ورقة هنا دليل. كل دليل نداء لا يضيع ولا يتلاشى والسيدة تيسا هايدن

ما عساها تقول فيما لو التقيت بها بعد أيام وأنا أنظر في الدفتر الذي سجلت فيه اسمها وحده من دون باقي الدفاتر؟ كان مختلفاً وهذا ما زاد من قلقي. شعرت بالخطر وأنا أمسكه، ثم أنزلت باقي الكرّاسات وفرشتها بجواره لكي يتبدّد خوفي. إذا ضيّقت تيسا الخناق عليّ فسوف أذهب إلى غيره وأدعه جانباً، أحرقه وأرميه بعيداً ولا أعود اليه. لكني بدأت أسمع أصداء ضحكات تنبعث منه، تعلو وتنخفض كأن سهيلة وتيسا تخرجان منه وتقفان أمامي وسط الحجرة، وتقولان معاً، إنه يوم مختلف عن سواه، ذلك اليوم نفسه الذي انقضى ولم... حين فتحت الغلاف، قرأت على الغلاف الداخلي: إلى تيسا هايدن بدون مقاطعة: كانت الجملة الأولى:

«هيا بنا.

كل شيء يختلس النظر إليك، اعتدت على ذلك وأنت في الصفوف والطلبة من حولك. يمكنك في النهاية أن ترسلي ما تشائين إلى من تشائين. اليوم وقع اختيارك عليّ، في ذلك المساء الشتائي الشديد البرودة. لم أكن وحدي. كارولين، ونور وأحمد حضروا أيضاً. اتصلت بهم ليال ودعتهم إلى حضور المناقشة. أزعم أنها قالت لهم خلاف ما قالته لي، فأدرك في قرارة نفسي، أنهم حضروا من أجلك. أنا باللطمة فوق شفتي، بوجهي القاتم، بتحفظي وخوفي، ببلدي الذي سيُضرب اليوم أو بعد ثوان، حضرت كي أجعلك تسمعين ذبذبة ذلك الزلزال، بالموتى المثقلة صدورهم بالغبار والذل والمرض، بأعلام الإمبراطورية التي ترفرف وصوت الطائرات التي تنذر بالأسوأ وهي تنفث دخاناً أبيض. نحن واقفون ننتظر مرورك. أي الكلمات ستأتفوه بها أمامك وأنا أتعثر وأكبو، أحشر من بقي من الأحياء كي لا يفلتوا من على ملامحي وقسمات وجهي.

لا بد من أنك ستلاحظين ذلك على محياي، لا بد من أنك

ستصدقين الدموع التي سالت. دموعنا كانت أحوالنا الجوية التي لا تتغير. لا بد من أن تأخذي الأمر على محمل الجد وأنا أنظر إليك. قالت كارولين بصوت خفيض حين لكزتني بشيء من الخشونة من ذراعي:

«ها هي، إنها قادمة، تلك التي تسير كأنها تمشي على شعاع من الضوء. لا تنظري إليها مباشرةً بعينيك الكبيرتين، أخفضيهما حتى تمرّ».

«كيف تريدينني أن أنظر؟ أحب طريقة نظراتي هذه. أحب من يراني أن يعرف أنني أخطو إليه بنظراتي، فأستطيع أن أخبره قبل أن تمضي الكلمات عن لساني. اصمتي، لا أحب نصائحك».

«اصمتي أنت، إنها تقترب منا، انظري، كم هي أنيقة وجميلة».

شعرت بآثار الحمى في عيني وليس في شفتي. لا زلنا واقفات في الممر الطويل من Université Saint-Denis. وصَلَتْ إلى حيث نقف، تجاوزتنا، في جزء من الثانية التقت نظراتنا، هي وأنا إلى الأقصى وجهاراً. أظن أنها تعرفني. لم أكن أعرفها في تلك الساعة، ثم اكتشفت وأنا في حالة مرضي، أنني أعرفها أيضاً. عرفت أنني أعرفها حين شاهدتها أمامي. كدت أطلق ضحكة بصوت مرتفع: من يحسب عدد المرات، من يحصي عدد الشهور والسنين؟ كانت غريبة، لا عمر لها. منحوتة من الشرق، كلا، فوشرقية شديدة النقاوة. طويلة جداً، نحيلة جداً وأنيقة جداً. أرخت على كتفيها شالاً أفريقياً كان مطوياً على رقبة طويلة ومنحدراً فوق ظهر أطول وكتفين مشدودتين، وقد تدلّى الباقي من الشال أمامنا. بدت سعيدة ونحن نحملق في الشال خلفها. ألوانه بلون الكبريت والبراكين واليود، وعلى رأسها، للتو انتبهت، قبعة غريبة، مربعة من الأعلى ودائرية على الحواف، عليها بعض النقوش، أحجار ومرايا صغيرة جداً، أينما تلفّتت، أتصور، أنها تشتعل وتنطفئ

كي نعرف حركة سيرها. أتبعها بنظراتي. وصلت قبل التلميذة ليال وطاقم الأساتذة، وصلت من أجلي. لم لا؟ هله الأستاذة في مشيتها البطيئة وحركاتها الرزينة تنتظر فتح الباب الرئيسي لغرفة المناقشة. لديها سحر، وسلطة وأمانة الحكيم. تعرف بالضبط عدم التساهل في الوقت ودقة المواعيد. شعرت بأنني أمام جندي يعيش أزهى أيامه وهو يتمثل ما تعلمه من تدريبات على كافة أنواع الأسلحة، والقفز فوق سعير جهنم لكي يدافع عن خط النار: بجدية صارمة. بلعت ريقي وأنا أكفر بالتساهل لدينا في الجامعات، ولدى الأساتذة وطلبة الدكتوراه في معمعة التخريب التربوي عندنا.

سألتني نور بصوت ملؤه الإعجاب:

«ها، ما رأيك»؟

«لا أدري... أقسم إني لا أعرف».

تدخلت كارولين:

«ما معنى لا أدري، كيف»؟

«لم أرها بعد».

قال أحمد وهو يتضاحك:

«أنت هكذا دائماً، لا تردّين اللهفة».

«وجهها، إنه...»

سألت كارولين بإلحاح:

«ما به»؟

«عبالك طالع من لوحة لم تنجز بعد، لا، طالع من كتاب، من كتب، من الشرق البعيد، وفي أفضل الأحوال من عندنا نحن. إنها من هناك، من بابل».

علّقت نور وهي تغمز أحمد بعينيها.

«كل شيء تأخذينه إليك حتى تيسا».

«كل شيء أقدر على أخذه معي، إليّ، كل شيء ملكي، من ممتلكاتي. لماذا لا تصدقون ذلك؟ نحن الآن حضرنا كلنا من أجل ليال، لكننا حضرنا من أجلها هي بالدرجة الأولى. أجناس مختلفة، أنت من سوريا، وأحمد من السودان، وكارولين من السويد، وأنا من العراق وليال من لبنان. كل واحد منا يريد حصة وهي تتلألأ أمامنا، لكن هي، هل تدري أنها...»

سكتنا بانتظار فتح الباب ولا زالت نظراتي شاردة وتتردّد أصداء كتابات، ونصوص وأفكار قرأتها لها وعنها، ضدها ومعها، حين أطلقت مقولتها الذائعة الصيت، I am not a feminist. كان ذلك منذ سنين، أما الآن فقد أطلقت نظريتها الجديدة في الكتابة المؤنثة. تأنّثت الكتابة، فهي تطرح «المؤنث بالمعنيين الفكري والفلسفي في مواجهة المذكر المسيطر في بنية التفكير الأبوي وتراكيبها اللغوية والفلسفية معاً. وهي كتابات لا تقتصر على كتابة المرأة وحدها، ولكنها تتجلى في كتابات عدد من كبار الكتاب الرجال كذلك، من شكسبير إلى جان جنينه وهانيريش فون كلايست. كنت أقرأ افكارها وأهتف في سري، أنها أستجابت لأسراري أنا، وهي تواصل كشف ذلك العالم وسبر غوره، في محاولةٍ منها لتفكيك البنية الأبوية المستقرة لدور حواء المتمرّد، مقابل دور آدم الإنصياعي لأمر التحريم غير المفهوم. فقد استجابت حواء لرغبتها ـ أو بالأحرى لإنسانيتها باعتبار أن الأنسان كائن يخطئ. وغامرت هي بالتمرد والأكل من الشجرة المحرّمة، بينما استجاب آدم للسلطة والقانون الوضعي وأعرافهما، بالرغم من أنهما وُضعا له، ولم يضعهما بنفسه. وفضّل ديمومة النظام على مخاطرة التمرد الذي سرعان ما جرفه معه عندما لم يستطع مقاومة سحره الأخاذ. ولذلك، تُطرح مواضيع الرغبة في مواجهة القانون، والذات

في مواجهة النظام، والأنثى في مواجهة المذكر منذ البداية. وهي تجد أن هذه القصة البدئية في الميراث المعرفي للإنسان، هي التي تبلور الطريقين الأساسين المطروحين أمام الإنسانية منذ فجرها الأول. الانصياع للأمر المقرر وجني ثمار الطاعة العمياء التي أتاحت للرجل منذ فجر التاريخ أن يصبح أسير السلطة، وحكمت عليه بأن يكون عبداً لأعرافها ومواضعاتها، وضحية لصراعاتها في الوقت نفسه، بينما دفعت المرأة ثمن تمردها ولاحقتها اللعنات الدينية والأبوية لزمن طويل، وإن لم تستطع أن تأسر رغبتها أو تقيّد شغفها الدفين للتمرد. وأهم من هذا كله، على المستوى الفلسفي، علاقتها بالآخر، منذ أن أدى أكلها من شجرة المعرفة إلى اكتشاف آدم كآخرٍ مغاير من ناحية، وإلى اكتشاف مبدأ الرغبة/ اللذة معاً من ناحية أخرى».

ظلّت تتمشى بهدوء تام، وبقيت أتبعها حتى وصلت ليال وشلّتها من الأصدقاء والصديقات. نادر هو الغائب الوحيد. نادر الشقي التعس الذي كان بمقدوره الوقوف على أربع كي ترضى عنه ليال. لكن نادر لم يكن جباناً مثلي، إنه أشجع مني، إنني الأشد جبناً بينهما، هو ووالده. لا أعترف بذلك أمام أحد ولا حتى أمام نفسي. أقول ذلك وأخفي وجهي عن الجميع وأردّد أن جبني هو شجاعتي الوحيدة. من الجائز أنني كنت أحتمي به كي أبقى بمفردي فأختلط وأخالط الزميلات والزملاء مراراً وتكراراً في الجمعيات، وأخرج في التظاهرات، وأسجّل، وأندّد، وأدين، وأهتف وأصرخ، وألتصق بالآخرين في الشوارع العامة، وأمام سفارات الدول العظمى، أملأ حلقي بالسباب المختلط بجميع اللغات وأدري أن كل هذا لا جدوى منه ولا فائدة.

«هيا فتح الباب، إلى أين ذهبت يا سهيلة»؟

عانقتني ليال وهي تقف كالحورية أمامي:

سألت ليال:

«هل شاهدتها»؟

«أجل، أجل. هيا ندخل، في ما بعد. إنني أصلي من أجلك».

أفسحت الطريق لهما وهما تدخلان معاً، تيسا وليال. تصافحتا وتعانقتا ومن ثم افترقتا. كارولين بجواري لم تفارقني، قالت من دون أن أسألها، ونحن نمشي ونأخذ أماكننا:

«ها، كما وصفتها لك»؟

«كلا، أنت رسامة غير ماهرة».

أخذت مكاني قربها، نور وأحمد بجواري. امتلأت القاعة. جلس المشرفون في المقدمة. في وسط القاعة كان ثمة مقعد وطاولة. هناك جلست ليال وظهرها لنا. على اليمين واليسار صفان من المقاعد الخشبية الطويلة جلس عليها الأصحاب. تيسا، عضوة الشرف، جلست على يساري بنصف متر. علّقت ليال:

«إنها وحدها لجنة، وبها سوف يُختم النقاش». كانت الطالبة في أوجّ توترها وبهائها. حضرت دفاعها مسبقاً. نادر من سيدافع عنه اليوم ويعترف بأن له قضية في الأساس. رأيت ليال مكبرة مئة مرة. أناقتها خفية جداً، ترتدي طقماً مؤلفاً من سروال وسترة نفطية اللون وتحتها بلوزة من الحرير الحليبي. شعرها الطويل مفرود ويتدلى حتى الرقبة. كان ينسلّ منها جمال لا أحسن وصفه. لم أرها يوماً جميلة كاليوم ولم أعهد نادر مغرماً بها إلى هذا الحد. يا إلهي، أين نادر، لماذا تأخر واحدهما عن الآخر، تأخر عشر سنوات، تأخرا في الذهاب والعودة. صار نادر حكيماً، ففي أحد الأيام تحدث بطريقة غاية في الهدوء:

«يا أمي، من الجائز أنني أحببتها لنفسي فقط لا لنفسها. أحببتها لجهلي بنفسي وأردتها أن تنتزعني من خوفي، لكنها كانت خائفة أكثر

مني. كانت مثلي هاربة من الحرب والرجال، من النساء والمدن والعائلة، من الجنون والموت، فذهب كلٌ في اتجاه. لا أطلب العذر لها ولا لي، لكنني ألعن جميع الحروب التي جعلتنا نتحول إلى أرانب».

وكانت ليال، كلما جاءت سيرة نادر، تلجأ إلى المراوغة في حديثها:

«لم يكن الحب على رأس القائمة يا سهيلة. كنت سأورّطه وأورّط نفسي».

«لكن، هل أحببته ولو ليوم واحد»؟

سألتها في أحد الأيام: كنا في الشقة إياها، شقتنا التي شهدت الخراب والغرام المكسور، غرامهما. نكست رأسها وانهمرت دموعها. للمرة الأولى أشاهد تلك الدموع. أجابت بصوت خفيض جداً كأنها لا تريد أن أسمعها بوضوح:

«من المحال أن أحب رجلاً كما أحببت نادر».

حاولتُ أن أمسك دموعي. كنت أرتعد وأنا أسمع صوت المارشات العسكرية وصواريخ أرض جو، وأشاهد ألوان الحرائق في سماوات بلدي وبلدها، ذلك الشرق المحاصر بين فلسطين وبغداد وبيروت. ها هما ليال ونادر، كل في قارة، بينهما الهزائم والجرائم التي ضربتهما كل في اتجاه، ولم ترد إليهما حبة رمل واحدة حتى.

* * * *

تكتب نور بسرعة مترجمة لي ملخصات عمّا يجري، كما اتفقنا. وأنا، ما إن أرفع رأسي إلى الطرف الأيسر، حتى أبصر نظرات تيسا في مواجهتي. يا إلهي، من تشبه؟ المشبّه أجمل من المشبّه به، فلماذا كنت أريدها أن تشبه شيئاً آخر غيرها كي لا أنوه؟ لو شاهدتها أمي

لبسملت، وقرأت عليها آية من القرآن الكريم، وأطلقت عليها التهاليل. ولكانت، قبل أن تكمل جملتها، تلتفت إليّ وتقول: «سيرسل إليها أبوك برقية تدوّخها حتى تحضر وتشاهد إحدى مسرحياته الحلوة. بنتي سهيلة، هذه المرأة تبدو كريمة ونظيفة. هكذا أشعر. إنها مسألة تتعلّق بالحدس والإيمان. مثلنا هي، أي والله، تعرف الأصول، ابنة أوادم».

أول مرة أقابل كاتبة نجمة، تكمن شهرتها في بسمتها، وابتسامتها غير محسومة، كأنها لا تبتسم، كأنها تتذكر الابتسامات، تتذكر المرة الأولى التي ابتسمت فيها بعد المحرقة والأهوال. لاحظت أنها عمّا قريب سوف تبتسم، فيما بعد. كانت واقفة أمامنا في الممرات وشكلها يعيد تشكيل نفسه، فألاحظ أنه لا يتكرر. عينان كبيرتان، موجودتان في كل صوب تتجه إليه نظراتي. لماذا أبالغ وأردد أننا كنا نتبادل النظرات بقوة الكلمات التي لم توجد بعد، أنظر وأتعجب كيف تنظر هي إليّ ونتعارف، نحن بنات ونساء تلك المجازر والويلات التي أدمتنا. كلما يسكت أحد الأساتذة ويبدأ الآخر، كانت نظراتنا تأخذ وقتها وتتراكم، من التاريخ المضرّج بالدم، من الطفولة كثيرة الصبر، من التصوّف الشرقي الذي أقدر على أن أضرب به المثل عليها وعليّ، من الأندلس إلى بغداد إلى القدس من دون أن أختنق بكلمة إضافية.

يتناوب المشرفون على النقاش كل بطريقته وأنا أقرأ بسرعة ما تترجمه نور. أقرأ وأتعوذ من الشيطان الرجيم مثل أمي. أكاد أطلق زغردة عالية من الكلام القوي الذي كان ينزل على ليال وأطروحتها لكنني لا أعرف، أخجل أصلاً. تكتب نور: إن اللجنة تسجل؛ الأطروحة ممتازة، قوية وعميقة. لم يجدوا ثغرات لكي تناقَش، أغلقت ليال الدائرة تماماً، أعتقد أنها ستأخذ الدرجة التامة. هنا وقفت تيسا بعد أن فرغ الجميع. بدأت الكلام عن ليال ومارغريت دوراس، ومادة الرسالة. رفعت كمّ كنزتها الصوفية وتركت الشال على صدرها وبدأت

تتحرك في الحيز الذي وقفت فيه. كانت تستعمل المكان على أكمل وجه. تمشي في خطوات ثابتة وتنظر إلى الجميع. لم أفوّت ولا ثانية من نبرة صوتها، وحتى الدقيقة الأخيرة وأنا أشعر بالخطر، كل الخطر الذي ينبغي عليّ أن أضعه في الحسبان وأنا أصغي إليها. تأكدت من أننا تحدثنا من قبل، لم أتخيل ذلك أبداً. هي تصغي وأنا أجري خلفها وخمار حريري يلفّ شعرها القصير. أرفع يدي لأول مرة تحيةً له، لا تقدر أي أصباغ أن تغوص فيه. ماذا لو أحب حبيبها أن يداعب شعرها، ماذا سيفعل وأين سيضع يده؟ شعرها هارب من أسرتها الأولى، الطبيعة، سأقول لها حين أقابلها بعد قليل، إنه مرحلة الطفولة من كتاباتها، بلغ حده في نقطة انسجام على رأسها، بلغها منذ كانت طفلة في الجزائر، فانتصرت على الصبغة خلافاً عني.

دوّى التصفيق في القاعة، حركت يدي غصباً عني، لا يكفي التصفيق لهما. شعرت بأنني سوف أبدأ بالهرش الهستيري لمرضي المزمن؛ الحساسية، إذا ما وقفت بعد قليل أمام تيسا.

نالت ليال الدرجة الصحيحة؛ مرتبة الشرف بامتياز. طفرت الدموع من دون أن أشعر، لم أُخفِ أي شيء منها ولم أجففها، كانت أكثر عناداً مني. لم تعلّق كارولين قط، لكن نور العربية، حاملة بعض أساي، قدّرت ذلك، فشاهدت من بين غمامة دموعي، دموعها، تنتظرها بعد شهور في حفلة مثل هذه. كنت آخر من خرج من القاعة. بدأنا نصعد الدرجات التي ستؤدي بنا إلى إحدى الصالات حيث حضّرنا لليال احتفالاً خاصاً. منضدة أنيقة توزعت فوقها الصحون اللبنانية إياها؛ أقراص الكبة، ومعجنات بالسبانخ، والجبن واللحمة، واللحم بعجين، وفلافل، ومكدوس، وزيتون، ومخلل، ونبيذ. شاهدت مروان، شقيق ليال ينتشي من الفخر. تيسا وباقي الأساتذة تحملقوا حول الطاولة. أينما التفت، أجدني وتيسا نقترب، لا على

اتفاق، بل بحذر. نحاول أن نخطو لكن نترقب وننتظر. ماذا؟ لا أدري. وقفت ليال لبضع ثوانٍ فقط، عانقتها وقبّلتها ثم فرّت من بين يدي. جلست مع قدحي وصحن عامر بالأطايب. تشرب تيسا بمزاج، تأكل بقدر، إنها تخدع الطعام لكي لا يدخل جوفها. قدّرت أن وزنها لا يتجاوز الخمسين كيلوغراماً وطولها يفوق المئة والسبعين سنتيمتراً. كيف، عليها أن تسمن قليلاً. إذا ما وقفت لأسلّم فسأبدو فائضة عن الحاجة. غريب، لا تأكل مثل كارولين، ولا مثلي، ولا حتى مثل بلانش أو نرجس. صارت بين المشرفين ومدّت يدها، نظرت إلى حيث أجلس. إلى أين ستذهبين؟ جاءك الموت يا تارك الصلاة. ماذا سأفعل؟ ها هي تسير بصمت إلى الزاوية الخلفية حيث تكوّمت المعاطف. ظهرها أمامي بالضبط. عرفت في تلك اللحظة أنها هدفي. قمت كالسهم ومشيت إليها. كانت ترفع الردن الأيمن من المعطف، مددت يدي الاثنتين كأنني أريد مساعدتها في ارتداء الردن الثاني لكني تراجعت، ستفكر في أن هذا التصرف هو بمثابة رفع للكلفة. قررت أن أعود أدراجي. فجأة، التفتت إلى حيث أقف وأنا أرفع يدي على حافة الجدار كأنني على وشك الطيران. حركتي تلك كانت أفضل ما أملك في تلك اللحظة. ارتدت المعطف وبدأت بإقفال الأزرار وصوتي يتقدمني. حاولت ألاّ يقع بصرها على ارتباكي وتشوشي وأنا أقول بصوت مرح وعصبي:

«ستوب».

أفضيت لها بما يدور في صدري من كلمات:

«أنا فلانة بنت فلان. ممثلة وراقصة مسرحية عراقية. والدي مخرج مسرحي. لا أملك كتاباً لكي أهديه إليك، ولا مسرحية لكي تقرئيها، ولا فيلم فيديو لكي تشاهدي بعض أفضل أدواري الأولى. لكني أحببت أن أبادر إلى التعرف إليك. لا أدري لماذا؟ ولكن، ظننتُ

أن هذه هي الطريقة المثلى التي ستحرضك على التوقف كي نتحدث معاً».

كان بيننا شيء من التواطؤ، كانت بانتظاري. بدأنا ننظر في عيون بعضنا البعض. مددت يدي، مدت يدها. أخذت يدي ومشت بي من دون أن تنبس بكلمة. في طرف القاعة بضعة كراسيّ، جلسنا متجاورتين، فتحت حقيبتها، أخرجت قلماً أحمر ودفتراً صغيراً وكتبت: الاسم، العنوان ورقم الهاتف. قطعت الورقة وسلمتها إليّ. ناولتني الدفتر والقلم بحركة لا تنسى وبدون أي كلمة، ففعلت ما فعلته هي بالضبط. استغرب كيف تكلمنا من دون أن نتفوّه بكلمة واحدة؟ اقتربت نور وأحمد وكارولين. رفعت رأسي إليها وبدأ صوتي يتلجلج وأنا أقدمهم إليها تباعاً. لم أسمع ما قيل، أرقبها بطريقة خفية وهي تحضّر ذخيرتها؛ قدرة وطاقة على الإصغاء لا تُتوقّع. تتجمع النظرات في عينيها فيبعث صوتها على الطمأنينة حتى لو كان الكلام مهلهلاً مثل كلامي، أم أصولياً كما قدمت نور نفسها وفكرة أطروحتها، أو رتيباً كصمت كارولين في حضرتها، بعدما اقتربت أكثر وتدخلت برقة وأخبرتها عن دوامها كل سبت في السوربون لحضور الندوة التي تعدّها وتديرها لطلبة الدراسات العليا. تدخّل أحمد أيضاً، علّق على أطروحة محبوبته الجميلة كأنه يريد الإعلان أنهما عاشقان فحسب. قالت أخيراً وهي تقف متأهّبة للذهاب:

«احضروا متى شئتم لتلك الدروس. هي أحاديث، مقدمات، خلاصات لأحداث، لكتب، لأفكار وأسماء من جميع العصور. هي بمعنى من المعاني خطوات للتواصل الإنساني والمعرفي».

لم أنطق بكلمة واحدة. اقتربت مني في حركة مباغتة وعانقتني، لقد أعانتني من إحراجي فتخلصت من لعثمتي وعانقتها. ولم أدرِ لِمَ فعلت ذلك معي وحدي.

* * * *

يلزمني زمن طويل كي أختلي بنفسي. لم أكن أريد أن أتقاسم ما أشعر به مع أحد. لم أودّع ليال حتى. لم أقل لكارولين ولا لنور ولا لأحمد، إنني أريد أن أغادر بمفردي. كنت بحاجة لا مثيل لها، إلى أن أكون بصحبة نفسي. شعرت بأنني بخيلة، وأنانية وسخية في الوقت نفسه. أريد الاتصال بنادر وحده. نعم، نادر هو العمر، عمري نفسه، ذاك الذي انقطع واستدار ثانية. نحن أبناء أولادنا، وكل هذا الحب الذي لا يطاق، يحرق رأس المال وينهش اللحم الحي بلا شفقة. ما كنت أدري أنني أحب ليال الآن أكثر مما أحببتها يوماً، ففي نهاية المطاف، ها أنا أكون بديلاً عن نادر وأم ليال، شاهدة على نصر صغير، حاسم، فضلة من انتصارات آيلة إلى السقوط، سقطت أول ما حصلت. للمرة الأولى، أشهد نصراً عربياً في مكان أجنبي وفي اتجاه خارج المدفعية والدبابة، في مناقشة ساحرة لثورة الأبناء على الأمهات والآباء، لعصيان المحبوبين والمحبوبات الغيورات والمحتارات. كان منطق ليال وذكاؤها لا يقاومان، صوتها هو لكنه ـ غير شكل ـ، صوتها نصف نبراته نادر والنصف هي. صوت لا يشوّش على الحاضر باسم الماضي. لو سألتني تيسا ونحن نتصافح، لكنها لم تسأل أي شيء، لو قالت لي:

«من أنت أيتها السيدة المحمومة»؟

لقلت حالاً:

«ليال، أنا الليالي، كل الليالي».

* * * *

في أحد الأيام، كنا وراء الكواليس، هو وأنا في مسرح الشمس. لا تقرأ المخرجة ما دوّنت من ملاحظات. تشبه أحد الرعاة من زمن الإغريق. بدنها ضخم، وجهها يحمل طاقة على السخرية. تصورتها مخلوقاً بلا جنس، تنجز إخراج أعظم المسرحيات وهي تتجول ليلاً.

يدها كبيرة جداً تشير بها لكي أتقدم صوبها، لكن عينيها كعيني الصقر. ذكاؤها غير طبيعي وغير مكشوف. ذكية كأنها تجامعه أمامنا، فتدعنا نتخيل الخيال. أوامرها حركات تصدر بواسطة لكنة لغتها الإنكليزية السليمة. صرت قبالتها، بدت أنها أكلت جيداً اليوم، طعامها ليس خفيفاً مثل طعام تيسا التي جلست بعيداً عنا، مهذبة ومهندمة ومعطرة، وآثار النعاس لمّا تزل على محياها. لم تتدخل في البداية، تركتني بين يدي المعلمة، عرّفتني إليها قبل ساعتين حين وصلت من الباب الخلفي إلى المسرح الذي يقع على حدود باريس. أخذت المترو، وبعده الباص، ثم قفزت كالقردة مشياً كي لا أتأخر في أول لقاء مع الكاتبة والمخرجة:

«اسمي ماريا، وهذا فاو رفيقك في الرقص».

لم تنظر إليّ طويلاً، لا إلى شكلي، ولا إلى بنيتي ولا حتى إلى عينيّ. تحركت على خشبة المسرح أمامنا. فجأة، كأنها دخلت في نوبة صحو على نحو طقسي، تحولت طاقتها اللفظية في ثوان إلى قتال، كبسولة على وشك الانطلاق. انتابني الهلع إلى أبعد الحدود. فاو، شاهدته خطفاً، منحته ماريا نوعاً من السعادة لم أرَها لدى أحدهم من قبل. أعادت علينا الإشارات والحركات مرات عدة. تُفرّغ الذي أمامها، فلا يعود يعرف من هو على الإطلاق. تريد أن تمسك بنا والحلم يهزّنا، نهتز، نرتعش قبل أن يترسب أي شيء في قعرنا من ذاتنا الأولى. لا تكتفي ماريا، لا تقتنع، تريد الممثل كافراً بمقدوره القبض على النار فلا يُسمع له أنّة. تقول الكلمات رقصاً فيبدو جسمها شديد الرقة والشفافية. لم تدعني تيسا وماريا أتعرّف إلى فاو إلا على الخشبة. يفضلان هذا النوع من التعارف الفوري والصاعق. نسيت، تناسيت جميع ما قالته ماريا، تأبطت ذراعه وبدأت أصعد وأطير وأنزل. هو عاري الصدر. أشاهد عروق دمه تحت مساحات جسده بين يدي.

أنوّمه، أضع لفافات حشيشة في فمه، أفرط في الجرعات، أمزجها بأنفاسي وأنظر في عينيه، تنغرس ملامحه فيّ، وجسدانا يمسك أحدهما بالآخر. لا مكان شاغراً بين أعضائنا. اليدان ممدودتان مفتوحتان. يجمع فاو نفسه كالزهور، ينظّمها في باقة. الأصابع تتحدث، الأطراف تهتز. خصل الشعر تتطاير، الرقبة تدور، الأكتاف تتمايل والنار في الوركين. فاو أصغر مني بسنوات لم أحسبها، مجرىً عميق وما عليّ سوى جرفه. موسيقى من الخلف والأمام، موسيقى قديمة تؤلمني وتُفرح قلبي المهموم في آن. في طباع جسمه فجاجة أنكيدو وألوهية جلجامش:

«كأنك تريدين التوبة من شيء ما. أنا لا أحب التائبات».

قال ذلك وهو يعضّ أرنبة أنفي برقة. هاجمني منذ اللحظة الأولى. أخذ يدي إلى فمه، ارتدّ قليلاً وماريا بيننا:

«اسحبيه إلى صدرك بأعنف ما تقدرين، أعنف من هذا، أشد عنفاً».

أسمع صوت تيسا للمرة الأولى:

«my dear، لا تخلطي الأوراق أرجوك. خلّفي جميع ما تعلمتيه وراء ظهرك. اذهبي بعيداً إلى حيث لا أراك ولا أتعرف إليك. تجسّسي على جسمك، انزفيه قطرة قطرة، أحرقيه مليمتراً بعد ملميتر. انسي الخرافة، والتراجيديا. لا تبحثي عن أي حلول، لا تخافي النبذ والدّنَس. خرّبي واهزئي من الموت، ليس موتك أو موتي أو موت رجلك. عليك أن تعرفي أن لا نصير لك إلاّك وحدك وفنّك. لن يحصل فاو سوى على ما تبعثينه فيه».

اختفت تيسا ووقفت بعيداً. من هو فاو؟ من أنت؟ أغواني لكنه كذوب. كيف وجدته في دربي؟ فكرت فيه، استجمعته قبل أن أراه. قلت: يوماً ما سأراه ولا أستنفده. لم أجرّب خيالي إلا معه. كانت

حياتي واقعية وأنا أشقّ طريقي وأقوده إلى الواقع، فأخذني بين يديه وأخذته كالمخدر ووضعته تحت لساني، فتسلّل إلى جميع أجزاء جسمي الذي بدأ يمرض. هذا هو الواقع، رقّصني على هواه، صرخ في وجهي، قرض عمري، رفس جسدي، ضرب حماستي وضبط غدد مواهبي، انتقم مني الواقع بالقانون، بالمبادئ، بالحكومة، بالضباط، بالمدنيين، بصفوف الميداليات والجنرالات فصرت موضع ثقته. لم أذهب وأختلق أطياقاً وخيالات كما فعل بعض زملائي من الفنانين وهم يدلون بتصاريح طنانة ضده، يطلقون النار عليه ككلب أجرب ويركبون الكراسي الكهربائية لتوصلهم إلى الحلم. لم يحوّلني الواقع إلى شُجاعة مثلهم، حتى بعد أن باغتني الزوج وهو يسحبني من ثياب آخر دور قدمته على المسرح أمام جميع أولئك الزملاء. لم ينطق أحد بحرف واحد. وضع رأسي تحت قدميه وضربه بيد خبيرة، فلم أحتجّ مثلهم بالويل والثبور. قلت، ربما هو تجاهل الواقع وأنا أجهر به وهذا ممنوع. لم يفهم نادر سبب انفصالنا كل في غرفة، أنا ووالده. لم يفهم كيف مدّد فترة نقاهتي وأعلن أمام الجميع أنني مريضة جداً، «كلما تصعد الخشبة يزداد مرضها فلم تعد تصلح لشيء». طال مرضي ولم أعد أصلح لشيء، أي شيء. بدأت أبغض جمالي وجاذبيتي، صرت أتلافى شبابي وأشواقي بعدما كدّستها له. هزأ منها، ضربها كأفضل الرماة. فاشلة، فشلت، نقصت وتناقصت، لم أقوَ على البكاء حتى. كل شيء كان ينفصل ويتفكك وأنا أمد يدي وأتناول الفشل وغلاظات ذلك السيد. فاو، بقصد أو بدونه، يقبّلني بلا حيطة أو حذر. لم يضع خطة ويجرّب، ولا كانت أرضية المسرح هي الاسم الآخر للبلد. لم يتراجع أو يرفّ له جفن، كان فاو ينتظرني منذ عشر سنوات. تحضّر تيسا بيدها أشياء لم أفطن إليها: عطوراً، ودهوناً، وبخوراً، ومعادن، وأبخرة ترشّها ويشق رذاذها فضاء الخشبة وجسمينا. لا أنظر إليها، نتعرّق، نتعطّر والأملاح ترشد أحدنا إلى الآخر. تدلّنا تيسا، فيزداد

ندى البشرة وشفاهنا ترتوي من جلودنا اللامعة. ألهث وأريد الصراخ بأعلى صوتي، بلغتي: كفى، كفى أرجوك فاو، لا تبالغ في تهذيبك كثيراً من أجلي. قلت له ذلك بصوت مسموع. لم يستغرب أحد، لم أتعب ولم تتحسر أعوامي عليّ. سهيلة تلك أستعيدها معافاة من الواقع، ومن الولد والوالد. ظهرت في تلك الليلة بجسمي الذي كرهته، بالقش الشائك الذي كان. كنت أفرّغه وأنا أقعي على ركبتيّ خلف فاو، أشم أبخرة جسمه، عرقه ينبعث من تحت إبطيه المشعرين، ومن أسفل ساقيه. اقتربت وأنا أنتظر مرورنا بين النهرين. لم أهتم بالتعليمات، فلتذهب ماريا وتيسا إلى الجحيم، ليفشل التمرين الأخير، لا يهمّ. في تلك اللحظة، التقتنا معاً إلى بعضنا البعض، مررّت إصبعي على جبينه الشاهق، نزلت إلى الأنف، الرقبة، كي لا أخجل، ولا أقاوم. ركّزي يا سهيلة، ضميه الآن بين ذراعيك ولا تفارقيه. لكن صوت تيسا ثانية:

«لا تترجمي رقصك، ارقصي فقط. استسلمي لكل ما يزدحم فيك، هيا غادري نفسك».

كيف، وذاك السيد بانتظاري، يأخذني كحفّار القبور، فأنقاد إليه كجثة قديمة. يتحكّم بظلام الغرفة ويركّز قوة الضوء على حوضي. على عجل، بسرعة، بثيابه، وسرواله الكاكي والقبعة فوق رأسه، يفتح الإبزيم ولا ينبس بكلمة. لا ينظر في وجهي، يفرغني ولا يفرغ. أصير فراغاً رهيباً. يصير فوقي، فوق حياتي الماضية، من جهة ألمي. يدخل ويخرج عن ظهر قلب، فتنقلب أحشائي، يدفعني فأذهب إلى الحمام أتقيأ. كذبت على نادر وعلى روحي، كذبت على بلانش ونرجس وأسماء. كان ينتظرني على ذلك المنوال الرجل المريض، الموظف، البطل والقاهر. ألومه وألعنه في نومي وأتبعه في تجوالي، أستطيع أن أقول لتيسا من دون خجل، ولوجد من دون خوف. أقول لهما: فارغة

أنا، خاوية ومعطوبة. أحب أن أُحِب، أحب أن أُحَب وأكون محبوبة. أحب جميع الكلمات التي انتظرتني ولم أقلها لأحد. أحب الكلام المجهول الذي لم أتأكد من وجوده. أحب تلك اليد التي تمشي على جسمي بغير نظام ولا هدف، بالزائد الذي لم يَفِض، وبالناقص الذي فاض، وبالرجال الذين تركتهم على سجية نفسي، أنام معهم واحداً تلو الآخر ولا ألتقي بهم؛ بالمدنيين العراة الذين لا يملكون إلا سلطان ضعفهم المعتدل القامة؛ بالضعفاء خائري القوى، الذين يجيبون كلما أقول لهم: هاتوا؛ بالضعفاء أكثر مني، بالمخدوعين المعذَّبين الذين لا يميزون بيني وبينهم. كلهم ناموا معي ونحن نذرف الدموع، نتشابك بالذراعين ويغلب علينا الخوف. تصغي تيسا ودموعي تبلّل وجهي. قلت لها: أريد لحظة واحدة عابرة من أي مجرّة، ألتقي أحدهم ولا يحمل بيده أي آلة، ولا حتى زهرة. وحده نادر أبقى علي أنا ووالده يا تيسا. في إحدى الليالي وهو عائد ليلاً بعد أن رُقّي إلى مرتبة أعلى، شعرت بأنه لم يقدر. بدأ يموه، يقوم ويهبط لكنه لا يقدر، ينفخ صدره، يقوّم ظهره، يجهد ولا ينظر فيّ، أنا التي تعرّيت وأمسكته وهو يتبعني في كل زاوية. لم أحاول الاختفاء عن طريقه وهو يجري خلفي بكل الآلات، والمنافض، وأفلام الفيديو الخليعة، يزجرني بالعصا الغليظة، ويرميني بأنيات الزهور ويجلدني بحزامه الجلدي على ما يفضّله من بدني. أنا الطليقة وهو لم يعد يحتمل. تعب فارتخى وبدأ يعول بصوت وحشي. وذاك الشاب نادر في الطابق العلوي نزيل غرفته، لم يصدر عنه أي صوت. تشير تيسا بيدها إلى الفتاة التي وقفت بجوار صندوق الموسيقى: «أعلى، أعلى». الطبول، الدفوف، الغيتارات والكمنجات علقت بلساني، وشفتاي تلمسان خد فاو. رائحتي ومنزلي الأول، غبار الأرض التي خلّفتها وراثي تدخل أنفي. أسير إلى فاو، أزفر في وجهه بالطريقة نفسها التي لم أجرّبها من قبل. أمتص الماء والهيل كما من قبل، في فمي تلك الحبوب الصغيرة،

علمتني أمي على تلك العادة: «الهيل يعلق بين الأسنان ويجعل رجلك خليلك». أمضغ وفاو يعاود مصه على مهل. شيء لا يُحتمل، أنزل أكثر، أدفع بعيداً إلى داخل فمه، أنقضّ على شفتيه في أقصى سرعة. النايات تنفث ألحانها، طال انتظاري، وفاو يفيض عليّ. يبدأ من رأسي، يفك خمار الرأس المزركش بلونَي الشذر والزعفران، يسحب غلالة البطن الخمرية هابطاً إلى أسفل، ساحباً خيوط السيقان الزهرية فيتفتّح جسمي بين يديه. شعرت بأنه يقشرني. ذراعه على كتفي، تلقيت جواباً عن انتظاري، جوابي، وصدري الكبير النوّاح يصغي تحت رقة كفه. الحركات رطبة؛ حركة للفراق، للشتات، للنسيم الليلي، لولاء بغداد. حركة للغضب ويثور وجه البلد، حركة للضدّ واسعة العينيين كعيني ما قبل الزينة وما بعد الهرم. حركات الطريق على غير هدى، ونحن، نادر وأنا، نتحدث في غرف نومنا كل على انفراد، نرتّب هندامنا في الصباح ونتظاهر بأننا أسعد السخفاء. يعاود فاو صاعداً بدءاً من الأصابع: «تأخرت طويلاً، تعالي تعالي». سحبني مما بقي مني: «أريد أن يجيء عمرك إلى عمري، ومياهك إلى إبريقي، أسحب السنين من خلف ظهري وأمرّرها على صدرك. أتعلّمك، أتعلم تحية قومك وأشرب مرارة حلق بلدك. أرجوك يا سهيلة ألا تموّهي عليّ. تعالي أكثر وأكثر، فخلاياك لا تتكسّر، ولا تتجعّد بين يدي. ووجهك الشاحب يتّقد بين كفي وأعوامك كلها حظي. ذراعك النحيلة تطوّقني. طوقيني أكثر، وأشدّ، طوقيني سيدتي ودعي صدرك يضحك في وجهي. آه، من جسمك الصغير، محصولي. هيا، لا تلتفتي إلى ماريا وتيسا، اخرجي من نصوصهما، لا تسمعي وصاياهما، اقطعي الطريق عليهما. لا تنتهي إلى طريق ولا تضعي شارات لها. تعالي، امشي، لا تتأخري، التفتي إليّ لكي ننام معاً في جنس الدنيا وشباب العالم. ها أنا أستجمعك وأنشرك وأتمتم شكرك. أتهجاك كما أتهجّا أعضاء جسدك فأستحفك وأنا ألمّ شملي وإياك. نتلاشى. تلاشي ولا

تسمعي دوي التصفيق في الحفل الختامي. هيا، لا تلتفتي إلى الجمهور، فهو لا يعرف ماذا حصل. لا تهزّي رأسك امتناناً لماريا وتيسا ولا تسمعي عبارات الإعجاب اللطيفة. ستعيد تيسا وتكرّر كما قالت لي قبل سنين وأنا أضع قدمي الأولى على هذه الخشبة: حسناً يا فاو، هناك شيء ما لم يكتمل، شيء لم يسبق لكما قط أن توصلتما إليه. دائماً هناك خطأ ما في مكان ما، نقص يتكرر. نعم، نعم، فشل يتجدد في القلب، في خلوة الجسم العابر وهو يتكسّر، هنالك أبداً شيء لا نقدر على الإمساك به بكل بساطة، لن ينتهي، شيء لم يسبق لكما قط أن تعرضتما له. دائماً في كل وقت يقول لنا، هيا، ابدآ من جديد، عودا ثانية أيها الصديقان العزيزان».

* * * *

عزيزتي سهيلة،

قرأت أمس حول التفاصيل الصغيرة في حادثة طعن نجيب محفوظ استناداً إلى رأي الطبيب المعالج. إن ضعف بصر محفوظ وسمعه قد أنقذه من الموت، فلو رأى الجاني لأصيب بفزع واضطراب يضاعفان من أثر الإصابة. قلت لنفسي: «إن لضعف البصر والسمع فوائد إذاً». أقول هذا لك أيضاً وليس لنفسي وحدها، وأظن أننا قد أتينا خلال حياتنا على المؤونة التي تمنحها الطبيعة لكل ذي عينين، إذ إننا استهلكنا حصتنا البصرية في الكثير من الأمور والأعمال. أنا لم أعد قادرة على إمساك المكبّر إياه وقراءة أنسجة السجادات الكاشانية والعجمية والأفغانية، وتحليل الغرز، والمسافة في ما بينها، ونوع الخيوط، ورصد القدم، وقوام «هسهسة» الحرير بين ملمس يدي وأصابعي. أنفقت تقريباً رهافة عيني لتلك الصّنعة المحببة، ثم في ما بعد، أجلس وأنا أستعمل جميع حواسي لقراءة تلك الكتب والتقارير حول صناعات السجاد في جميع أنحاء العالم تقريباً.

دقيقة من فضلك يا سهيلة لكي أحضّر قدحاً من النبيذ الذي يحبه قلبك. لم أفعل ما فعلت لتزجية الوقت. كان شعوري بالفخر يتعاظم وأنا أقرأ، إن جُلّ صنّاع تلك الأنواع الرائعة والفاخرة من السجاد، هن من النساء. قلت لنفسي: آمين، كما لو كنت أنت أو أسماء أمامي. حاولت إثبات هذا الأمر حين زرت المغرب قبل أعوام لحضور مهرجان «الزرابي» في مدينتي مكناس وفاس. أينما أتحرك ينتشِ مزاجي وأنا أشاهد وجوههنّ أمامي مبتسمات وجميلات وبعيدات عن ألقاب البطلات. تصوري أنّ رد فعلهن الوحيد هو ضد سوء معاملتهن. يعرفن بلا تردد إلى أين يتوجّهن وماذا يفعلن حتى لو كانت حياتهن مدمّرة من الألم، لكن بين عشية وضحاها يكتشفن أنفسهن عن طريق ذلك الاختيار اللطيف. إنهن قادرات على العيش من إنتاجهن، قادرات على العمل مع أنفسهن حتى لو لم يدركن ذلك تمام الإدراك.

كنت أقابلهن في لقاءات جانبية، نأكل معاً لاستكمال الكتاب الذي لا زلت أتمنى كتابته حول صناعة السجاد. أفكر في جميع تبعات تلك اللقاءات المطولة إذا ما نُشر الكتاب. سيكون لضعف بصري نفع ما. تدرين؟ أعتقد أنني سألجأ أخيراً إلى الليزر لتصحيح الانحراف الذي أعاني منه (هل عانيت فعلاً؟) منذ الطفولة. أحياناً أسير في الشارع وأنا أتخيل أنني قد صححت بصري وأنني أرى أبعد، أبعد مما أستطيع، أبعد من خيال يتحرك في الشارع وأراه بكل تفاصيله، ثم أتراجع عن خيالاتي السارة وأردد قول الشاعر:

وإني لأفتح عيني حين أفتحها

على كثير ولكن لا أرى أحداً

هناك وهنا أمور يُعتبر التعامي عنها «الفعلي» لا المجازي، رحمةً من السماء. وثمة أناس ينطبق عليهم هذا أيضاً. لكن مشكلتي هي قراءة خيوط السجاد لكي أحكم على عمره التقريبي أو الفعلي. وقد

جعلتني تلك القراءة، كما قال الكاتب الفرنسي سيلين، «اجيد إصدار الأحكام على الناس بسرعة من أول نظرة، ولهذا السبب لم نكن نرى أحداً». لكنني أرى ذلك الأحد والاثنين والعشرة في حدود سلام المجاملات، في معارض السجاد والأنتيك، في بعض الحفلات الموسيقية والمسرحية لمسرح الشمس التي تديرها صديقتك المسرحية اللامعة تيسا هايدن. يبدو لي أنها تشحن نصوصها بمواد مشعّة. هذه الكتابة هي التي أحبّ، إنها الكتابة اليورانيوم. الحياة بعد سفرك إلى كندا. بالمناسبة، هل ستذهبين إلى نيويورك؟ يا ليتنا كنا معك لنفوز فوزاً عظيماً. الحياة لا زالت بالنسبة إليّ غاية لا وسيلة. أنت تقبضين مسبقاً أرباح سنوات عمرك بحيث لا تطلبين أكثر من هذا الكرم الحاتمي، في مدينة لم تمرّ بخاطر حاتم طي يوماً، وليس حاتم صديقنا الجميل العزيز، حاتمنا. تسألينني كعادتك في باريس عن مسودة الكتاب وإلى أين وصلت؟ هل بدأت؟ قلت لي: «إن الكتابة عن السجاد إبداع صاف أيضاً، لماذا لا تصدقين ذلك؟ عن لذة تلقّي ردود الفعل، عن وعن». كأنك لا تعلمين أنني أعلم كل هذا... اسمعيها مني إذاً يا صديقتي العزيزة مرة وإلى الأبد: أنا حالة خاصة، حياتي اليومية في تفاصيلها إبداع يتنفس ويضحك، يأسى، يأكل ويشرب، يحبّ ويسير على قدمين. كلما ألتفت في شقتي أشاهد أنواع السجاد، ولوحات السجاد، ونصوص السجاد الصغير، والأصغر، والكبير وهو يحيط بي على الجدار، وفوق الأريكة، وتحت زجاج الطاولة المستطيلة في الصالون. أشعر بشبكة من الأصابع والأكف والأذرع والسواعد تحيط بي. أشعر بأيدٍ حنونة، حرّة وحقيقية تعبّر عن عواطفها، عن ذاتها، وهي بذلت جميع ما بذلت لكي تصل إلى الكنز: الحرية. وها أنا ألبّي النداء، نداء أولئك اللاتي، اللواتي، هن، كلهن، فأرفع يدي أنا أيضاً لأشرب نخبهن؛ نخب الحرية. هؤلاء هن مادة روايتي وقصصي القصيرة، ليست على الجدران فحسب، بل في دمي، مع كل

خطوة، وكل رمشة عين وأنا هنا. فباريس هذه الجنية المتواطئة معي تشحنني كل يوم جديد آلاف الشحنات فأصير أم أربع وأربعين. أريد أن أنسلق وأصل إلى آخر بقعة في بطن المدينة. باريس تفتح عليّ لعابها وعرقها وخيوطها وأنا أعيش أيامي وسنواتي فيها بإحساس عذب، شهي، هيهات أن توفره الكتابة.

زين، أنت لست كاتبة ولو أنك تكتبين بجسمك وتعرضين بجسدك ما يكتبه الآخرون. نحن نتشابه في هذه الخصلة. الكتابة هي خبزهم، حاتم ونرجس وباقي الأصدقاء من الكتّاب والشعراء. أولئك سجناء الهيكل، هم الحزانى المحرومون من لذائذ تحسّس اللحظة وجسّ نبض الكون. أما أنا، فقد تحررت من جلّ قيودي. أدع خيوط السجاد تضطجع وحدها على الجدران وأستمتع بها إلى هذا الحد، حدّ أن أدعها تتجه إلى كل أنحاء العالم. إنني أكتب وجودي على هذه الأرض ببلاغة أعذب الروايات. لم تأخذ مني مشاغل البيت وأمور المعيشة سوى ساعات قلائل أؤديها بسرعة وإتقان بفضل الاعتياد، وأسرح بعدها في نزهاتي وصداقاتي وتسكّعي وغنائي الداخلي لأبوذيةٍ تاهت من مؤلفها. تحرسني خيوط الحرير من قطعان الغدارين. فيا سهيلة بنت أحمد، يا من اعترفتِ لي ببراءة عجيبة، بأن الدقائق السبع التي راقصت فيها السيد فاو من على مسرح الشمس تعادل سيرة حياتك، فصدّقتك ولم أخَفْ عليك، كما خفت أنت من ردود فعل نادر لو اكتشف الأمر. أي، نادر موجود، ابنك وهو في كندا، لكأنه يعيش في شقتك، في الغرفة الثانية. اذهبي يا سهيلة في إحساساتك إلى ما تقدرين عليه. لا تفعلي سوى ما ترضين عنه وعليه. إننا لا نُرضي من حولنا أبداً مهما حاولنا، أنا آخر من يعطي المواعظ. أنا لم أبدأ كتابة شيء بعد من ذلك الكتاب الذي قوّى إلحاحك عليه إيماني به. أعود إلى قدحي وأملاه ثانية وأشرب نخبك. في صحة أولئك النسوة، صانعات ضوء جميع ما يحيطني من سجاد. في صحة ضوئك يا

صديقتي وأنت بين نادر ابنك وليون حفيدك المولود حديثاً. «لا تطوّلي غيابك يا سهيلة رجاء». فأنت أيضاً مثل «الزولية» الكاشان، كلما تكبرين تزدادين شباباً وفتوة، وعيبك أنك لا تتقين بذلك.

راجعت ما كتبت لك. أول مرة أراجع، أول مرة أكاد أضنّ بالرسالة وأضعها في مغلف أكتب عليه عنواني. إنها نموذج عن الرسائل التي أحلم بأن أتلقّى مثلها، لكني سأكون كريمة كعادتي، حسب ما تقولين، وأضع عنوانك على الغلاف.

بلانش

* * * *

عزيزتي بلانش.

«جا وين أودي الحجي وتعاتب ويا من».

لو كان حاتم هنا لأنشد لنا هذه الأبيات بصوته الرخيم في هذه المناسبة الجليلة. صرت جدة قبل أيام. استغرق الأمر بضع ساعات من الطلق ووُلد طفلٌ واقعي جداً بين يديّ. للجدة حاسة جديدة لم يسبق أن امتلكتها الوالدة. لم أدرك ما بين يدي ونادر يسلّمني إياه بعد ساعات في المستشفى. لم يكن بالنسبة إليّ حفيداً. ما هذا الأمر الذي كان يتجاوز إدراكه عقلي؟ إنه ليس مجرد طفل، ولا هو طفل ابني ولا بوسعي إيراد افتراضات سبقني إليها غيري من الجدات والأجداد. لم أفهم يا بلانش ما يحدث لي، ليس بوسعي أن أختال فخراً وأنا أقرّبه من شفتي. لديه سلطان وهو بين ذراعي، يجعلني أغيّر جميع تصرفاتي وسلوكي. كنت أتحاشى عناقه، خفت على حالي وليس عليه. خفت وأنا أتأمله من أن أتلاشى بينما أشم رائحته، رائحة غير محددة تجري بيننا، تبعث في النفس نوعاً من الإيمان والورع لا علاقة له بالأديان جميعاً، وإنما بشيء لا أعرف كنهه بالضبط؛ رضى غير مكتمل، ثِغْر منهوك القوى وتصوّف يرتدي الحرير لا الصوف. آه، لو كنت شاعرة،

أو مغنّية. لتذكرت إديث بياف حين أنشدت لحبيبها تلك الأبيات: «لو سقطت السماء، لو انهارت الأرض، ما همني إذا كنت تحبني. اطلب مني ما شئت ولن أتردد. أنكر عائلتي، أنكر وطني، إن أردت ذلك».

بلانش، أيامي لا تمضي هنا، إنها تتبلور، من البلور، هذا ما لم يجعلني أدخل مع سونيا ونادر في لعبة اختيار اسم المولود الجديد. لم أتدخّل في هذا الموضوع، لم يكن بمستطاعي فعل ذلك. الاسم، الأسماء لا تثبت على أصحابها كما تعرفين، لكني وأنا أتصفح المنجد الذي أرسلته يوماً ما إلى نادر تسلطت عليّ فكرة: بما أنهما لم يسمحا لي بأي شيء يخصّ الحفيد، وقع اختياري على اسمك. كما يكتب في الصحافة: هل تعلم، دائماً، الذكر قبل الأنثى، أو لا ذكر للأنثى، لكني سأقلب الآية. هل تعلمين أن بلانش: اسم بحر يقع شمالي غرب روسيا. بلانش: اسم وادي في جبال مون بلان تتراكم عليه الثلوج، لكنك أنت كالسماور المملوء جمراً. بلانش «دوكاستيل» ملكة فرنسا في القرن الثالث عشر وزوجة الملك لويس الثامن وأم القديس لويس. حكمت بعد وفاة زوجها لمدة ثماني سنوات ثم عادت إلى الحكم لمدة أربع سنوات خلال الحملة الصليبية السابقة. وبلانش أخيراً، يا صديقتي، اسم نوع من البيره المائلة إلى البياض. هذا الاسم الأخير هو الذي بقي في بالي، إنه اللّب. أظن أنك لمّا وصلت باريس قبل عشرين عاماً وتذوقت تلك البيره، أعجبك مذاقها ولونها فغيرت اسمك من كاشانيه، رخامية اللون، إلى اسم بلانش، البيضاء الجميلة.

سهيلة

يوميات كندا

صارت سونيا امرأة حقيقية والطفل في حجرها. تقودني الأمومة إليها وليس تبادل الابتسامات. شعرت بأنها تعرف ماذا تقول، تلاحظ الهفوات في البيت ونظام الأشياء. بدأت أفهم عصبيتها القديمة. حضورها سخي، وتحفّظها كذلك، حتى لو لزداد من أجل الطفل، ففيه شيء من النبالة. شجّعتني هنديتها الحكيمة على الاقتراب منها أكثر، وجعلت فارسيتها الطروبة بدني يهتز سروراً. تألفنا، هذا ما تصوّرته، امرأة مقابل امرأة، أم لطيفة بصحبة الوالدة. كنت كأنني استرجع ابني منها بهذا المولود الهشّ واللذيذ. هو الطفل ذاته الذي أخذته بين ذراعي كأنه يتستر عليّ، وعلى أعوامي السجينة في جسمي فيزيدها جلالاً وفضيلة. كنت أرقبه وألاحظه. لا تنفع القبل ولا الدموع ولا جميع ما استحضرته من همهمات عراقية، وأنا أخاطبه بسماحة الجمال الذي يجعل الفرح علنياً وقوياً، ولا يقف في طريقه لا بكاؤه ولا غنائي ولا رقصي. إلا أنه موجود وأحبه، كائن ونحبه، لا نعرف التصرف إزاءه إلا بالنقص الذي يتبعنا، فنعرف أنه يمتلكنا لا العكس. كنت أرى كل أسرار عمري في وجهه، أشاهدها بأم عيني، وأدعه يكتشفها معي شيئاً فشيئاً. صار سنّي جميلاً في هذا العمر، صرت أنا تماماً، صرت نفسي أكثر. كلما أقرّب كفه الطرية ولحمه اللدن الناعم إلى شفتي، يسري الدفء من باطن يده، فتبدو روحي أبسط وأعمق. هذا الطفل

جزائي وأنا أتقدم منه، أعانقه وهو مسبل الجفنين. هذا الطفل من خيالي، لا يسكن في الأحلام ولا في اليقظة، إنه ينبّهني إلى هفواتي ويخلّصني من إفلاسي وخساراتي.

* * * *

سونيا نائمة والصغير بجوارها. نادر في الشغل وأنا في الطريق أتمشى. ارتعبت لأول مرة وأنا أشاهد الشوارع الفسيحة الشاسعة جداً خاوية تماماً. أرعبتني الحرية التي لا أعرف ماذا أفعل بها. شعرت كمن فُكّ أسره لكنه أضاع أهله. أنفي يشتمُّ كحيوان راتحة المكان الأول الذي فُقد إلى الأبد.

كآبتي لا حل لها حتى بوجود هذا المولود الجميل. أنغمس بها حتى أشعر بأن دمي سوف يتخثّر بين مساماتي. كآبتي في بعض الأحيان تحميني ولو بصوت غير مسموع، ولا تجعلني أشعر بالضجر. لا أعرف كيف أكون حرة. تلتهمني الحرية فأصاب بالرعب فعلاً. أخاف، هل كانت بانتظاري كل هذا الوقت وضمن هذه المسافات؟ كم تأخرت الحرية! صارت عصيّة ونحن نتفادى ركلاتها، كأنني أخشى أن تطيح بي كما أطاحت بغيري. ترى ماذا يفعل المسنّون بالحرية؟ شبكت يداً بيد كأنني أتلمّس حياتي لأول مرة وأذيع سراً أمام نفسي. فلنلعب معاً وليخسر من يخسر. للمرة الأولى أنتبه إلى تلك البقعة من الجسد ولا تدير آلام سونيا رأسي. أبتسم وأنا في الطريق أتمشى. أمشي دائماً، أمشي على الخصوص أثناء التحضير للرقص. عضلاتي تصلّبت وخطواتي تفيض على الإسفلت المسوّى بطريقة متقنة. أحوّل سيري إلى رقص. أبحث في جسمي عن أماكن جديدة وأشعر بأنني أتحول. أهدي الرقص قدمين وأتعرف إلى حالي ونداءات جسمي، كلما أنادي أجد شيئاً غريباً؛ روابط سلام، روابط أخوّة تلحق بي وأنا أجري إصلاحات ما بين المشي والرقص، فأشعر بأنني ولدت للتوّ كما ليون.

لكن هذه الشوارع موجودة بكل هذه اللامبالاة الطبيعية من حولي. إنها رائعة. أفضّل الأزقة الضيقة والفروع التي لا تأخذني إلا إليها، ما إن أقطعها وأشاهد أحدهم أو إحداهن بجواري، حتى أشعر بتناوب الصداقة. الأرض تنسلّ بعيداً عني وأنا أمشي فوقها، تخلب الألباب وهي تنسحب من أمامك كي تكون على استعداد لأن تجهّز خوفك. تضحك منك بصوت صامت، نحن أراضي أنفسنا. تعبتُ من المشي، تسألني قدماي غير الأسئلة التي تسألها يداي. العشب يدي الذي ينبت فوق قدمي.

ليس هو الحسد من سونيا، فأنا لا أعرفه. هو صفة متوترة لا أجرؤ على اعتراضها وأنا أراها ثانية وفي أحضانها الطفل. هو أمر بين الإعجاب والاحترام. شيء آخر منذور للكدح المجهول، لا يتطلب منك سوى التواضع والصمت. يسحبني من ثيابي ويقول لي: لا تتركي الملعب يا سهيلة، اللعبة لم تنته فصولها بعد. فضولي باهت في معظم الأمور ولم يتغيّر إلا بعد ولادة ليون. صرت حشرية أتفحّص، أتلصّص ولا ألوي رأسي إلى الجهة الأخرى. أريد أن أرى حتى أترنّح مما أرى. رقصت للطفل أول أمس حين دخلت سونيا الحمام وتركته معي. رقصت له ولمسافات طويلة خلّفتها ورائي. وصلت إلى بغداد، وإلى جميع النساء، وإلى ثمار الرجال التي قُطعت. رقصت وأنا أحمل الحقائب بيدي والبلد في جبهتي. أرقص كعشتار لجلجامش، وأنا أرتدي ثيابي البسيطة، رافعة آنية الزهور من مكانها كشارةٍ للّقاء والمزاح والمحبة. وحين أسمع همهمة صوته، أعوم على دموعي. سيكون ليون متلافاً لدمعي وعمري أكثر من والده.

* * * *

اتصل فاو. كنت بجوار الهاتف. قال: مبروك، اشتاق إليك. متى ستعودين؟ صوته مرح قوي مشوب ببعض الغنج. انتفخت عظام

صدري، قلت له: أنت أشغالي الشاقة، ضحك بسخونة وأجاب، لا أريد أقوى من هذا في ما بيننا. قلت، لكني أريد ما هو أقوى. غمغم، لم يكمل. لم أضحك لكني شعرت بأن لون عيني تغير وحجمهما كذلك. لم أذكر ذلك له كي لا يغترّ. لا أريد أي شيء غريب منه. أريد ان أحتفظ به بيني وبين نفسي، لا آخذ حبوباً منومة من أجله، ولا مضادات حيوية، ولا أتملق بشرتي كي تكون أكثر إشعاعاً، ولا أود من خيالي أن يذهب بعيداً، كأن نفعل كذا ولا نفعل كيت. أقبل ألا ألقاه مجدداً وأحلّق معه على المسرح وأنذر نفسي لأن أكون له وحده، وألا أحتاج إليه قط لكي لا أموت إذا ما مات قبلي. موجود في مكانه، بلدته، أمام نسائه وجسمه وسحره وسنه، وأنا أمام أنوثتي، وحساسيتي، وبدائيتي وسخافاتي. ما حصل وحدث في ما بيننا يستطيع أن يعود بأثر رجعي ومستقبلي على كلٍ منّا، لا ينتهي ولا يقال. فليذهب أو يعود، يتصل أو يتنصّل، فالأمر سيّان. لم أعطه رقم كندا، لم يسأل، مؤكد أنه حصل عليه من تيسا. اتصلت هي أيضاً. الهاتف بجواري ما إن يرنّ حتى أجيب خشية إقلاق الصغير. آه، لو تعرف تيسا العربية، اللهجة المحلية، لو تتحادث وحاتم ويغني لها ـ يا بنادم ـ باللهجة الجنوبية. الحزن في صوته يجعل «الناس يهربون». هو يتقن لهجات الفرات الأوسط والجنوب. تتقن بلانش لهجات الشمال وجواره، وحين تبدأ التحدث بالمصلاوية، تغدو سيدةً عجيبة. تمزج أشور ببابل في عرض جريء ويصبح مشهداً لا يوصف. لماذا لم تعمل في التمثيل وعلى المسرح هذه المحبوبة، ربما كان أفضل لها من جمع السجاد القديم؟

قلت لتيسا في أحد الأيام وأنا في شقتها الباذخة الجميلة: كأنّ الأشياء هناك ليست أشياء، وإنما ملح وخبز، ماء وهواء، وهي واقفة أو ماشية أمامي. وبرغم جميع ما أشاهده من كتب وأسطوانات

ولوحات وجميع مظاهر الحداثة، إلا أنك تشبهين مخلوقاً وثنياً. أراك بدلاً من هذه الكتب وسط الصخور. هل تعلمين أن كل هذه المنمنمات، والتحف، والخمارات الحريرية الهندية والصينية، والأفريقية والشرقية ما هي سوى أشعة الشمس، وأنت داخل قبّة روحك، تطربك أصوات الرياح، وينابيع الأنهار وأشجار الغابات. هل تدرين يا تيسا؟ أشعر في بعض الأحيان بأنك لا تعملين بيدك قط، ولا بجسمك النحيل الطويل، ولا بأصابعك القصيرة الوارمة وأظافرك المقلّمة التي تآكلت، ولا بوجهك الذي يشبه وجه طائر لا اسم له، طائر خرافي. أنت لا تكتبين بالحواس أو بالفكر، ولا بالغريزة أو بالأعصاب، تكتبين بها جميعاً، كأنك حضرت من أرضٍ غير موعودة، جفّ حلقك وأنت تنادين على قومك ولا أحد يجيبك، تعفّرتِ بالتراب لكن لم يدخلك اليأس، بل على العكس، اشمئزت روحك من الظلم. لا تنامين يا تيسا وأنت تشاهدين البلايا في تلك البلاد، فلسطين، فلا تشكين مصابك إلى الله ولا تملكين وقتاً للاستراحة. تيسا ماذا أنت فاعلة من أجل هؤلاء وأولئك؟

دعوتها إلى شقتي بعد مرور شهور على لقائنا الثالث، ودعوت معها الكاتب المسرحي العراقي الأصل نسيم سلمان، بعدما تعارفنا في بيت بلانش. دعوت كارولين ونور أيضاً. طبختُ في تلك الليلة أشهى الأطباق العراقية التي أعددتها يوماً، حتى أنني لم أعدّ تلك الوجبة في ما بعد إلا من أجل تيسا فقط. تحدثنا في تلك الأمسية، عن لغة التواصل بين البشر. أعادتني تلك الصداقةُ اللطيفة والجديدة إلى ذكريات بعيدة، إلى نسيم وهو يشاهد بعض تمريناتي مع فاو، فيقرر أن يكتب لنا نصاً مسرحياً قصيراً، يُعرَض في ما بعد من على مسرح الشمس ما بين الوصلات، وباسم العراق. عدت في تلك الليلة إلى سنين قديمة، إلى مهرجان المسرح في العراق في أوائل السبعينيات

حين قدّمت ورقتي ولم أقدّم رقصي أو بعض أدواري. استاء مني والدي لكني لم أهتم. قلت لهم ذلك وأنا أشرب قدحي الثالث من النبيذ. بدأت أهزّ بدني بصورة خفية وأنا أتحدث إليهم. وقفت وأشرت بيدي قائلة: كلنا من الشرق حتى كارولين السويدية. الشرق، ليس الماضي، أو البحث عن الزمن الضائع، هو مصبّ الحب حتى لو كان حزيناً وساخناً وقاسياً ويعتصر القلب من شدّة بؤسه. لا أدري لمَ أشعر بأنكم أقرب إلى الشرق، من الشرق أصلاً. كنت ثملة، منتشية، أشعر بأن الشمس العراقية لم تشوّش رأسي، لكنها جعلت فيه نافورة من النهرين. أمثّل، كما لو كنت فوق مسرح والدي. ما من شرطةٍ تطاردني، ولا زوج يضربني وأنا أستحمّ في الفرات. «فالبشر يتواصلون بالوجوه، والملابس، والأثاث، والإيماءات الاحتفالية، والعفوية والموسيقى، كلها تقوم بدور يعادل اللغة الكلامية. إن وظيفة التواصل ملازمة للممارسة الاجتماعية التامة، أكثر مما هي ماثلة في اللغة الكلامية وحدها». شعرت تيسا كما شعرت تماماً: ما جمعنا في البداية، هو اللاكلام. اللغة أحياناً، تفصم العلاقات بين البشر، فبقدر ما هي أداة تواصل، تصبح في بعض الأحيان أداةً لسوء التفاهم، سوء الفهم، فلا يبقى أمامنا سوى تلك الإيماءات، والصمت، واللمس، والتفاتات العيون.

جلست وقدحي فرغ تماماً وأنا أختم كلامي: هذا ما حصل في ما بيننا، تيسا وأنا. لم نتحادث قطّ، غير أنّ التواصل بيننا كان يتلألأ بمفردات لم نَبُحْ بها من قبل، أليس كذلك يا تيسا؟ حين وضعت الصحون والملاعق، بدأت الأفواه تمضغ والألسن تردد: آه. واصلت بصوت مخمور، وأنا أوجّه كلامي إلى تيسا: لو توافقين على الغناء بجميع لهجات العالم يا عزيزتي، الإنكليزية والفرنسية غير كافيتين. آه، لو تفجرت بابل ثانية بالألسن، والغضب، والغناء المدوّي، لو اختلّ

مكان النخيل وغطى الكون. لو كان عيد الميلاد ليس وقفاً على السيد الناصري، الرجل، النبي، وإنما على المكان أيضاً، على القدس والنجف وكربلاء، على مكة والمدينة. الصلب لم يحدث في بيت لحم فقط، الصلب في كل العالم، لا سيما عندنا. لو خربت اللغات واختلط الحابل بالنابل ثانية، لماذا لا يكون المسرح هو هذا الاختلاط يا تيسا، بين الأوغاد والصعاليك، والبشر والأنبياء؟ سيكون مسرحك مغامرةً كونية لا تُبقي ولا تذر وهي سوف تتسبّب بشرخ واختراق. أعرف، ستقولين إنني أهذي بسبب النبيذ الطيب. هذا دَمنا فاشربوه إذاً... اختنق صوتي وبلعته تماماً. تضحك تيسا، دائما تضحك، ولا ترذ.

* * * *

ماذا أفعل في كندا؟

أرقص على مسرح الأرض، أرى البحيرات الهادئة الساكنة كأنها علب للأطعمة بجانب دجلة والفرات. هذا مسرح الوهم، ما من متفرجين أمامي سوى الهواء، والضوء، والهوام، وصوت الريح. ما من مكروفونات، ولا مكبرات صوت سوى فحيح الآلهة. ملابسي ثقيلة، وطويلة، وداكنة. لم أتبيّن لونها من شدة عتمتها. يتراءى ضوء خافت من بعيد يأتي كما لو كنت أستضيء بحقل قمح ذهبي، وضربات تشبه أصوات هاون، تصوّرتها ضربات مسرح والدي. وسرعان ما تنفجر أصوات عديدة، معذّبة وحزينة، لا تئن، ولا تتوجع، تستدير فقط إلى الخلف وتواجهني. لا يكفي الرقص يا سهيلة، لا هنا ولا هناك. ضياء، شقيقك الوحيد اتصل فقط، أرسل شيكاً بمبلغ ألف دولار، هدية المولود الجديد. خاف، خائف من زوجته.

في الشهور الأولى من وصولنا باريس قادمين عبر تركيا، هربنا بين

الرعب والموت المحتوم، وكان هذا ممنوعاً علينا، نحن، زوجة وابن رجل عسكري لا يعرف مصيره بعد. انبثق الفجر وما زلت مستيقظة، أحادث روحي. نادر بجواري على السرير الآخر. ماريان، زوجة ضياء، سمعتها، تطلق عليّ لقباً استهواني أول ما سمعته بصوت خفيض وهي تعلنه لضياء:

«الختيارة المخبولة». لم أَخَفْ من لقبي الجديد، تصورت أنني أستحق جميع ألقابي، لكنها واصلت: «ألا ترى، بدأت تبثّ الذعر في قلبي الصغيرين. ماذا تريد هذه السيدة؟ أختك، عال، لكن ليس بهذه الهيئة والملامح العابسة والساخرة. إنها مرشحة للجنون وأنا أيضاً بدأت أخاف منها. أما أنت، فلا يكفي أن تكون هزلياً، بهلواناً لكي تتجنب نوباتها الفجائية. ضياء، إنها مجرد مهرّجة. تصور، ليلة أمس، أمضت ساعة كاملة وهي تهذي بأشياء غير مفهومة عن السجن والحب، والموت والرقص، عن الإهانات التي كانت تتلقاها من زوجها؛ مشاعرها مزيج من الغضب والتفهم، تنبعث من عينيها وهو يعود ليلاً من الثكنة. أعتقد أنهما غير سوّيين يا عزيزي. أعرف الشيء القليل عن دولتك بعدما أغلقتَ فمك نهائياً. حتى زقزقة العصافير صارت تخيفك حين وصلت إلى هنا. لا تنظر إليّ هكذا أرجوك. بلدك في الخارج، أي هناك، في ذلك الموقع من الكرة الأرضية، وأنا وأولادي غير معنيين به، وحين تدخل باب هذه الشقة تدعه بعيداً جداً، أبعد من أبعد مجرة في الكون. أنت تعرف ذلك. هل عاد إليك وسواس البلد، والوطن، والأهل والعائلة، والشقيقة وابنها؟ عليك أن تعرض نفسك على طبيب نفسي. كنت أظن أن المسألة حسمت. أنت فرنسي الآن يا حبيبي، تذكر هذا جيداً، ستُدفن هنا بعد أن تنازلت عن كل شيء لصالح أسرتك. هل نسيت ذلك يوم إعلان زواجنا أمام والديّ»؟

* * * *

عندما يصل نادر من عمله تكون الطاولة جاهزة بأشهى الطعام، تعلّق سونيا: سوف يزداد وزنه يا سهيلة أرجوك، أجيبهما: لكنه نحيف مثلي ومثلك، نحتاج إلى تغذية، أولنا أنت.

أعدّ لها أطباقاً منوعة، دسمة، ونافعة. أضعها في صينية وأذهب بها إلى غرفتها. كنت أشعر بأنني أرتبط بسونيا أكثر من السابق، لكن نادر كان يتذمر وهو يجلس أمام طبقه ويتبرّم وأنا أسكب الطعام له:

«تصوري يا أمي، أننا في الشركة نملك سلطة تسويق وبيع كل شيء، بدءاً من السلع مروراً بالأفكار وانتهاءً بالأشخاص. يمكنك القول إننا نبيع الحقائق والأوهام ونتبادلها، ولأن شركتنا نصفها أميركي والآخر كندي، فإن الجانب الأميركي يأخذ من دول العالم النقاط، وساعات العمل، والمعادن، ويبادلهم بأرقام وأوهام في دفاتر البنوك وذاكرات الكومبيوترات. يبدو الوضع مضحكاً، ولا يُصدَّق، ونحن نتلو يومياً، كما لو أنه النشيد الوطني كتبناه في ورقة ووضعناه أمامنا لكي لا نتوه عنه، ولا ننساه. هذا ما طلبه منا المدراء الذين توافدوا على الشركة، كأنه القَسَم أمام رب وحيد:

«من شارع وول ستريت، نحن الممولين، نقرر من الذي يعيش ومَنْ سيموت». طبعاً أنت لا تعرفين اسم ذلك الرجل الذي كان رئيس المدراء في بنك بنلسفانيا، اسمه لا يعني لك شيئاً، هل أذكره لك أم أصمت»؟

كنت ألحّ عليه وأنا ابتسم، لو يقول اسمه بلا كل هذه المقدمات.

قال: «يدعى جون بوتنغ، هل تتصورين أنهم طبّقوا ذلك على بلدنا؟ هنا انحسر اهتمامي بالأخبار. وبما أنّ أنباء البلد ليست مريحة فلا أسمعها، وإذا سمعتها فمن دون تدقيق أو تركيز. لم يعد هنا إلا التسويق يا أمي، تسويق السماء بعد الأرض. الحرب كانت هناك

عندكم في الشرق وأوروبا. أما هنا، في كندا وأميركا، فإن الشاشة تعرض لنا العصر الذهبي عن حرب الشائعات. لا أذكر من قال: في الوقت الراهن لم تعد هذه البلاد تفكر سوى في ما يسلّيها. تصوّري، هويتي هنا هي انتمائي المهني فحسب، إنني سلعة أيضاً يا أمي. التسليع يطال جميع ما يخطر في بالك. «فالأميركي الحقيقي يشتري بضاعة أميركية، أما الفرد العربي الحقيقي، فهو يشتري البضاعة الأميركية كذلك». تذكرت أقوال كن بعد حرب الواحد والتسعين حين ذكر أمامنا، هل تذكرين ما قاله؟ «ذكّرتني الولايات المتحدة ببريطانيا العظمى التي سيطرت على البحار في الماضي. إنّ بحار اليوم هي المعلومة للسيطرة على الموجات، موجات الإعلام العالمي بأسره. فهي الأمة التي تتصور أنه لا غنى عنها. يجب ألاّ ينكر الأميركيون واقع أن أمتهم هي الأكثر عدالةً من بين كل الأمم في تاريخ العالم، والأكثر تسامحاً، والأكثر رغبةً في إعادة النظر في نفسها والتحسن باستمرار. إنها النموذج الأفضل للمستقبل».

اتصل كن. كان يوم أحد، فرد نادر. بقي يضحك ويعلّق على كلامه: «الأطفال لآلئ تتدلى من لحية الطبيعة. طبعاً سأقول هذا لسهيلة. نعم إنها بجواري، تماماً، هي مسرورة. طيب: إنها ليدي يا أمي».

كانت تصرخ وتضحك بصوت مرتفع جداً:

«اسمعي يا عزيزتي، هذا الطفل لوالديه، مكانه المثالي. أما أنت، فانتبهي جيداً، لا تنخدعي باللقب الرنّان؛ الجدة اللطيفة، فسوف تستيقظين في أحد الأيام لتشاهدي أن الأيدي جميعاً ممدودة إليك لكي تجعل شجرة حياتك تتوقف عن النمو. إنهم ملاعين. سوف

يستعملونك بشتّى الصور، فهم يحبّون ضعفك. لا تجعلي رأسك يتمايل طرباً من هذا الإجلال لدورك الجديد. فذلك الحب يشبه المورفين، وإذا ما اعتدت عليه فسوف يستنفد روحك، ها. مبروك يا عزيزتي. اسمعي، أرسلنا هدية منّا جميعاً سوف تصلكم وسوف تضحكين مطوّلاً».

أخذ كن السماعة، كان يضحك. قال:

«لا تصغي إلى هذه السيدة المتطيّرة. فليبارك اللّه جميع الأطفال في العالم. سيشقّون طريقهم معنا أو بدوننا. إنها الدنيا».

شعرت بنوع من التقوى في صوته. ضحكته وكلماته، كانت تقدم إلي عوناً لا ينقطع، النصح وبثّ الشجاعة في القلب. كلما أفكر في وجهه الطيب، يأخذ صوته بالتلاشي أمامي وتنطلق ضحكته من جانب ما من فمه ولا تتّسع. غامضة ضحكته، واقفة، كأن أمامها سياجاً، تتجمّع لكنها لا تتحوّل إلى طوفان كما يحصل مع ليدي التي قالت لي في أحد الأيام، من دون أن أسألها:

«أنتم تعملون أشياء كثيرة في السرّ وتفصحون عن عكسها جهاراً. الجنس، مهم وضروري وعلينا أن نفكر فيه. نفعله دائماً، نمتّع أنفسنا وشريكنا. هو فعل محبّب، طريف. أنا أسمّيه مائي وهو ينبثق مني على مهل بالزيت الطبيعي الذي يقوّي نفسي وجسمي ويخلّصني من العلل ونقاط الضعف. أتصور إذا ما بقيت محتويات أجسامنا داخلنا فقد تتحول ضدنا». ثم التفتت بطريقة مباغتة وسألتني: «ما رأيك أنت»؟

من يقرر ما إذا كان الأمر جميلاً، وكيف نبرهن أنه كذلك؟ هل يعتمد جماله ولذته على ما نتخيله فقط؟ فكّرت بالفيلسوف الألماني كانط، الزاهد، العفيف الذي كان يخشى إهدار المني، واللعاب والعرق حفاظاً على طاقته الفلسفية وحياته الفكرية. وأنا، لِمَن أحفظ

قواي وماء ظهري؟ ما أنا سوى مجرد ممثلة وراقصة في طريقها إلى التقاعد.

* * * *

في إحدى الليالي، قبل سنوات في برايتون، كانت القناة البريطانية الرابعة تعرض فيلماً وثائقياً حول الحرب الفيتنامية. عمّت المظاهرات جميع أنحاء العالم، ووجه كن لا يزال ماثلاً أمام عيني. لن أنساه ما حييت. كان في أقصى درجات عذابه. ملأت رائحة شقائه أنفي وصوته يتأرجح بين هنا وهناك:

«إنها أمي يا سهيلة التي حشرتني بين ضلوعها وقفلت عليّ ثيابها من الخوف الشديد علينا، ونحن ننتقل في عربات النقل والقطارات المحمّلة بالجثث لكي لا أصرخ أو أبكي جوعاً وعطشاً. كنت جامداً أكثر مما هو مطلوب من طفل هشّ وهزيل، وهي تنقلني من صدرها إلى ما بين فخذيها، تحبسني هناك فأسترق النظر إلى ما حولي من بنيتها الصفراء المعظمة والمريضة، على طول الطريق الذي كان مزدحماً بالجنود الأميركيين. كانت رائحة صنان البول والعرق والرعب تشقّ فمي وأنفي، وشعر عانتها في تلك البقعة يرشح بولها على مهل حول حنكي، أشرب وأسكت قليلاً. أشرب وأكاد أختنق من السيلان والدم الذي كانت تنزفه. كنا هدفاً سهلاً، نُحشَر ونُسحَق كالحشرات ويُلقى بجثثنا في الغابات والمزابل وعلى مفارق الطرق. بول أمي هو الذي أنقذ حياتي. هي ورثت التهاب المثانة المزمن وانحباساً في الكلية، وأنا ورثت التهابات في الحلق وتشققاً في البلعوم لا زالت آثارها باقية حتى الآن. كان البول يحتوي على حصى ورمل والكثير من الدم بلعته ولم أعر ذلك اهتماماً. من يميّز في تلك اللحظات بين الدم والبول؟ بعد سنوات طويلة، عندما بلغت العاشرة وكنا في بريطانيا، تعلمت رجّ جسمي رجاً شديداً. كنت أوخزه، وأضربه، وأشقّق لحمه وأدميه.

أدوس الشجيرات الشائكة وأمشي داخل الغابات والأدغال. أغرز لحمي بالزجاجات المهشّمة والآلات الحادة وأشاهد دمي يسيل أمامي وأنا داخل تلك الحقول، أسبح فيه وأدفعه إلى الخارج وأردد: خذ وانظر يا كن. ألا ترى تلك الثقوب، والجروح؟ ألا تفهم؟ أريد أن أقطّر وأنظف دمي الفيتنامي من العرق الأميركي. بقيت أمي تتبعني كظلي في رحلاتي الجنونية تلك وتقول:

«أنت معتوه مثله، مثل والدك الذي بقي يضاجعني وأصوات القنابل ودويّ الصواريخ فوق رؤوسنا. كانت الدماء تنزف من أذنيه وباطن فمه. أما عضوه، فكان ينضح دماً مخلوطاً بالمني. حبلت بك وسط الوحل وأنين الجرحى وجثث الموتى من حولنا. كل رعدة من جسده كانت تنزلني إلى الجحيم لكنه لا يعبأ، يواصل ناسفاً حوضي ووركيّ، لاطماً إياي، عاجناً جسمي بالطين والرصاص وسموم الغبار الجرثومي. فيقوم عارياً، يعيد انتصاب عضوه المرتخي ويبدأ من جديد. يرفعه إلى أعلى. وأعلى كصاروخ، لا يغلق عينيه لكنه يزأر حين يشاهد الطائرات في طريقها إلينا. سدّدت جيداً وفجّت جمجمته نازلة إلى الأسفل حيث كنت أغوص بالدم والهول».

* * * *

تحدثت كارولين مطولاً عبر الهاتف. هنّأت نادر أولاً في اليوم الثالث من الولادة. في الرابع خاطبت سونيا في غرفتها في المستشفى. لم تطلب التحدث إليّ. كانت تجيد اختيار الأوقات المناسبة التي يصادف فيها وجود نادر، ويقظة سونيا والطفل. غريب، تلك مسألة حدس وليست حيوية فحسب. قدّرت ذلك كثيراً حين كانت تختار الكلمات بعناية، فهي تسهّل الأمور عليّ. تعرف إلى حد كبير ما يدور في خلدي، وما سوف أرويه من قصص لها ولباقي الصديقات هناك. سجلت في كرّاستي بعض الأمور المزعجة، والمتباينة، فلا وقت

لتجنبها، ولا يجدر بي المراوغة عليها، أقلّه أمام نفسي. كان الأمر شديد التعقيد: أن يتقمّص نادر جميع الأدوار؛ الوالدة والمرضعة، والخادم المطيع والرجل الذي لا يعرف الإهمال في الشؤون المنزلية.

بدا لي أكثر من ابن وأب. ذهبت رجولته بعيداً، قلّت ثرثرته. كان فياضاً في فحص شخصيته الجديدة. إنه رجل جديد، صار مختلفاً. كان يؤدّي ذلك الدور على أكمل وجه، وكنت أتفهم وضعه الجديد. كان ذلك في البداية. فقد لبّى النداء، نداء سونيا، نداء العاطفة الجياشة الجديدة: أبو ليون.

باستطاعة سونيا أن تؤرخ تلك المرحلة الحاسمة من وجودهما معاً. لا شك في أنه صار من اختصاصها وحدها. كلا، لم تكن الغيرة التي تنشب أظافرها فيّ، هي بقايا من نظريات التحرر والعدل والحرية، بقايا من أفكاري المبهمة الغامضة التي تصورت أنها بقيت آمنة في القلب؛ سونيا امرأة مرفوعة الرأس كزهرة القرنفل، السلطة بادية عليها، هالة الأنوثة المنتقمة تشعّ من حولها، فأسمع صوتها حين تحادثه في الصعود والنزول. تحادث نادر. تفرض عليه الأوامر وتسدّ في وجهه الطريق. يجفل في بادئ الأمر ثم يقفز ويقول: حسناً، وحدي، كنت أطلب له النجدة. كانت سلطتها كالغول. لا أدري، لم أشعر بذلك يوم وُلد نادر ولا عرفت أن لدي سلطة خفية في مكان ما، وما عليّ سوى مسح الغبار عنها حتى ترفرف على مهل، بهدوء، بضعف. أخذت طريقي ووليدي وصمتّ. تلاشيت واختفيت. بقيت أردد أصداء ما يردده الزوج لكي أنال الاستحسان والرضى، أو على الأقلّ احتمال ألاّ أقف في فوهة المدفع. هل حضرت سونيا لتنتقم من سلبيتي، لتعيد تربيتي، فتنقضّ على نادر كله، كأنها تخبره بما كنت أقاسي، ولتحشرني في الزاوية جهاراً؟ إن عموم ما اعتقدت به خلال عمري، من تلك المسائل، والأفكار، والكلمات الرنانة التي رددناها في

القاعات، والمسارح، والتظاهرات، والمسرحيات، والأدوار، كانت مغبشة ومزيفة، ومن دون جدوى. انبثق ذاك الحيف أمامي بغتةً وسونيا تجرؤ على الوقوف فوق السياج. تتخذ هيئتها الجديدة أمام هيئتي العتيقة، فترجح كفّة الميزان لصالحها. أنظر، ألاحظ، أكرر، أخشى أن أصيح وقبلها: فلتكن حذراً يا نادر. ألأنك ولدي، كما لو كنت أحذّر نفسي في تلك الأيام الخوالي، أتحطّم على مهل ويترامى زجاجي إلى آخر كرسي في المسرح، إلى البيت والسرير. لماذا أتضايق؟ أغضب ويدي على الدرابزون وصوت سونيا فصيح، لا شيء يكبح جماحه. أسمع إصرارها، وتكرارها، باللطف، بالغنج، بالقوة التي تشبه القنبلة والجاذبية التي تنشرها كالعنكبوت، فتصعد الوساوس إلى رأسي وتسيل عليّ كالماء الساخن. لا يوجد بيننا ما يفرقنا، فعاليتها وعجزي. أدمدم وحدي، أسلّمها الراية فتغطيني الحسرات على نادر ونفسي.

* * * *

عاودت كارولين الاتصال، قالت: «باختصار، هلا الاتصال لك. ما هذا يا سهيلة، متى ستعودين؟ مضى عليك شهران، أنت جالسة بالتأكيد تلملمين أجزاءك المبعثرة، عيوبك وحسناتك. ستقولين، شكراً لهذه الزيارة لأنها جعلتك تميّزين بين الضوء الاصطناعي والطبيعي. سهيلة، ما هو الشيء الآخر الذي تأكدت منه؟ لا تبتلعي كبرياءك أمامي وترددي: لقد ضقت ذرعاً بما يحدث أمامي. صارت سونيا المديرة العامة، ونادر مجرد بواب مؤهل لجميع الأعمال والخدمات. سيغدو ذلك موضوعك الأهم، يُرضي هواك لكنه يستثيرك. افهمي يا عزيزتي فحوى القصة التي تتردّد ثانية، وثالثة وعاشرة. إنك تفحصين رجلاً آخر من خلف الستارة، كأنك على وشك إصدار قرار الفصل منك. فافصليه عنك إذاً أرجوك. لا تأخذي عليها جميع المآخذ لأنها تستعمل ابنك خير استعمال، بل أسوأ من ذلك، إنها تسلّمك الاستمارة وما عليك

سوى ملء الخانات الشاغرة؛ تقصيرك وانحرافك. هل استوعبت الدرس؟ هذه المؤسسة مليئة بالأخطاء، تعذّر عليكِ أنت البقاء فيها، ليس بسببك ولا بسبب زوجك لكن بسبب الحرب. ألا ترين لماذا لم أتزوج حتى الآن»؟

كانت وجد تردد: «ليس بالضرورة أن يكون الاكتئاب حال المرفّهين الأثرياء. كارولين على سبيل المثال. أنت لا تعانين بطرها لكن الكآبة لديك كالذخر».

يوم علمتُ أن كارولين حاصلة على شهادة الماجستير في العلوم الرياضية، صُعقت وضحكت بصوت مسموع وأجبتها: لو كنت إحدى الشرقيات، لفلقت رأسي ثرثرةً وادعاءً عن درجتك العلمية، ولطلبت أن أناديك بالأستاذة. ها؟ أجابت بهدوء جميل: «لكني حصلت على ما يعادل الدكتوراه في فلسفة عصر الأنوار من جامعة درم». قالت ذلك وهي تصبّ لنا قدحين جديدين من النبيذ المعتّق. تحرّك كفّها أمامي في جميع الجهات. أظافرها مصقولة ومصبوغة بلون فضي غامق. قلت لها: أظافر عرّافة هندية، فضحكت كالطفلة ومن حولنا كومة من الأسلاك الكهربائية للجمع الغفير من الآلات والأجهزة الحديثة المتطورة التي تحيط بنا: تلفزيون بشاشة تشبه شاشات سينما المسارح الخاصة في المؤسسات الفرنسية؛ جهاز فيديو رقمي؛ وآخر للتسجيلات من الموديل الأقدم قليلاً. قالت: سوف أهدي هذا إليك في عيد ميلادك القادم، إنه يقدم أرقى الأصوات وأصفاها. إنه الوحيد الذي أحتفظ به من العصر القديم أو الموجة الثانية. أضواء شاهقة جداً ينبثق ضياؤها إلى الأعلى فلا تجرح العين. ثلاثة أجهزة كومبيوتر، الكبير الأصلي، كالمصعد الكهربائي، موضوع على الطاولة السوداء الأنيقة بشاشته الكبيرة الرقراقة. الأصغر تحمله معها أينما حلت في غرف الشقة، مثل جرو ينقاد إليها. تصوّرتها تأخذه معها إلى الحمام

أيضاً. الثالث، الأصغر حجماً، تضعه في حقيبة يدها عندما تسافر بالطائرة والقطار إلى دول العالم. طابعتان، إحداهما من النوع العادي والثانية على الليزر؛ ماسحة لتظهير الصور الملونة كأننا في مؤسسة صغيرة تعتمد على السجلّات، والأرشيف والوثائق. مكتبتها متاهة، ناطحة سحاب. قلت لها: أحتاج للانتقال بين رفوفها إلى مصعد وملابس رسمية. كان يتعذر عليّ البقاء داخل ذلك العالم لفترة طويلة. منظّم وفوضوي في آنٍ، منحرف ومصاب بالصرع. أحتاج إلى أعصاب حديدية ونصائح من أطباء نفسانيين، وصلاة قديمة أزديها لكي تحل عليّ البركة. ترفع حاجبيها وأنا أواصل الهرب من أمامها: أشعر بأنني أمام جيش من الأعداء اللطفاء. ترد وهي تضحك: «هذه مفاتن العلم». تضعني داخل الرموز، والأرقام، والخطوط، واللغات، وتنادي بصوت وقور: هيا، إذا شئت اكتبي. زر، زران، ضوء، والبيانات أمامك في ثانية. هيا ابدئي. تأكدي من أن لا صاعقة ستضربك إذا مددت يدك. هذا ليس فخذ خروف تضعينه في الفرن لكي يُشوى من الأسفل إلى الأعلى. هنا أقيم الروابط بيني وبين نفسي والعالم. أنت لا زلت تجوبين القفار والصحارى، تخاطبين النجوم بإبرة الخياطة وتتوقعين أن يكتب قمرك القديم تاريخك الجديد. سهيلة، سحري أنا أقوى. هذا هو السحر، انظري إليه وادخلي عالمه بأمان. سوف أهديك خبرتي. أجل، طبعاً على مهل، بهدوء. سأمنحك فرصة ذهبية لكي تقترفي جميع الأخطاء وأعيّنك قنصلاً فخرياً في هذا العالم، لكن بعد سنة، أو سنتين، حين يشتدّ عودك. تشرح، وتحزّ جسمها، ويدها، ورأسها. كريمة، مسالمة، رقيقة، متسامحة وشجاعة.

«هيا، سأحضر دفتراً خاصاً اشتريته لك. سنبدأ منذ الآن». كلماتها كالصلوات. شعرت من جانبي بأن الآلة تكره، وتعشق، وتتلذذ، وتقسو قليلاً، لكنها لا تعود القهقرى. جميع تلك الآلات

ساهرة على خدمتها ومسرّاتها، وما عليّ سوى التكفير أمامها عن فظاظتي وإسرافي في الحذر والاحتراس. هي الخيال الذي عليّ أن أسدّد ثمنه منذ الآن وإلى ما شاء الخالق. ملكات أذهانها مضروبةً بأرقام، على يمينها أصفار عدة، وفطنتي مضروبة بالعصي والمرارة والخيبة. كم عليّ ان أتدرب، وأقاسي؟ كم عليّ ان أنسى، وأتناسى، وأتأهب للتجربة والتعلّم؟

بدأت تتشاءب من الشرح الطويل. كانت تقبض على الأسرار بيدها، تعطي وتمنح المحتاجين أمثالي. فبعد قليل، حين أغادرها، سوف تدخل غرفة النوم الأنيقة، وتضع الشال الهندي على رأسها ثم تبدأ بتمارين اليوغا. لو عاشت في عصر المركيز دي ساد لبدأ بشدّها بكل تلك الأسلاك من الذراعين والكتفين، من الساقين، والبطن، والصدر. لقرّب من وجهها كل شموع الأرض وأحاط عينيها بالنيران. لضاجعها في حفل جماع لا ينتهي حتى يبدأ. بمقدوره أن يقول لها، تعالي تعالي، فلا تفرّ من أمامه. لا أدري لِمَ شعرتُ بأنها بحاجة إلى مجموعة من المجامعات، من الهيمنات، من الغراميات، شيء من الفحش والفسق والفجور، من الوقوف على قدم واحدة حتى تتعرقل جميع خططها في تلك الأجهزة. ما من رجلٍ أفضل من دي ساد بمقدوره أن يحرك لوحة أزرار الدوقة كارولين في جميع الجهات، يحرّك أصابعه إلى ملتقى الجسم الرخامي وينزع عنها بكبسة زر جميع حيائها وشيطنتها، من دون أي اعتبار لجليدها الجهنمي.

* * * *

أشاهد بعض القنوات الأميركية هنا. أنتظر نوم الجميع، وأتسلّل وحدي إلى الصالون. لا أعرف كيف أحلّ الطلاسم. كلما أنتقل من قناة إلى أخرى، أتصور نفسي أمام مشهد مسرحي يدوم أربعاً وعشرين ساعة. فجأة يظهر أحد زعماء الحزب الجمهوري، أسمعه يصرخ:

«لماذا نهتم بالآخرين الذين يتمنّون لو يأكل الجراد أميركا». تذكرت تلك الواقعة التي نشرتها الصحافة الفرنسية وترجمتها الصحف العربية: «قدم تسعة شبان من هولندا لممارسة رياضة الشتاء. وقد اختار هؤلاء كما ينبغي لهم مرتفعات في الجنوب الشرقي لمزاولة رياضة التزلج على الجليد، في عام خصب بالثلوج التي لم تعرفها فرنسا منذ سنة ١٩٨٦ بالغزارة الحالية. ولسوء حظهم وعدم حرصهم، لقوا حتفهم بسبب انجراف كتلة ثلجية حين كانوا يمارسون رياضتهم». هناك، لم يكن الأمر يتعلق بالثلوج ولا بانجراف يخلط الحكمة بالهباء. كان الأمر يتعلق بهدف عسكري. ففي فجر اليوم نفسه، كان الطيران الأميركي يقصف مخبأ العامرية ببغداد، كما كتبت الصحافة حينها. وفي الصباح انتُشلت من المخبأ المدني أربعمئة جثة أو أكثر. وقد صرّح الجنرال ريتشارد نيل: «إننا متأكدون بصورة مطلقة من أننا أصبنا الهدف المطلوب، ونحن لا نشعر بأننا هاجمنا المخبأ غير المحدد. لقد كان هدفاً مشروعاً. لا نعرف لماذا كان هناك مدنيون داخل المخبأ، ونحن لا نخوض الحرب لتدمير الشعب العراقي».

* * * *

استيقظت صباحاً ووقفت أمام النافذة. معظم ما أصفه خيالي. أرتكب الأخطاء وأنا أقول: حسناً يا سهيلة، قد يكون هذا المكان ملائماً لك فلا تغادريه. إلى أين ستذهبين؟ الظمأ هنا لا يُرتوى، والعطش هناك أخجل من الإفصاح عنه، وأي تفصيل يصبح بلا معنى. أكدح منذ الصباح حتى المساء، كدحاً تافهاً، ومريضاً. أحملق بالخضار، واللحوم، والدجاج والأسماك المجلّدة. البقول، والفواكه، والأدوية، والفيتامينات. علب الحليب، وموجودات البيت، والطناجر، وجميع الآلات الكهربائية، للعصير والشواء، للأشياء كلها. الثياب، والخزائن المقفلة بإحكام، والكراسي الموجودة أكثر مني. للسجاد

الهادئ أكثر من شجرة مثلجة في الحديقة. أنصت إلى كافة أجزاء الأشياء وأبحث عمّن يحتاج إلى لمسة خبل: هنّ، أنا، أم هم، قبل أن نتعفن، ونفسُد ونُجَنّ. لا أريد ان أكون عضواً نافعاً هنا، هذا ليس بيتي والأشياء لا تخصني. لست جزءاً مضافاً ولا كلاً مسحوباً إليها. إذا حركتِ آنية الزهور من مكانها فليس هذا إلا فراراً من ذاك الذي ضاع إلى الأبد، الجنينة بكاملها. إذا قطعت قالب الحلوى فأعرف أنهم يراقبونني، ستة عيون بانتظار قيراط واحد من المتعة والتسلية والشبع. أنفّذ جميع ما لا يُطلب مني، أنفّذ نواياهم وما لا يقدرون على الإفصاح عنه، فيرون إلى أي مدى سأصل، تحت المراقبة، تحت المجهر؛ وجهي، حركاتي، كلامي، نرفزتي وسوء مزاجي. أما صمتي، فهو الأشد وطأةً عليهم وعليّ. بوسعهم أن يذكّرونني دوماً، بأنني على خطأ لكي أنال من نفسي. هناك، في بغداد، لم أكن أعترض سوى من خلال التمثيل والرقص. والدي يخرج لنا أدواراً، نحن الممثلين الجدد الذين تخرجنا للتو من الأكاديمية. يقول عنها: إنها ستُبقي رؤوسكم مرفوعة وقاماتكم شامخة. هيا، عليكم نسيان ما حفظتم من قبل، فالنصوص سجون، كما هي سجون الوطن، وما عليكم إلا أن تكسروها بالأداء المغاير الذي يزعزع. بقي يقف خلفي ويهمس في أذني: اطلعي من جسمك المالح الضعيف وطبعه الذي يشعر بالذنوب قبل أن تُرتكب. اذهبي إلى أجسام الآخرين. استخرجي من جسمك الغدر والجبن والمهانة. قفي كأنبل الصعاليك في أشد حالاتهم خصوبة. لا تقفي مثل جندي مكلّف يريد أن يؤدي واجبه العسكري. انسي سَوط السيد زوجك وصوته وأوامره، حتى لو ضعفت قدماك واهتزتا، فالضعف شارة بني البشر ومجد الممثلين. لا نريدكم مجرمي مسرح بل سكارى حتى تمتلئ الخشبة بثمالة خطواتكم. أفلت أبي عنان الجسم والقلب، قال: عليك بخيانة سهيلة الجبانة المهزومة. عضّي

عليها بكلّ عزمك وشاهدي موضع العضّ. لا مراجع، ولا رتب، ولا كتائب، ولا سرب طائرات، ولا خرائط تخدعك ولا ثياب رسمية تُدخلك الوجاهة الاجتماعية. أنت فنانة ولست مهرّجة. استهوتني تلك الأعوام التي أمضيتها فوق الخشبة. هي قسوتي وعذابي، جرائمي وشرّي. أما هويتي، فقد كانت مبعثرة ما بين السيد الوالد والسيد العسكري. والدي، استعملني أيضاً من أجل أمجاده العظيمة. ظل يردد: سأستخرج منك اللآلئ وأحيكها على خصر المسرح العراقي الحديث. لكني كنت أبتعد عن والدي ولم أقترب لا من زوجي ولا من نفسي. أبي هو الذي أطلق عليّ لقب «سهيلة وحش المسرح»، فسَرَت تلك المقولة كالنار في هشيم الصحافة العراقية والعربية. والزوج يسكر ويغيب. كلما أصعد درجة في المسرح، كانت الحمم البركانية تنسفني في السرير. مثّلت أدواراً ساخرة وهازلة، لكني أتقنت دور الحزن البائس، وكسر الأنف إلى آخره. غيرت سحنتي، صبغت شعري بألوان شتى من أجل كل دور. بدّلت وجهي بالمكياج، وأرخيت عضلاته وتجاويفه ولم أتعرف إليه في المرآة. لم أكن مسؤولة عن سحنتي وقسماتي. أكون لحظتها مخلوقة أخرى، أختلقها، ولا أعرفها من قبل. أبتدعها. تكون مجهولة في تلك الساعات الفاصلة من عمري، فتتضاعف المغامرة. أكون على النقيض دائماً ويستمر البحث عن الوجه: وجهي. وهكذا، كلما تقدم بي العمر، كنت أودّع أحد الوجوه، أوفّق أحياناً وفي أغلب الأحيان لا، لكني دائماً أهتدي إلى شيء مغاير، كأنني موسيقى ليس بمقدور أحد الإمساك بها، لكن الجميع كان يتمايل وهو يصغي إليها.

* * * *

اتصلت فريال وردّت سونيا. كنت أستحمّ. قالت: أخبري سهيلة أنني ورباب في عمان. وصلت من روما قبل أيام. سوف نحاول

الاتصال ثانية أو ربما سنكتب إليها رسالةً مطوّلة. في بغداد، ظلت فريال تردد: «إن سعار زوجها ضاعف عدد الميداليات التي وُضعت على صدره. أقسم لك يا سهيلة، إنه حتى حين يتقلّب في السرير كان يصبّ لعناته عليّ. لقد قام بواجبه على أكمل وجه. كنت أدري، وأنت كذلك، لكنك من النوع المتكتّم، على العكس مني. كان مصاباً بي، أنا النوع الذي لا تسيل الدموع على خديه. حديد غير مطواع، إذا لطمني على خدي لطمته على قفاه. أمر فظيع وبغيض. أنا التي أصدر الأوامر له بضربي، لا هو يتحلى بالصبر ولا أنا أتراجع وأترفّع. خبطة على الرأس، وأرفس، تنبت لي أجنحة. إذلال، تمام، لكن في زوايا عينيّ، كانت تتجمع شحتي القاتلة: الاحتقار. لطالما كنت أرى ذلك في لمحات خاطفة. شيء كالابتهاج، حي وحقيقي ويلزمني عمر آخر كي أتذكره وأستعيده ولا أتبرأ منه. ذلك الغم الطويل هو الذي غمر حياتي، فجعلني أُجهض نفسي عدّة مرات، لم أحسبها. طريقة قذرة في تجميد الأمور أو تصحيحها. أعرف ما سوف تنصحين به».

حين انتهى كل شيء في ما بينهما، كانت قد أفلت. قالت كلمتها تلك: «إنني أشبه جمهوريتي، تصدّعتُ، وأُنهكت ودُمّرت ولا زلت أشعر بأنني شيء ذو قيمة. مضت أجمل سنوات عمري ضمن إطار فكرة واحدة لم تتغير. كان لديّ من العزم والشعور بالمسؤولية والقدرة على تغييرها لكنني فشلت. لا تحسديني أرجوك، ألا ترين؟ ثيابنا حديثة، زيتنا على الموضة لكن جلودنا ملطخة بزيت الرعب، وقلوبنا تجرّ قافلة من الأمراض والبؤس والبذاءات. حتى الصداقات لم تنتصر لنا أو معنا. بدت في عيني مهلهلة، رثة، ولا تبعث على التقدير أو المودة الخالصة. أمراضنا هي الأخرى كأننا لا نستحقها. هي أمراض من ابتكار الآخرين، ابتكارهم. كنت أضحك عليك يا سهيلة ولن أقول لك سامحيني أبداً، حين ترددين بصوت ضاحك خجول وأنت تحدقين

في عيوننا، نحن صديقاتك: علينا أن لا نخلي كل الأماكن القديمة للكهولة القادمة، تباً لها. إنها تملك مواهب عديدة في الاستحواذ على ما كنا نتصور أن بمقدورنا الاحتفاظ به: الكرامة والعزة والغيرة. لِمَ لا، فهذا هو الخطر الوحيد الباقي لنا أمامهم».

بقيت فريال شديدة الأنوثة تجذب الرجال إذا ما سارت أو تحدثت أو ضحكت. جاذبيتها كالشرطي السرّي الذي يجد دوماً الظروف المؤاتية لكي يوقع العقوبة بالغير. حين كنت أرقص أمامهن أو على خشبة المسرح، أمثّل بمهارة، وأجهّز أدواري فتتحول تلك الأمتار إلى مركز اختباري الوحيد. كنت أتعرف إليهنّ بصورة أفضل، أطيح بجميع صنوف البروتوكول والرسميات، فأثير نرفزتهن. أشعر في بعض الأحيان بأنهن تحوّلن أو صرن ضدي. تستهويني تلك الحالة كثيراً فتزداد الرموز الجديدة التي لا يعرفنها عني. أغدو غريبة عليهنّ، وأحياناً على نفسي. أرسل إشارات لا تصنّف ولا تركّب عن حركة روحي وجسمي وجنسي وخبرتي. أرشدني الرقص إلى تحريك العالم معي وضمن إلهامي. رتّب ألمي وجعله أكثر صلابةً وخفاءً. أطّر الصداقة وحصّن صداقاتي أعمق من كافة خنادق الجمهورية. حين أبدأ بالحركة الأولى، أراقب التحولات التي تطرأ عليّ من الداخل والخارج. أستوعب العالم في الحال حتى لو هجرني الجميع، وهن على الخصوص، فسرعان ما أعود وأستحضرهن تباعاً وأنا أقود جسمي إليهن ثانيةً وثالثةً. أقوده ولا أجعله حاجزاً. أعلّمه ويشرح لي كيف يدرأ الأخطار عني وعنهن، الأخطار غير المفهومة التي واجهتنا، وما آلت اليه حياتنا في كل أرض وقارّة.

* * * *

«خطابان يا أمي، الأول من عمان والآخر من باريس». سلّمني إياهما نادر وهو يبتسم. حين نظرت إلى الخطين عرفت أن الأول من

فريال والثاني من نرجس. غريب أن نرجس لم تتصل لتقول مبروك بعد مرور شهرين ونصف الشهر. أمسكتُ بالخطابين، دوزنت سماكتهما بطرف أصابعي وضغطت عليهما شوقاً. ابتسمت بدوري في وجه نادر ففهم ما أريد: الاختلاء وحدي بصحبتهما.

دخلتُ الغرفة الزجاجية الدافئة التي تطل على الشارع العام والحديقة المنسّقة. عدّلتُ جلستي؛ الكرسي الجلدي الطويل والمريح يسمح لي بمد ساقيّ إلى آخرهما. كانت الساعة السادسة والنصف مساءً، اشتهيت السيجارة الممنوعة هنا منعاً باتاً. قال نادر، من أجل ليون وأجلك، وافقت وليس على مضض. لكن النبيذ، بقي شغفي به غير منقوص. أسمع وقع أقدام نادر. دخل وهو يحمل صينية عليها الشاي الساخن وقليلاً من البسكويت. صار لديه منبه إنكليزي. وضع الأشياء بجواري على الطاولة المربعة وغادر على الفور. لم يدعني أشاهد نظرة عينيه الجذابة. إنه يدللني، فموعد عودتي إلى باريس اقترب. عجّلت بفتح خطاب فريال ورباب أولاً، صديقتنا الثالثة في الأكاديمية، الفريدة من نوعها، والتي أخضعتني لسطوتها الآن.

«سهيلة، هذه بضعة سطور مني قبل أن أتركك في عهدة رباب. حضرت من بغداد إلى عمان من أجلها. لا تزال هذه المخلوقة خطرة كما لو أننا لا زلنا في تلك الصفوف الدراسية. تشبه عاصفة خفيفة من الرقة والقسوة كما لو أنها عاشت طوال تلك السنين بالملابس الداخلية. لا تزال نقيّة في علاقاتها مع نفسها بالدرجة الأولى وعموم حركاتها تشبه منحوتاتها هي، وليس تلك التي أمرت في أحد الأعوام بنحتها ففُصلت من الأكاديمية بسببها. أحضرت لي أرشيفاً مختاراً منها. عاشت كتلك التماثيل، في حالٍ من التقشّف. لكن الخيال تفجّر، فأعاد إلينا الثقة بالفن الغابر، ذاك الذي كنا ندرسه ونحلم به. هل تدرين، لم يمر العمر عليها بعد، أي والله. ربما لم تجعله هدفاً وحيداً

لها كما فعلت أنا، لذلك تجاهلتها السنون. شيء مذهل لا يصدق؛ فعلى الرغم ممّا عانته في روما من مصاعب رهيبة، لا تزال تقول الله، حتى من ذرة الغبار التي تراها فوق السيارة التي استأجرتُها من أجلها وأنا أقودها من مكان إلى آخر. تحتفظ بالحنين والدهشة وأشياء أخرى لا أدري ما هي. ربما النبل والصدق اللذان تحوّلا لدى بعضنا إلى فضلات. حين شاهدتها بعد عشرين عاماً أو أكثر، صرخت وبكيت. بدأت أبحث عنها، فتّشت وجهها وسحنتها وأنا أقول لها: إلى أين ذهبت بالسنين الدنيئة تلك، إننا محشورون بالأعوام. وهي، آه، لو تشاهدينها يا سهيلة. شتمتُك كالعادة، شتمت نفسي، أجدادي، وأسلافي، شتمتهم كلهم، بالي بالك. آخ يا سهيلة لو كنت أصغر بعشر سنين فقط، بس، آخ، كان العمر مجرد حلم، طيف اختفى فوراً، انتهى قبل أن يبدأ. مسح يده بعدما أكلنا وألقى بنا إلى الأسفل، أسفل السافلين. لا زلت يا سهيلة، كما قلت لرباب أيضاً، أراود نفسي على نفسي وأنا في الغرف الفسيحة والسرية المقفلة عليّ. أخاف من الضوء. أخاف من الخطوة المجهولة. في بغداد، نستدين المشاعر أحدنا تلو الآخر، لكني لا أعرف أحداً كي أمنحها له، ولا ابناً ولا بنتاً لأورثهما ما لديّ. سهيلة، الحرب نظّفت بصري فصرت أرى في جميع الجهات. صارت حواسي صقيلة، كسبت ما كنت أجهله تماماً، الخطر. هنا، في عمان، ولو لأيام أو شهر، ولو أنني بعيدة عن مخاطر الآتي والذاهب، أشعر بأنني أعيش الخطر كله، أعيشه إلى آخره. إن الخطر هو الذي يجدّد قواي. تصوّرت أنني أهرب منه لكني وجدته داخلي أكثر، في هذه المدينة التي أراها وكأنها مصابة بالتأتأة، بعدما وقعت أسنانها الأصلية، فوضعت لها بغداد أسناناً اصطناعية لا تقدر على عضّنا كما تشتهي. اليوم يا عيني، أشعر بأنني حرة أكثر من أي وقتٍ مضى. في بغداد لا أعرف ماذا أفعل بحريتي، جاهدت مثلك،

ومثل تماضر ونرمين وأزهار ورباب. ها، هل تذكرينها لو نسيت. هي هسه بجواري بعدما اختفت أخبارها تماماً، عادت فجأة مثل هلال العيد. بحثت عن هاتفي وعنواني عند جميع الذين لا يعرفونني لكنها وجدتني في النهاية. سهيلة، متى ستعودين إلى باريس، ماذا تفعلين في كندا؟ الحفيد جاء، والأم هي ولست أنت. أخذت سونيا جميع الأدوار وكذلك الابن، وهو يقطع الطريق بينك وبينها مثل رقّاص الساعة. عودي إلى نفسك قليلاً، عودي إلينا. أتركك الآن مع رباب».

* * * *

«سهيلة سأجيب عن كافة أسئلتك التي أظن أنها لا تزال معلّقة بين شفتيك ولسانك. يبدو أنه لا بد من عبور هذه المسافة معك، بعدما عبرتها لأيام مع فريال. سأكون معك أقل تلقائية وأكثر صعوبة، فأنا لم أكن إحدى محبوباتك. كنت تزعجينني باستسلامك وما كان عليّ، أو ليس من حقي، لا من قبلُ ولا من بعدُ، أن أقول كذا وكيت، ليس لك، وإنمّا لغيرك أيضاً. تعلمت كيف أنظّم فوضى عواطفي ومشاعري كما ينظّم الفقيه لحيته، ويشذّبها، وينتزع منها الشعيرات النابتة، لكنه يبقى يُخيف بها الأطفال والمتطيرات أمثالك. كانت الحياة في الأكاديمية جرعتي الأولى من المرارة، وبعدها طفح الكيل. أسئلتك واحدة من تلك الجرعات. هكذا أشعر: أسئلة قادمة من الماضي الذي لا يزال قوياً وضرورياً على الرغم من إبادته الكاملة. لم أغلق باب الخزانة على ذلك الماضي ولم أطلب له الغفران كذلك، بالطريقة نفسها. فصمت علاقاتي كلّها لكي أكتشف حالي وحالكم أيضاً. حفرة واحدة دخلناها وطُمرنا بالتراب والدود، هكذا، حتى بلا ألغاز علينا نتعلم فكّها. من منّا انتصر تماماً؟ يبدو أننا هُزمنا جميعاً. «لا أتكلم عنك، عن محنتك، هل أنت في محنة حقاً؟ ليس من حقي أن أسأل أسئلة كهذه، هذه وضعتها للمزاح». كل محنة لها مظهر تسوّلي، حتى

الفهم وتفهّم الآخر لنا نوع من التسول. وها أنا أرى نفسي، أتسوّل فهمك، لماذا؟ وأنا أكتب إليك الآن، أستحضرك تماماً، إشعاعك على الخشبة وقنوطك في ساحة الأكاديمية. كنت كثرة، أكثر منا بكثير. أكتشفك للتو ولا أصل إليك ولا تدعينني وشأني. بالكاد نحن شهود، أُصبنا بالجذام وصاروا يخشون لمسنا أو الاقتراب منا، لكننا لا زلنا نحكّ مكان قبحهم وقيحهم القديم ومسوخهم، ورأسنا لم يزل منكّساً، وأنا في المقدمة. ستقولين ماذا فعلت يا رباب في أرض الرومان؟ درست، وتعلمت، واشتغلت حتى بتنظيف خراء بعض النساء المسنّات الثريات اللاتي كن مجرد هياكل عظمية. لكن الخراء كان محفوظاً لديهن كأشد ما يكون تواضع الإنسان ووساخته. من تلك الأجساد، أجساد النساء بشكلٍ خاص، ظهرت منحوتاتي وتكويناتي ومسوخي أنا أيضاً. من ذلك المكان، وبين أولئك العجائز، وُلدت. كان ذلك جوهر حياتي أو بالأحرى جوهر الفن. لا تزال آثارهن ومواهبهن على يدي، ووقاحتهن الحقيقية تسيل على جسمي. كنت في حاجة إليهن أكثر من حاجتهن إليّ. كنّ موهوبات بالقيء والبراز، بالبول والعرق، بالكسل والشرثرة والفظاظة التي لا تطاق، بكل ما يخطر ببالك من أمراض العالم القديم والوسيط والحديث. ياه، كم كسبت من الأمراض! كانت هدفاً، وتربيةً، وعناداً وتحدياً. كنت أصطاد المرضى كما الـ«الجينغولو» الطلياني الذي يلاحق بصبر، ويطارد، ويضطر في نهاية المطاف إلى إقفال أزرار سرواله والانغماس بالعادة السرية كي يبقى غير ميؤوسٍ منه. تمت جميع مواعيدي الغرامية في بيوت أولئك النسوة. أشطفهن، وأطعمهن، وأعطّرهن، وأترك النور موارباً لكي لا يختفين عن ناظري وأنا أسرق منهن فجورهن القديم، وتنهدات الخراب الذي كان طاغياً وحسرات الأمهات على الأبناء الفاسقين. ثقي يا سهيلة، هؤلاء هن. اللواتي وجدت في كنفهن الرعاية والأمان، وقبل

كل شيء، المغامرة الخلاّقة. هن اللاتي ساعدنني على نبش عماي وعجزي، وأنجزن لي أجمل المنحوتات من داخل غابة أرواحهن البدائية. أقمت أول معرض في حديقة إحداهن، الثرية ذات اللقب الأرستقراطي، سنيورة كليمنتينا. تركت لي جانباً من تلك الحديقة البديعة لشغلي، فكنت مصدر فخرٍ لها ولأسرتها وحفيدها المتوحش اللوطي الذي نبّهني لأنوثتي بطريقة لا تضاهى. أنوثتي لا تحتاج إلى ذلك النوع من الحراسة والمزايا والأخطاء، فأهديته عذريتي كنوع من رد الجميل للجمال العنيف. نحتُّ ماريو عارياً، صببت في جسمه الزجر والموانع والإهانات التي نالها جسدي المشبوه وأنا في بغداد. لم أخطّط للبقاء في روما. تلك الأمور والأحداث جرت من تلقاء نفسها. رأيت الزمن وأنا أغادر تلك المدينة، وأترككم. أترك الرجل الذي أحببته ونحن نودع بعضنا بعضاً. رأيته كرجل الجمارك واقفاً على الرصيف يريد أن يفحص البضاعة، يدفع ويتقاضى رسم الدخول. رأيته أكذوبةً تافهة وجميع تلك النجوم في السماء البغدادية مفلسة، وما تلك المشاريع التي حلمنا بها، أنا وإياه، سوى كابوسٍ سخيف. بكيت ليلتها في ذلك الخواء، أشدّ ما يكون البكاء. قلت: سأبكي هنا، في بغداد وأنا أودّعها، سأبكي بكل الدموع، سأخلّصها وأصعد نظيفةً وخفيفة وطاهرة إلى الطائرة..كنت أنشج وأتمخط على الأحياء المتربة وبيتي الفقير وإخوتي الثمانية وأبي المتقاعد الذي يتوجب عليّ ألاّ أراه إلى الأبد. بكيت رعب الشوارع الجديدة التي ستسحقني تحتها لو نسيت. لقد متّ وأنا أعدّ أوراقي للسفر، وحين حملت حقيبتي الفارغة تماماً، حدست أنني لن أعود إلى هناك مجدداً. كانت روما الأصعب. لم تكن اللغة هي العائق الوحيد، إنما لم أكن أملك نقوداً كفاية كذلك. كان معي يومها ثلاثمئة دولار لا غير. لكنّ، من تسهل عليه الإقامة في الدُّرك الأسفل من الهاوية، يستطع الإقامة في أحشاء مدينة مغرية

وسفيهة كروما. فكّرت يومها بفريال بالدرجة الأولى وقبلك طبعاً، فأنت وأنا كنا مخرّبتين تماماً أكثر من فريال. خرابنا لم يجمعنا، بل على العكس مزّقنا وشتّتنا. فريال وحدها هي من جمع بيننا، لأنها تتميز عنّا بالمواجهة الخاطفة والقوية. ربما لأن المعجبين بها كانوا أكثر عدداً وصيتاً، لا أدري. شكلي الهادئ لم يكن هدفاً وحده، ولا شكلك أنت الصموتُ الغامض والواقف في البلعوم. زواجك وأنت ما زلت طالبة في الأكاديمية سرّب إلى جنونك الداخلي نوعاً من الحذر الغبي، فجعل لحركاتك في الجامعة حدوداً، برغم أنك كنت تبدين ودودة، وأساتذة المسرح يدعونك بالغول المكهرب. كنت أتوق إلى أن تكون فريال معي في روما، لا أنت. أريدها، لكي تعيد ترتيب عينيها وذوقها في فن الديكور، فرعها الذي عشقته كي لا تتحير كما حدث وهي تقوم بترتيب أثاثك الثمين السخيف والزائف، حين قمت بدعوتنا إلى الڤيلا الباذخة في الحي المسيَّج بالأسلاك الشائكة والكلاب البوليسية. قررت نسيانكم من دون رجعة، إلا أن أخباركم كانت تصلني تباعاً من حيث لا أدري. الفنانون العراقيون أخذوا يهاجرون واحداً تلو الآخر، فسمعت نتفاً عنك وعنها. فريال وجدت لها طريقاً في بيوت بعض الأثرياء القدامى، أصحاب النفوذ الذي ذهب من دون رجعة، فبدأت تعيد ترتيب الديكورات والأثاث، والسجاد وغرف الضيافة، والحدائق والصالونات. ضحكت حين سمعت أخبارها. قلت، إنها صارت مثلي، أنا أعيد الحياة إلى الهياكل العظمية للمسنّات الثريات، وأعود ليلاً لنبشهن ثانيةً على الجص. أضعهن في الأفران، أشويهن وأخرج منهن أقسى لحظات الوحشة، والعذاب، والخجل، والموت المؤجل. وفريال، تتعامل مع الأشياء والموجودات الصمّاء، والحرير والعشب، والكتان والورود الصناعية، والخشب والحديد والكهرباء وأشياء أخرى تلاحقها. كل واحدة منّا استطاعت إنفاق حياتها بدم بارد. خاطرت مع

تلك الكتل والمخلوقات، ونشطت ما بين التسلية والحلم. أخذت حيزاً صغيراً من الوجود كأنه الابتعاد عن عيون دائرة الضرائب. أعرف ما سوف تقولينه بصوت مرتفع: أي، تماماً، ألم تبدو لنا الحياة ألعن من الموت؟ بالضبط. ما علينا، سأجيبك من دون أن تسألي عن الرجل، والعلاقات، ماذا فعلت هناك، عن تلك الحرية، ليس بمعنى الجسد فقط، أعني حرية اتخاذ القرارات، فالمرأة ليست جسداً فحسب كما يفكر معظم الرجال. أشكّ في أنك تعرفين أنني لم أحب سوى مرتين. أحدهما تعرفينه، ذلك الحبيب الأول، اما الآخر فهو فنان إيرلندي، رسام رائع، انتهت العلاقة بعد عام ونصف العام حين عاد إلى إيرلندا بعد دورة خاصة لدراسة الجداريات في فلورنسا. لم أمت بعده ولا وقع لي حادث خطير مميت. ومع هذا فلا أحبذ شخصياً العلاقات العابرة. إنها تثير لدي رعباً كما لو كانت موتاً، وإهانةً لا مردّ لها من السماء أو من الأرض، خفّةً لا أطيقها في روحي. العلاقات العابرة هي العيش بالمقلوب. تعرفين يا سهيلة، في أحد حواراتنا في الأكاديمية كانت أزهار معنا. جميلة وتثير إعجاب الطلبة والأساتذة من حولنا، حتى أكثر من فريال. ترى أين هي الآن؟ وقتها، كنت أشعر بأننا في حفلة قنص، الأقوى جسدياً هو من يقدر علينا. كنت مستعدة لارتكاب جريمة بسبب تلك التصرفات. بقيت علاقتي بالآخر، الرجل، علاقة محبة عريضة أو لا، وإذا لم يكن أحد الرجال زميلاً أو صديقاً، فعلاقتي به تحكمها الثقافة فحسب. أنا لا أحب من لا يثير لديّ الإعجاب ولا أحترمه. أدري إلى أين تريدين الوصول، تريدين معرفة المزيد حول تلك العلاقة البائسة مع العذرية؟ سأجيبك لكي أخلّصك من صداعك، فأنا أعرف إلحاحك المتواري خلف صمتك. حدث ما حدث بدون مكر أو خبث. عملت كل شيء بهدوء. لم أقتفِ أثره في ما بعد، ولا هو أشفق عليّ، فلم أشعر بالندم والأسف، ولا شعرت بأن لي ماضياً مميتاً

يفسد عليّ المستقبل. صار من أعزّ أصدقائي، يلجأ إليّ في الملمّات العصيبة التي تخضّه، وأهرع إليه في مثلها. سهيلة، هؤلاء الشبان أصدقاء لا يُقدَّرون بثمن، لا يجمعنا وإياهم العار ولا يفرّقنا الندم والأنين. إنني مثل معظم النساء، أؤمن بأن الحب شيء لا علاقة له بالجنس، قَذَرَ علاقته بالمخيلة، وأنا أحب الحب كثيراً، أعني به الحب النادر. يخيل إليّ أن للأمر علاقة تكاد تكون قدسية مثلما نشعر بحضور الله. شقاؤنا لامحدود عند غيابه، وفوق هذا كله، أشعر بأنّ الله يحبني جداً كما أحبه. سهيلة، مررت كثيراً بباريس في طريقي إلى إيرلندا لزيارة الحبيب القديم في تلك الأعوام التليدة. لم أفكر قطّ بملاقاتك، لا أدري لمَ. أهي أنانية أم نفور أم غضب، أو كأنني لا أريد مساعدتك في صراعي المهلك مع نفسي. أردت البقاء وحدي من دون توقف. «سلّمت الأوراق إلى فريال التي استغربت كيف استطعت أن أسجل ما سجّلت، كأن إحدانا لم تغب عن الثانية إلا ثواني معدودة». ومع هذا، فإنني كما يقول أحدهم «أتقن الصداقة أكثر من الحب، وأنت تبدين لي مثلي في هذا الأمر».

رباب

* * * *

«عزيزتي سهيلة.

تذكرت قولك في أحد الأيام، حين قلت وكنت محبطة: «ما كان يعوزني حقاً هو المشاكل والأزمات، هل افترضتم العكس؟ التفتي إلينا وكنا في دار بلانش. حاتم وأنت تتناكدان كالعادة. فجأة رفعت رأسك، لم تنظري في عين أي منا، قلت في صوت خفيض: لم أفطن إلا الآن إلى أنني أنا المشكلة. يقول ابني هذا وها أنتم ترددون الكلام نفسه لكن بصيغ أخرى. حزنت بلانش وغضبت حين أخبرتها أنني أعمل جليسة أطفال في العمارة التي أقطن فيها بعدما تعسّرت ظروفي

المادية. أنت سيطرت على أعصابك وقلت «معليش، شو يعني، إنه شغل كباقي الأشغال». لا عليك من بلانش. لكن التهمة في عينيك يا نرجس كانت تناوشني حيثما التفتّ. أما حاتم فكان الأسوأ. غضبه أسطع من الجميع. شعرت بأن عينيه غادرتا محجريهما وصبّتا جام غضبهما عليّ. وقف وسط الصالون ووجه كلامه إليّ مباشرة: «أشعر بمسؤوليتي نحوك كما نادر، وما يقوله ولدك هو الصواب. عليك أن تقفلي دارك وتتوجهي إلى كندا في هذه الفترة العصيبة على الأقل. أعرف كلّ ما سوف تقولينه يا سهيلة، تمام، ابنك ليس هو الجنتلمان المثالي لحياتك القادمة، إلا أن عليه القيام بواجبه نحوك». مصيدة، قلت، أشعلت سيجارتك وكرعت القدح إلى آخره، وبدأت تنوحين.

هكذا أنا يا عزيزتي، نُحتُّ طويلاً وأنا هناك، ليس في كندا مثلك، وإنما هناك في بغداد. شيء فريد، لا يحتمل، لا يطاق. الدنيا قاتمة لولا فسحة الحلم. فهمت بفضل المواضيع السياسية الأكثر تعقيداً سر جاذبية دون كيشوت، العمل الأدبي والشخصية كما هي معمّمة. دون كيشوت نموذج للحالم المصطخب، ساذج أو واهم، ربما، لكنه مكافح. نقول «دونكيشوتيا» لأحدهم، سأقولها بلا تردّد، سأقولها لك، للبعض من الأصحاب والأصدقاء، لمَ لا؟ إلا أن مساحة الإدانة تنحسر دوماً عن قَدْر من الإعجاب، ومن الإقرار بخصال حميدة. لعلها من فرط سموها تنتمي إلى عالم الملائكة، أو إلى عالم أولئك المجاذيب الذين يترافق الكلام عنهم دوماً بالقول إنهم، للحق، يملكون «شيئاً لله»، أي للنزاهة والترفع والحلم. في الميدان العلمي، يقرّون بدور الخيال. يعرفون أن الخيال حفّز الاختراعات الكبرى، ويعرفون العلاقة بين هذا التحفيز ومستلزمات التطبيق والعمل الدؤوب حتى الإنجاز. في الإنجاز العلمي، ما من إنجازٍ مكتمل، فالباب يبقى مفتوحاً للتجاوز والتناقض. بغداد تقفز زلقةً من ذلك الباب: التناقض والإنجاز. قوتها

القاهرة تكمن داخلها، داخل أبنائها، في حمّى الحياة اليومية العادية الرهيبة والمتقطعة. نلمح طرفها في عين إحداهن وهي تنظر إلى الأفق البعيد، لكنها تشمّر عن ساعديها وتخبز لنا. تطهو، وتشطف، وتقطف الريحان من الحديقة وتضعه على صدورنا. تعمل كلّ ما يخطر في بالك من يوميات الدنيا لكي تلتصق بتلك اللحظة. ما هي تلك اللحظة يا عزيزتي؟ اللحظة العراقية التي خرجت على القواعد المألوفة. إنها مختلفة لا تشبه أحداً ولا تريد أن يشبهها أحد. غادرت وصديقتي الباحثة السعودية جوهرة من أجل ذلك البحث، هل تذكرين؟ ما هي أولويات المواطنين، النساء على وجه الخصوص، بعد هول الحرب؟ كان ذلك مجرد تفصيل هامشي، أعني العنوان. كان ثمة عناوين تتغير خلال لحظة، هاربةً وتاركة نفسها لعنوان آخر كما كانت معنا في الحرب الأهلية في لبنان. طوال الطريق الصحراوي ما بين عمان وبغداد كنا نتساءل، جوهرة وأنا. وضعنا الأسئلة على شكل استمارة تشبه تلك التي وضعتها فرنسا بعد الحرب الثانية ما بين الأولويات والنتائج. خلف التغير يقبع حَراكٌ في سلّم القيم داخل المجتمعات، وليست الأولويات والقيم التي تسندها هي واحدة في كل المجتمعات. يمكننا بالطبع طرح السؤال نفسه على أكثر من مكان وعقد مقارنات، ولمَ لا؟ ما الذي يحفز العراقيين اليوم، أم الفلسطينيين أم الجزائريين أم سواهم؟ لا أريدك أن تفزعي. زرت أمك وشاهدتها بالطبع. إنها سيدة يستحيل إيجازها بكلمة، كلام أو مفردات. جالسة تحيك الملابس الصوفية وتعيد فكها، تشرب الشاي بالهيل وتهذي باسمك واسم شقيقك ضياء. أعتقد ان والدك انتقل وسكن في شقة تلك الممثلة الشابة، رضيت به كي يُخرج لها بعض المسرحيات الفاشلة والهابطة. سمعنا في بيتكم عدداً لا يحصى من النكات، روتها أمك عنه وعن تلك الممثلة، وعن الأوضاع من دون استثناء. لم تبتسم أو تضحك مثلك. كانت تروي النكتة وكأنها

علقت تحت قدميها وتريد دفعها قليلاً لكي يكون بمقدورها الحركة. كنا نخجل منها حين نبتسم ثم نقهقه قليلاً. كانت تعمل وهي مغمضة العينين، تتلمس الأشياء كحِرَفية بارعة، وكل شيء من حولها، جميع ما يخطر في بالك: أستكانات الشاي، وقناني الزيت والخلّ، وأكياس الطحين والسكر والشاي، والطناجر، والصحون، والمناشف، والأحذية والنعال، والأدوية والمراهم، والملابس القديمة، كلها قديمة، كدت أقول: والجديدة أيضاً. الفلوس العراقية حولها، الدنانير بجوار الدولارات، وبوسعك أن تعددي إلى ما شاء الله من دون أن تملّي. ولنفترض أنك مللت، أو سئمت، فإنّ أمك لا تسأم أبداً. لديها قدرة على استخراج الخاص من العام، والعكس صحيح. تذكرت عالم الاجتماع الفرنسي اللاتع الصيت بيار بورديو، حين قال عن اللغة، أعني عن المفردات نفسها كما هي في القاموس، إنها لا تعني شيئاً، أو تعني القليل. إن الكلمة بالنسبة إلى أمك لا تعني شيئاً، تلقيها فحسب. لا تعدّل فيها أمراً ولا تريد أن تُنتج من خلالها أي شيء خاص بها. فقدت الكلمة، أي كلمة، بمعنىً أو بآخر، سائلها ولبّها وعمقها. صارت مثل ذلك الخيط الذي تحيكه ثم تفكّه وتعيده ثانية. خيوط، لا هي مستقلة ولا مترابطة، لكنها متوفرة بين يديها بحدودها الدنيا، تلعب بها وتلعّب بها الزمن، زمنها، لتشعر بأنها موجودة بطريقة ما. لذلك كانت النكتة، النكات التي أطلقتها مدعاة إعجاب وتعجّب ودهشة لا نظير لها. من أين لها هذه القدرة على الحفظ والرواية؟ لا أبالغ يا سهيلة لو قلت لك إن رصد النكات المتداولة بين الناس في معظم البلدان العربية، وتدوينها مؤرخةً بتواريخ انطلاقها وشيوعها، عمل من صلب البحث الاجتماعي، وإن ما ستقوله لنا النكات في كل بلد، لهو أبلغ دلالة بالتأكيد من أطنان المقالات المنشورة في صحف تلك البلدان ومن الخطب والكتب الجادة الصادرة هناك. والدليل الإضافي على ذلك أن النكات نفسها

مرصودة، وما يتجاوز فيها الخطوط الحمر يتعرض للملاحقة ويتعرض قائلوها للوشاية والمساءلة، والانتقال من التداول الشفهي، وهذا أمر مؤذٍ للسلطة، إلى التدوين، وهو أمر يعادل في خطورته كتابة بيان سياسي. تعرفين أحسن مني أن العراقيين ليسوا أصحاب نكتة كالأخوة المصريين، لكن الحيف واللاإنصاف والأهوال التي وقعت عليهم امتصت نصف أعمارهم، فتركوا النصف الآخر للنكتة. هكذا بدوا لي أنا على الأقل. تعثّروا بالنكات في الظلام وهم ينادون على الموتى والقتلى الصرعى والجوعى، إلى آخر كل تلك المفردات. توقعت أننا حين سنشاهد بعض الأصدقاء والصديقات، فسوف نوزّد لهم النكات لنبدّد الحزن والقهر والغم، غير أننا اكتشفنا أنهم خرجوا عن المعقّد والبسيط ودفعونا إلى الضحك دفعاً. شعرت بشيء من الخوف. قلت، إذا ما رويت لهم إحدى النكات التي حضّرتها خصيصاً حول الزعماء الأجانب، والتي تناسب مثل هذه الأوقات بالذات، وأنا كما تعرفين لا أحفظ النكتة ولا أملك موهبة إلقائها، فمع ذلك سيضحكون. لكننا هناك تبادلنا الأدوار. هم يلقون علينا النكات ونحن نريد أن نمسك بأحشائنا من الضحك الذي يتحول بعد فترة قصيرة إلى نواح طويل، طويل جداً. كانت تتحول كل نكتة تلقى أمامنا إلى نوبة من الحقد على هؤلاء وأولئك. لكن بجانب ذلك، كان هنالك الصمت والصامتون. الصمت الذي هو مرحلة بين الإخلاص للامتناع التام عن الكلام، وبين الترفع النهائي عن استخدامه. وكلتا الحالتين تسبب ألماً وشقاء لا يُصدَّقان لجميع من التقينا بهن وبهم. كأن الكلام وحده هو الذي أساء معاملة الجميع، وفي أحسن الأحوال، هو الذي ضربهم بالصواريخ والقنابل بدلاً من المفردات والجمل؛ الصفات وأفعال المضارع والماضي، والفاعل والمفعول به وكل تلك الحصيلة من البلاغة العربية. ذلك الصمت المخيف الذي لم يكن أبداً مطلقاً أو مُطبِقاً، بل

ولّد ظواهر لا علاقة لها مبدئياً بالقول. ولّد انتفاخاً، أو إذا شئت «فلطحة» تفلطح. اضحكي قليلاً من هذه الاستخدامات لأمور في غاية الخطورة والغرابة. خراب تام لطاقة الكلام على ضبط الأشياء أو التعرف إلى ردود الأفعال، أو التقاط الفعل الملائم، أو غير الملائم حتى تحوّل الكلام إلى مرض ووباءٍ وعلة. شعرت وأنا أدخل أحد الشوارع وأمامنا مقهى صغير في حي شعبي في شارع النهر، بأنّ الرجال المسنين الذين يجلسون هناك، يريدون إبلاغنا أمراً عبقرياً لا يُصدّق: إنهم لا يقدرون على إخبارنا بأي شيء قط، حتى جعلوني أشعر بالرعب، اذ ليس لديهم أي شيء ينهشهم من الداخل يريدون التفوّه به، كلا. ليس دهاءً ولا مكراً، ولا هو اليأس حتى. أظن أنني لا أعرف ما هو بالضبط. هو أمر يجعل رؤوسنا منكسة بطريقة طوعية، يجعلنا عاجزين حتى عن قتل أنفسنا. لن أنسى ما حييت ذلك الرجل المُسنّ والنحيف الذي شاهدته في المقهى أمام دجلة، وقد خلّف تأثيره الغريب، وجعل غضبي علينا كعرب بالدرجة الأولى أكثر من الدم الموجود في حلوقنا وحنقنا على الولايات المتحدة والغرب. كأنه سرد على مسمعي الحروب كلها: الحروب التاريخية والشخصية، وحروب الكراهية ضد المحبة، والصداقة واللاصداقة، وحروب الفخاخ التي يبتدعها الأزواج لبعضهم ضد البعض الآخر، وحروب أصحاب المهن الواحدة، وحروب المرء ونفسه بين الخفقان النبيل للقلب البشري والبغضاء المقيمة بين بني البشر. الحروب ذاتها التي تقع بين الناس تنشب، بمعنى من المعاني، بين الإنسان وشروره، وبذاءاته، وخفّته وجبنه. لا أدري، لو بقيت أعدّد لك مجمل حروب ذاك المخلوق ـ «الإنسان» ـ لدخلت القهر والفقدان الذي شاهدته في عيني ذلك الشيخ. إنه المادة الخام لذاك الذي ذهب من دون رجعة. لذلك خفت منه على نفسي، وعلى باقي العراقيات اللاتي حضرت قائمة بأسمائهن، وما عليّ

سوى طرق أبوابهنّ واحدة تلو الأخرى لكي لا تموت الرغبة والأمل. إن البلد لم يتلف وينحلّ، ولم يتفكّك ويتحلّل مثل جثة، وسوف أشاهد وأستعيد جميع الغائبين والأحياء، والمرضى والمسنين، وأنا أرى بعض الصور التي التُقطت لشبان وشابات عراقيات تبعثروا في الشوارع الفرعية وأطلقوا عليهم، لا سيما عقب الحرب مباشرةً، لقب الظاهرة، ظاهرة ما صار يُعرف برقص الشوارع أو «البريك دانس» الذي استمر لأشهر طويلة. وقد وُلد ذلك النوع من الرقص في شوارع الأحياء الطرفية البائسة كما كانت غيتويات السود في الولايات المتحدة، أو المهاجرين العرب حول المدن الفرنسية الكبرى. شكّل ذلك النوع من الرقص وحيث وُلد، تعبيراً عن التحام الجماعات الهامشية في وجه النّسق العام السائد. فسّري لي إذاً ما معنى خروج الشبان في بغداد إلى الشوارع وتحولهم إلى «بريكية» حسب الكلمة التي شاعت حينها، خاصة في الجزائر، وسرت كالنار في الهشيم إلى عموم البلاد العربية ولو بخفاء وسرية؟

صوّبت رأيي بايقاعات رقصك، حين شاهدت صور أولئك الشبان وهم يجوبون الأزقة والأحياء الشعبية، وحين جعلت من جسمك وحركاتك مشروعاً لتفجير الغضب، غضبك. شعرت، وأنا في بغداد، بأن رقصك هو الحياة التي تريدين استعادتها لهم ولك، ولنا أيضاً، وأن ما تعارضين به الماضي والحاضر هو هدف جمال الغد نفسه، وأدركت أن هناك أنواعاً شتى من المقاومة بعدما أصبحت الأيديولوجيات الكبرى مشكوكاً في أمرها، أو غير ملائمة أكثر فأكثر، فلم تعد تمنح نقاطاً مرجعية للقيم والمسلكية الأخلاقية. من الجائز أن تكون هذه الأنواع من المقاومة هي التي تزيد من أهمية التفاصيل اليومية، وتحيل الحياة إلى نعمة كبرى بسبب تلك الويلات. ثقي يا سهيلة، بأنني اكتشفتك في بغداد أو تعرفت إليك من جديد، وليس في بيت بلانش بعد حفل

مسرح الشمس ودعوتنا إليه، نحن العرب وبعض العراقيين، لحضور تلك الدقائق السبع العراقية التي رقصت فيها وأنت فوق خشبة المسرح ومعك ذلك «الفاو» الوسيم الذي قلت عنه في ما بعد إنه أحد أعمدة برج بابل. ضحكنا يومها، حاتم وأنا، ونحن نخرج من باب المسرح. عندها التفت حاتم وقال لي: «إننا لم نرَ ذلك البرج يوماً ولا تلك الجنائن، إنها أمور مغبشة داخل المخيلة، كأني بسهيلة تقول: من الخيانة أن يكون للمرء برج واحد لبابل. علينا أن نصدق سهيلة في ذلك الاحتفاء الجميل وهي أمامنا. تريد أن تثق هي أولاً، بأن ذلك البرج موجود في القلب، قلبها، وبأن الحياة تفيض على من حولها كما هي حدائق بابل وقنوات مياهها، تريد تفجيرها على هذه الأرض، في العالم، في قلب الشرق والغرب. وتود أن تؤمن بأن الحياة، هي غاية بحد ذاتها، وليس لأي سبب. قلت لك ذلك من قبل يا نرجس ونحن نُحضر أنا ويلانش، لسهيلة، الهوامش والمتون، والمصادر والوثائق. حتى ديالى قامت معنا برسم موديلات بعض الثياب أو التفكير في بعض الديكورات لتلك الرقصة التي شاهدناها قبل قليل، والتي استغرقت سبع دقائق لكنها أخذت منّا جميعاً، ومنها بالدرجة الأولى، عمراً كاملاً. حسناً، إن لم تستلطفي رقصها فهذا شأنك. لكن سهيلة كانت تحارب البغضاء والعداوة واليأس حتى لديك، أنت إحدى صديقاتها العزيزات قبل غيرك. كنت متأكداً من جميع العوائد التي شاهدتها اليوم، من النجاح اللطيف الذي غمرنا به، ومن أنها تطلّبت إرادةً نارية. كنت واثقاً من أن سهيلة تمتلكها. إنها عراقية ياعزيزتي». أقول لك هذا الكلام للمرة الأولى يا سهيلة. أسجّله وأرسله إليك، وأكشف أمامك للمرة الأولى ما كان يدور بيني وبين حاتم. كانت بغداد وسفرتي إليها من أجل استعادتك إليّ. أنا التي بقيتِ ترددين أمامي مقولة دوستويفسكي الشهيرة في الجريمة والعقاب «إنني أحب أن يخطئ

الإنسان. هذا هو امتياز الإنسان الوحيد عن سائر الأحياء. بهذه الطريقة يتوصّل الناس إلى الحقيقة. إنني انسان وأنا انسان لأنني أخطئ، بيد أننا لا نعرف كيف نخطئ بطريقة شخصية. ولعل الخطأ الأصيل خير من حقيقة تافهة. إن الحقيقة تُستعاد دائماً بينما يمكن أن تُدفن الحياة إلى الأبد». إنني يا نرجس الخطأ الأصيل، أنا سيدة الأخطاء المستعادة. معليش يا عزيزتي إن سببت لك صداعاً برقصي الذي لم تحبيه، هكذا أشعر، سميه هذياني وسذاجتي، سميه حدسي الأصيل. سمّيه ما شئت، فأنا أدافع فيه عن أسباب حياتي وحياتك أيضاً. إنني لا أحمل مكبراً للصوت أنادي به على الجميع أن يسمعوا صوتي ويتحسسوا ذبذبات جسمي. رقصي هو تعلّقي الوحيد بالدنيا.

سهيلة، قبل أن أختم رسالتي إليك، أروي لك أمراً غريباً حصل معي في بغداد. آه، من تلك المدينة، ماذا صنعت بي، بغداد بحق، أنتم، كلكم، الجنازات المتوالية وأكاليل الورد والغار، لذلك تفجّر غرامي بحاتم هناك على غير ما أتوقّع. تصوري، عشت الغد، والمدينة غارقة بالظلام والأنين. صدح صوته بالغناء العراقي وأنا أسمع بعض المواويل والبستات والأبوذية العراقية منبعثة من راديوهات المقاهي وسيارات الأجرة. من الجائز أنهم يسمعون تلك الأغاني كالروتين اليومي حتى ينتهي الدفن أو يبدأ من جديد. فالموتى هناك لا يُحصون والأغاني هي الصلة الروحية ما بين الموت والحياة. كانت النسوة يرتدين الملابس السوداء، لا كطقس مأتمي فقط، وإنما لأن الأسود كلونٍ، غدا حزام الأمان وطوق النجاة، كأنهنّ ينتظرن ما هو أسوأ ويتحضّرن له. حضر وجه حاتم وصوته أكثر من بناتي، تصوّري، هل تصدقين ذلك مني، أنا المجنونة بهما؟ تذكرت ما قرأته في أحد الأيام عن حنّه أرندت وعلّقت أنت عليه قائلة: «ياه، كل واحد منا حين يُغرَم يتخيّل الصور نفسها، يتصور أن غرامه هو الوحيد الأوحد، لا يُشرك به

أحداً». غرامي بحاتم بدا لي في بغداد، هو صحتي. فكتبت إليه قائلة ما قالته حنه لحبيبها في إحدى الرسائل، «كل شيء يكون أخرسَ حين لا أتكلم معك».

مبروك للوليد الجديد. مبروك لنادر وسونيا، ولك أنت صاحبة الصلة الأولى بالموضوع. أن تكوني جدة، شيء كالكرم المغروس في القلب، فلا يعود يكفي جميع ما حولك وأنت تشاهدين مولد طفل. كم أودّ أن أحيا لكي أصاب به أنا أيضاً يوماً ما. سهيلة، كلنا بانتظارك، هيا عودي إلينا. جلبت لك التمر والدبس، وليفة وكيساً للحمام؛ شغل عراقي أصلي اشتريته لك من أسواق الكاظمية. جلبت لك حفنة تراب من حديقتكم. أصرّت أمك على هذا ففعلته من أجلها. تراب مريض، قالوا إنه مسموم وخفت أن أصدق. ارتعبت من فكرة أن الولايات المتحدة تريد تحويل البلد، وربما العالم، إلى مجرد مقبرة. إن تعطّشها للدماء لا يُعقل. يقول حاتم وهو يرى عدد الصفحات المكتوبة: صرت متخصصة بكتابة الرسائل بدلاً من البحوث، قولي لسهيلة أن الآتي أعظم».

نرجس

* * * *

أنام على كذبة وأريد أن يهرب نادر مني: «إنني متعبة وأريد النوم حالاً». لم يرد عليّ، ولم يرفع عينيه عن وجهي، كأنني أمسك بقائمة الطعام، أختار ما يناسب غيري. أما طبقي المفضل، فكان حساء عرق فاو. كنت أقرر في كل يوم من وجودي مع نادر، أن أقصّ عليه الحكاية، فوضى الحكاية، لكني أحجم، وأتردّد وأسكت. لا علاقة للأمر بالأمانة والصدق ما بين أم وابنها، ولا بالخبث وسوء الأخلاق. إنه أمر لا أستطيع وصفه، يخصّ داخلي وحدي، مرضي ومرحي،

وحزني وحدادي على عمري الضال. كنت دائماً أكذب على هذه النفس، أراها في محل للخرداوات، تحمل أثقالها وتجرّها خلفها لكي تُثقل بنيتي، ويكون مقامي على الأرض التي أقف فوقها وقوراً وجدياً. أشعر دائماً بأن هناك ما يكفي من الوقت كي نشيخ، ونترمّل، ونتصابى على الصبوات، ونتباكى على الارتجافات المصونة بالحراس والإهانات. بقيت أبتسم وأنا أنظر في المرآة. يتعالى صوتي وأنا أغلق جفنيّ، وأحدثه بصوت خفيض في بادئ الأمر: «نادر، عليك بتغيير المرآة. فهي عاجزة عن أن تُظهرني كما أنا، إنها تقاومني». كنت أكرر ذلك أمامه وخلفه حين وصلنا باريس. ألحّ عليه ونحن في برايتون، أقول بصوت ساخر ونحن في كندا: «إذا لم تغيرها، فسأفعل ذلك أنا، اليوم، الآن». لا أسمع ردّه ولا صوته لكنني أضيف: «غيّرتها من دون علمك وقبل شهور طويلة. أنت لم تلاحظ ذلك أصلاً. ولِمَ تلاحظ؟ فالأبناء يشبهون ضيوف البلاط الملكي، تستهويهم الفرجة على الزخارف، والنقوش، وأنظمة الري، ووضع اللوحات والستائر وملمس المحتويات، لكنهم لا يعيرون اهتمامهم قط إلى أساسات الصراخ والأنين خلف كل ما يرونه أمامهم». حين لا أسمع أي كلمة، أعود وأكلمه وحدي. ما الفرق يا نادر إن كنت موجوداً أو غائباً؟ قلّلت مساحة الضوء، قلت إنه كان السبب الذي جعل وجهي يبدو غليظاً ومستوحشاً. مما لا شك فيه أن صفاء الإضاءة، يجعل الوجه يقارب المرض، يعلوه الصقيع وأحياناً الموت. نادر، ثق بأن هذا ليس وجهي، ذاك الذي أعرفه وتعرفه أنت أيضاً، لم يكن هو أبداً. باغتني فتضايقت في البداية، كلا، أهنت بسهولة لأنه هجرني. صار بناءً فانياً من تلك المباني التي نقول عنها إنها بقيت ذخيرة الشرف الذي يعطي كل شيء، إلا الأمان على الشرف ذاته. نادر، هل تسمعني؟ خفّفت النور إلى النصف، وأنا أتزيّن، وأضع ماكياجاً حتى تتعب يدي، وأبدأ التجوال في

أنحاء وجهي وجسمي ولا أعثر سوى على التلف التام. حزنت طبعاً في البداية، بداية علاقتي بفاو. الوقت، أو حسب آراء الفيزيائيين، الزمن، كان بالتحديد يختال أمامي، ويتفاخر بصفاته. حين شاهدت فاو، في العتمة، عتمة مسرح الشمس، كنت بحاجة إلى اندفاع أعلى وأقوى ينبعث من داخلي، أقوى من السنّ، والكلام والنص. الرقص جعل قحط عمري يتفاخر بالرقة، التي كنت أتجول فيها في إيقاعات لطيفة ما بيني وبين جسمه. لن يتحقق الرقص على المسرح أبداً، أو ينتهي هناك. إنه يبدأ دائماً حتى وأنا أجسّده أمام تيسا وماريا. كنت أخطئ، أقوم وأقع ولا أعرف كيف أنسّق خطواتي. كانت التمارين التي أجريتها وحدي تنبش الأسوأ. إن الأمر أقوى وأجمل حين لا نعرف كنهه، ونجهل ما هي الخطوة التالية، وما هي ردة الفعل. كل خطوة خطوتها كانت تقودني إليه، وتنزلني من قطار الإجرام والرعب الذي استقللته، فيعطيني آنذاك، بالإشارة والحركة واللمس، مغامرتي. من على ذلك المسرح سئمت الأضواء، قاومتها كي لا أدعه يشاهدني تماماً. لكني شعرت بأنني صرت مجرد قصاصة ورق يطويها ويضعها في جيبه؛ بطاقة تعريف ألقى بي في سجنه، سجن جسمه الكامل. كنت أخاطب تيسا بصوت لا يُسمع، كي تخفف الإضاءة، يبدو أن النور القوي يدع العروق نافرة، والمسام مفتوحة إلى أقصى درجة، يدخل العمر منها، يدخل كما يشاء. يأبى العمر إلا أن يدخل، لا يخرج، يدخل ولا يخرج. حاولتُ أن أدعه يخرج ولو إلى حين، يتأخر، ويغيب قليلاً، كأنه يغفو، أو يزور أحداً ما وهو في طريقه إليّ؛ يزور بلانش، ونرجس، وكارولين، يزور نور الفواحة، أو حتى وَجْد، أو يقف في الطريق كي يستريح قليلاً. يذهب ويداعب بعض العشاق، أولئك الذين أراهم في المترو، وعلى ضفاف السين والشوارع الجانبية. يحضن بعضهم الآخر بهدوء، بعنف، يقبّل الشفاه، كأن القبلة تُرجعهم إلى عهد

جمالهم الأول. وهم لا يعرفون من أسرار هذا الكون سوى هذه الحركة فوق الحركة؛ بلع الريق، واحتكاك الأسنان بالأسنان، واللسان. يشحنهم ذلك اللعين بالصرخات. يمشي العمر أمامهم، يغافلهم ولا يبدو على عجلة. معي أنا، أراه مستعجلاً جداً، لكني غيرت المرآة الثانية كذلك. فركت وجهي بالماء الدافئ والصابون الخالي من المواد الكيميائية، هذا ما وصفته لي صاحبة الصيدلية، جارتي الفرنسية، قالت: هذا صابون يُنعش البشرة، تمام. عندما غسلت وجهي صار لطيفاً، لكنه تكرمش بعد ربع ساعة. تجعّد كأن الكون جلس فوقه وتركني. قلت في سري وأنا أخرج من الصيدلية، ما نفع الانتعاش. أريد أن أرى العمر، عمري، أريد أن أمد يدي إليه، أصافحه وأتمنى له وقتاً كافياً لكي ينصرف عني. كلما أغيّر المرآة، يتشقلب حالي أكثر من اليوم السابق، وفاو لا يهتم. بمجرد أن نكون معاً يقول لي: سأنفق عمرك على طريقتي الخاصة، ليس على سرير النوم ولا بالسليقة، سأفتح به سوقاً خيرية. لم ينفع الماء الفاتر والصابون فاشتريت منشفة على شكل كف وبدأت أمسح وجهي برفّة في البداية، هكذا قالت تلك السيدة، ثم ضاعفت حركة يدي على الصدغين، وحول العينين؛ هذه المناطق التي كنت أرقبها دوماً. هنا تجمّع العمر الطائش، والزائف، والخاوي. وهنا تجمّعت الأكاذيب، والملل والمرارة، والكلمات المحتشمة والسخافات المخلصة جداً. ما هذا؟ جعلت من نفسي أضحوكة، فكنت أولول، وأضحك، وأصرخ في وجه المرآة، وأكوّر قبضتي، وأرفعها إلى أعلى لكي لا أرى، كأنني أرتدي عمري. أشكّه بدبوس على صدري وأشعر بوخز ناعم بطيء ما بين النهدين اللذين تهدلا يمنة ويسرة وسرحا على نواصي الشوارع والبيوت والمدن والغرف والشراشف. كنت، وأنا أشاهد أمي، أقول لفريال: ياه، كم هي عجوز، كانت لا تزال في الأربعين فقط. العمر نفسه تهدل على نفسه،

تبهدل، بدأ يضجر، يسأم، يملّ، يريد أمراً آخر. السن هو الآخر له عمر. نادر، أين أنت يا عيني؟ لماذا لا تجيبني، تعال تصفّح معي وجهي صفحة بعد صفحة منذ ومنذ، ولا تدعني وحيدة معه. كان يخاف عليّ حين يشاهدني أتألم، أو لمّا أغنّي بصوت حزين وأدخل الحمام، وأغيب لفترة طويلة. وحين يشتد صمتي كان يقول لي وأنا متأكدة من أنه يتضايق من سلوكي: «أمي، كأنك دخلت المرآة».

لو يدعني نادر أدخل فاو، أرتشف دمه وأدعوه إلى وليمة عمري. أسحب الستارة وأجري راقصةً فوق برج إيفل، بابل. قلت لفاو: ابحث معي عمّا بقي مني لك، ابحث عن فيضان دجلة والفرات، وطوفان الرافدين والطمي على جانبي الفاو. ارقص معي ليوم واحد، لجملة واحدة. آه، لو ترجمت رقصي إلى اللغات الحية والميتة والتي تُحتضر! أخبرته أنه ما من قواعد في الرقص. ماريا متغطرسة قليلاً مثل أمي، وتيسا تأتي إلى أحلامي مثل الجماعة، تأتي بالجمع، تقول: لا تقلّدي أحدهم أو إحداهن. كيف ذلك يا تيسا؟ ألا ترين فجاجة نفسي، أصير رعاعية شريرة، أحتضر وأنا أمشي على رؤوس أصابعي. أخذتُ تيسا من يدها، قلت لها: هيا، ارقصي معي، دعينا نرقص، هكذا تفعل أفضل سلالات النساء بمن تبقّى منهن. لكن فريال كانت تعبر الحدود بالكلمات الساخرة، تسخر مني حين أقول: التمثيل والرقص هما مسقط رأسي. ترد: «لا أحد يملك رأسه فكيف مسقطه. من يهتم الآن بتأبين نفسه، ووالديه، وجنّاته القديمة الأولى. سهيلة، إنني لا أحب جميع الجنات». أقلق الدكتورة وجد هواني الشخصي، قالت: «صورتك الآن مقلوبة. حسناً، لا تأخذي حبة المنوم هذه، سآخذها بدلاً منك. ثقي بأنني لن أبيع أسرارك. لن أضطر إلى ذلك حتى لو مت بجوارك. أنا لست طبيبتك الخاصة، أنا صديقتك المخلصة. لن ألوّث واجبي، وقَسَمي وولائي. لن أخونك، فلا تراقبيني هكذا، أرجوك. لا تتأثري

بما تسمعين وبما يُقال. إنني بجوارك، فلا تخافي». فهمت تلميحها الغامض في ساعة متأخرة، بدأت تعزف لي بعض الألحان فما كان عليّ سوى الاستجابة. لم يسبق أن رقصت هكذا أو تمايلت بهذه البساطة. كانت ملامحي أمام فاو، تبدو متماسكة لكي يأخذني على محمل الجد، محمل الرأفة بعمري. خفت أن أقول له: «حتى الإيقاع رسالة». غريب أن أسماء لم تتصل مهنئةً بولادة ليون، لكني شاهدتها حاملاً في شهرها الأخير تقريباً وهي في سن مقارب لسني، قالت: سوف أُقنع حمادة بألاّ ينزل لكي يظلّ قريباً من مكمن عواطفي، ولا يغيب عن ناظري. سأبقى حاملاً به حتى تحين الحاجة إلى ولادته.

أفكر في موتي، فكرت فيه طويلاً. موتي لا يعكر صفوي، يعجبني، يأتمر بأوامري. خدعتهم وأنا أنفجر ضاحكة. موتي بَرمائي، احترفته على جميع الأوجه بعدما نُقعت بالسموم كلها، لكني لم أمت. كان الأمر مذهلاً وأنا أشاهد بشرتي، وهي بلون الخمرة التي يحبها فؤادي كما تحبها بلانش. عيناي بطوابق عدة، أنفي فخم وشعري يتطاير بسرعة مفاعل نووي. أحدهم، واحد فقط يفور أمامي كالصودا: فاو. كان نائماً كالرافدين بين ضلوعي. سحبني من نومي وسريري، من موتي ونسياني. سالت الدموع على خدّي وأنا أسمع صوت نادر. آه، إنه هو، يعتمر شالاً من شالاتي التي أحبها. كان الطفل، الفتى الحزين الجميل، وهو ينظر في عيني تماماً، تذكرت أبياته الأولى: «أخشى الموت، أخشى أن تستمر الحياة بدوني، أخشى أن ينساني أصحابي وأن تتضاعف دموع أمي كلما فتحت جفنيها».

أكتوبر ٢٠٠٢

7, rue Venise. Paris

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أحب أن أُحِب، احب أن أُحَب وأكون محبوبة. أحب جميع الكلمات التي انتظرتني ولم أقلها لأحد. أحب الكلام المجهول الذي لم أتأكد من وجوده. أحب تلك اليد التي تمشي على جسمي بغير نظام ولا هدف، بالزائد الذي لم يَفِض، وبالناقص الذي فاض، وبالرجال الذين تركتهم على سجية نفسي، أنام معهم واحداً تلو الآخر ولا ألتقي بهم؛ بالمدنيين العراة الذين لا يملكون إلا سلطان ضعفهم المعتدل القامة؛ بالضعفاء خائري القوى، الذين يجيبون كلما أقول لهم: هاتوا؛ بالضعفاء أكثر مني، بالمخدوعين المعذَّبين الذين لا يميزون بيني وبينهم. كلهم ناموا معي ونحن نذرف الدموع، نتشابك بالذراعين ويغلب علينا الخوف.

ISBN 978-1-85516-620-2

DAR AL SAQI
الساقي